

جهد دولة السلاجقة في خدمة الدعوة الإسلامية

محمد عبدالله الجندي

اسم الكتاب: جهود دولة السلاجقة في خدمة الدعوة الإسلامية.

اسم المؤلف: محمد عبدالله الجندي.

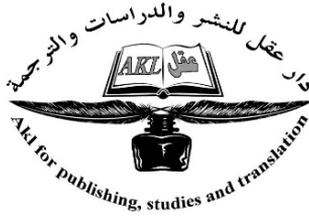
رقم الإيداع في جمهورية مصر العربية: (13796 / 2024).

الترقيم الدولي في جمهورية مصر العربية: 978-977-8877-04-5

الترقيم الدولي في الجمهورية العربية السورية: 978-9933-567-93-4

سنة الإنتاج: 2024.

يطلب الكتاب على العنوان التالي:



دار عقل للنشر

واتساب وتلغرام: 00963932832010

aklpublishing@gmail.com



الثقافة الروسية للنشر

واتساب وتلغرام: 00201060253858

russianculture.egypt@gmail.com

القاهرة - دمشق

مُقَدِّمَةٌ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونستهديه، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، خصنا بخير كتاب أنزل، وأكرمنا بخير نبي أرسل، وجعلنا بالإسلام خير أمة أخرجت للناس، نأمر بالمعروف، وننهي عن المنكر، ونؤمن بالله.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله، وصفيه من خلقه وحبيبه، اللهم صل على سيدنا محمد في الأولين، وصل على سيدنا محمد في الآخرين، وصل على سيدنا محمد في الملائكة الأعلی إلى يوم الدين، وارض اللهم عن صحابته الطيبين، وعن التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد...

فإن تاريخ الدعوة الإسلامية من أجل العلوم وأعظمها قدراً، لأنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالدعوة إلى الله تعالى التي هي وظيفة الأنبياء والرسل والعلماء من بعدهم وهي أشرف عمل في الوجود، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾^(١)، وقال -عز وجل-: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٢).

ولقد جعل الله خيرية الأمة المحمدية بقيامها بواجب الدعوة إليه، فقال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾^(٣).

(١) سورة الأنعام الآية ١٢٤.

(٢) سورة فصلت الآية ٣٣.

(٣) سورة آل عمران الآية ١١٠.

أهمية التاريخ والعلاقة بينه وبين الدعوة:

لتاريخ الدعوة أهمية عظيمة، استمدتها من القرآن الكريم، حيث وردت فيه إشارات كثيرة تدعو المسلمين إلى أهمية دراسة سير الأولين والتأمل فيها، وأخذ العبرة منها، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(١).

وقال الله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَبَيِّرُوا فِي الْأَرْضِ فَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾^(٢).

كما جاءت السنة النبوية محذرة من الفتن التي ستأتي، والتفرق والضعف حتى لا تكون الأمة الإسلامية فريسة للأمم الأخرى، وأعلم الرسول ﷺ المسلمين بحوادث ستقع في المستقبل، فقال النبي ﷺ: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا وَيُمْسِي كَافِرًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي»^(٣).

«والتاريخ عامة هو سجل أحداث الأمم وديوان عبرها، والعلم الذي يشرح قصة الجنس الإنساني في الوجود، ويشرح أسباب قيام المجتمعات وتطورها وبقائها أو فنائها، فهو المرآة التي تتجلى فيها سنن الله في الكون عامة والمجتمعات الإنسانية خاصة، والمستودع الذي تستقى منه الأمم العبر والدروس بالنظر فيما أدت إليه أحداث الماضي، والمؤشر الذي يضع يدها على مواطن القوة والضعف والانتصار والانكسار في الحياة، ويربها كيف ترتقى الأمم وتهبط، وكيف تقوم وتسقط، وكيف تعمل سنن الله في المجتمعات وفق ضوابط ثابتة لا تحابي أمة، ولا تجامل شعباً، ذلك أن أحداث التاريخ تتكرر، وما أشبه الليلة بالبارحة، والتاريخ يعيد نفسه، ولا جديد تحت

(١) سورة يوسف آية ١١١.

(٢) سورة آل عمران ١٣٧.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه ١٣١٠/٢، حديث: ٣٩٦١، باب: التثبت في الفتنة.

الشمس، فما من مشكلة أو مرض إلا وله جذوره الممتدة في أغوار التاريخ، وعلاج الشئ على ضوء ما يشاكله خير من العلاج المرتجل، ولهذا فإنه بقدر فهم الأمة لحقائق تاريخها ومقدرتها على تفسيرها والاستفادة منها يكون حظها من الاستقامة أو الفوضى في حياتها، وتاريخنا الإسلامي ملئ بمواطن العبرة والعظة، ومواقع العظمة والفخار، ويستطيع أن يمد الأمة بما يختزنه من عناصر القوة وطاقات الدفع اللازمة والكافية بكل أسباب التقدم والرشاد وإثبات الذات»^(١).

ولقد زادت أهمية دراسة التاريخ في هذا العصر، عندما بدأ المسلمون بالتفكير في استعادة دورهم ، وأن يكون لهم وجود وشهود.

فقد جاء السلاجقة فتغيرت معالم العالم الإسلامي، وأصبح المسلمون وحدة واحدة تحت راية الخلافة العباسية ودولة السلاجقة، وأصبح للمسلمين كلمة مسموعة، وأصبحت راية الإسلام عالية خفاقة في كل مكان.

فليعد المسلمون للتاريخ لاسيما الدعاة منهم ويقرأوه ويتدبروا مواقفهم، وليكونوا على ثقة من أن أعداءهم في الداخل والخارج لا يريدون لهم الخير، ولا يبغون لهم الرجولة والاستقلال الحضاري، بل يسعون بجهد إلى تذويبهم وتمييع شخصيتهم وفقدان هويتهم، حتى لا نشاركهم في حياتهم، بل نكون مواطنين من الدرجة العاشرة، مجرد خدم تقبل الأيادي، وترضى بما يلقي لها من فتات وفضلات، وهذا إنعام من السيد على عبده، ألا فليحذر المسلمون هذا الوضع المزرى وتلك الصورة المقززة المريرة التي لا يرتضيها العبيد فضلاً عن الأحرار أبناء الإسلام ونبى الإسلام محمد ﷺ، ولتقر عين نبيينا بنا وبما نحرزه من خير وبر في هذه الحياة، وما نقضى عليه من شر وضر.

والعلاقة بين التاريخ والدعوة وثيقة جداً، فكلاهما منسجم ومندمج مع الآخر في

(١) انظر د/جمعة على الخولى: تاريخ الدعوة ٧/١، ٨، ط دار الطباعة المحمدية بالقاهرة الأولى

سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م بتصرف.

الموضوع والغاية والمنهج، فموضوع التاريخ هو الإنسان، وغايته تربية وترقية عقل ووجدان هذا الإنسان، ومنهاج التاريخ في ذلك إبراز المواقف وتبسيط الأضواء عليها بإنصاف، ليلقى التبعة عن نفسه، ويقيم الحجة على الإنسان.

والدعوة بمعناها الشامل تسعى إلى إصلاح الإنسان في معاشه، وإسعاده في معاده، ولها مراحلها وتجاربها العديدة، وقد قص القرآن الكريم علينا قصص الأنبياء مع أممهم، وكيف كان عاقبة المصدقين والمكذابين، وجاءت الرسالة الخاتمة رسالة سيدنا محمد ﷺ وعقيدتها هي نفس عقيدة الأنبياء قبله، وشريعتهما أوسع من شرائع من سبقوه، لخلودها وفضل أهلها ورحمة الله بهم.

ولهذا فإن هذا الكتاب يعيش فترة من فترات الأمة الإسلامية، لم تتوافر عليها عناية الكثير من الباحثين والمؤرخين، وغالب من كتبوا عن الموضوع تناولوه من الناحية التاريخية، والمؤرخ عادة يسلط الضوء على الأحداث من الناحية التاريخية، ولا يمس الجانب الدعوى، لكن عندما يتناول الداعية أحداث التاريخ يخرج لنا منه العبرة والعظة من أحداثه، ويوقفنا على سنن الله تعالى في خلقه في أسباب قيام الدول وانهارها، لتستفيد الأمة الإسلامية من ماضيها في حل مشاكل حاضرها، ولتقطع الطريق سريعاً إلى التقدم والازدهار في نواحي الحياة.



تَهْبِير

أولاً: تعريف كلمة «جهود» و«الدولة»:

١- تعريف كلمة «جهود» في اللغة:

الجَهْدُ والجُهْدُ: الطاقة، تقول: اجْهَدَ جَهْدَكَ، وقيل: الجَهْدُ المشقة والجُهْدُ الطاقة، يقول «الليث»: الجَهْدُ ما جَهَدَ الإنسان من مرضٍ أو أمرٍ شاقٍ فهو مجهود^(١)، والاجتهاد - والتجَاهُدُ - بذل الوسع والمجهود^(٢)، ومن ثم جاء عنوان الكتاب متضمناً كلمة (جهود) والمراد بها: ما قامت به دولة السلاجقة من طاقة وجهد في سبيل نشر الدعوة الإسلامية.

٢- تعريف كلمة «دولة»:

الدَّوْلَةُ في اللغة: انْقِلَابُ الزَّمَانِ والعُقْبَةُ في المَالِ ويُضَمُّ أو الضَّمُّ فيه والفتْحُ في الحَرْبِ أو هما سواءٌ أو الضَّمُّ في الآخِرَةِ والفتْحُ في الدُّنْيَا، دَوْلٌ مُنْتَلَثَةٌ وقد أدالَهُ. وتَدَاوَلُوهُ: أَخَذُوهُ بالدَّوْلِ^(٣).

وفى لسان العرب: «الدَّوْلَةُ والدَّوْلَةُ: العُقْبَةُ في المَالِ والحَرْبِ سَوَاءً، وقيل: الدَّوْلَةُ بالضم في المَالِ والدَّوْلَةُ بالفتح في الحرب، وقيل: هما سواء فيهما يضمنان ويفتحان، وقيل: بالضم في الآخرة وبالفتح في الدنيا، وقيل: هما لغتان فيهما، والجمع دَوْلٌ

(١) انظر: الإمام العلامة ابن منظور: لسان العرب مادة (جهد) ٢ / ٣٩٥، ط دار إحياء التراث

العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

(٢) انظر: الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح مادة (جهد) ص

٧٤، ط دار الحديث القاهرة سنة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

(٣) انظر: الفيروزآبادي: القاموس المحيط مادة (دول) ص ١٠١٤، طبعة دار الكتب العلمية،

الأولى، بيروت لبنان سنة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، قدم له وعلق حواشيه الشيخ أبو الوفا نصر

الهورياني المصري الشافعي ت سنة ١٢٩١هـ.

ودول..... والدولة: الانتقال من حال الشدة إلى الرخاء»^(١).

تعريف الدولة في الاصطلاح: هي: جمع من الناس مستقرون في إقليم معين الحدود مستقلون وفق نظام خاص^(٢).

وعرفها فقهاء القانون الدستوري بأنها: جماعة من الناس تقيم بصورة دائمة على إقليم معين ، وتخضع لسلطه حاكمة وفق تنظيم سياسي معين^(٣).

وعلى هذا: فالدولة تعنى وجود أرض وشعب وحكومة، ولقد توافرت كل هذه العوامل في دولة السلاجقة.

والذى أقصده من ذكر كلمة «دولة» هو الإقليم الذى قامت عليه دولة السلاجقة، وهو إقليم خراسان^(٤)، فلقد سكن السلاجقة في إقليم ما وراء النهر^(٥) في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين، ثم انتقلوا بعد مدة وجيزة إلى خراسان، وأخذوا

(١) انظر: مادة «دول»: لسان العرب ٤/٤٤٤.

(٢) انظر: د/عبد الغنى عبود: الدولة الإسلامية والدولة المعاصرة ص ١٩، ط دار الفكر العربي.

(٣) انظر: د/فتحي عبد الكريم: الدولة والسيادة في الفقه الإسلامي ص ١٥١، ط مكتبة وهبه.

(٤) بلاد واسعة، يحدها من الشرق «سجستان»، و«بلاد الهند»، ومن الغرب «مفازة الغزية»، و«جرجان»، ومن الشمال «ما وراء النهر»، وشئ من «بلاد الترك»، ومن الجنوب «مفازة فارس»، و«قومس»، وتشتمل على أمهات من البلاد منها: نيسابور وهرة ومرو وكانت قصبته، وبلخ وطالقان ونسا وأبيودر وسرخس، وما يتخلل ذلك من المدن التي دون نهر جيحون.

انظر: أبو اسحق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخرى: المسالك والممالك، تحقيق د/محمد جابر عبد العال الحيني، محمد شفيق غربال، طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة سنة ٢٠٠٤م، ص ١٤٥، شمس الدين أبي عبد الله محمد المقدسى المعروف بالبشارى: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ٢/٣٥٠، ط ليدن الطبعة الثانية سنة ١٩٠٩م، نشرها دار صادر بيروت.

(٥) ما وراء النهر: هو الاسم الذى أطلقه العرب على المنطقة المتحضرة الواقعة في حوض نهري أودريا (جيحون) وسيرديا (سيحون). المرجع السابق ص ١٤٥.

يجنحون إلى الإستقرار، ويكونون الجيوش حتى تمكنوا من إقامة دولة في عام ٤٢٩هـ/١٠٣٧م، ولم تلبث دولتهم أن بسطت نفوذها على إيران والعراق، وعلى أكثر أجزاء الشام وأسيا الصغرى^(١).

ثالثاً: تعريف كلمة «السلجوقية» وسبب تسميتهم بذلك ودخولهم في الإسلام:

التعريف بالسلاجقة:

السلاجقة فرع من قبائل الأتراك^(٢)، التي تعرف باسم «قبائل الغُز»^(٣)، وهي مجموعة من القبائل التركمانية، بلغ عددها أربعاً وعشرين قبيلة، وينتسب السلاجقة إلى إحدى هذه القبائل التي تعرف بقبيلة «قَنَق»^(٤)، وقد أخذت هذه القبائل تفارق

(١) انظر: د/عبد النعيم حسانين: سلاجقة إيران والعراق ص ١، ط مكتبة النهضة المصرية، الثانية القاهرة.

(٢) الأتراك: مجموعة من الشعوب الآسيوية ترتبط بأصول عرقية وثقافية واحدة، من قبائلهم: «القرغيز»، و«الكيماك»، و«الآغز» أو «الغز»، و«القرلق»، موطنهم الأصلي في الإقليم الممتد ما بين «منغوليا» وشاطئ «البحر الأسود»، دخل هذا اللفظ كاصطلاح في المصادر العربية الإسلامية، بعد استيلاء المسلمين على مملكة «تركشى» سنة ١٢١هـ/٧٣٩م، على يد «نصر بن سيار» والى «خراسان» في آخر العهد الأموي، وقد استطاعوا أن يقيموا عدداً من الممالك في إطار الدولة الإسلامية الواحدة، كان آخرها الدولة العثمانية.

انظر: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية: مصطفى عبد الكريم الخطيب، ص ١٠٤، طبعة مؤسسة الرسالة بيروت سنة ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، الأولى.

(٣) الغز: من القبائل التركية، على أن هذا اللفظ جرى إطلاقه فيما يبدو على القبيلة الكبيرة التي وحدت في القرن السادس الميلادي جميع القبائل في امبراطورية واحدة امتدت من الصين إلى البحر الأسود ودامت حتى القرن الثامن الميلادي.

انظر: د/محمد سهيل طقوش: تاريخ سلاجقة الروم في أسيا الصغرى ص ١٥، ط دار النفائس، الأولى سنة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

(٤) انظر: بارتولد: تاريخ الترك في أسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان ص ١٢٤، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة سنة ١٩٩٦م.

موطنها الأصلي، وهو أقصى سهول التركستان^(١)، على شكل موجات في خلال القرون الثاني والثالث والرابع للهجرة، واستقرت في بداية الأمر في بلاد ما وراء النهر^(٢).

ويرجع سبب رحيل قبائل الغز ومن بينهم السلاجقة من بلاد تركستان إلى بلاد ما وراء النهر إلى ضيق رقعة بلادهم وقلة مراعيهم^(٣)، فضلاً عن التنازع واستمرار الحروب فيما بينهم، أو غلبة قبائل أكثر قوة عليهم، وسيطرتهم على أراضيهم خصوصاً إذا ما كثر عدد أفراد القبائل فعجزت موارد الرزق عن كفايتهم، أو حدث قحط جعل هذه الأماكن لا تصلح لاستمرار الحياة فيها^(٤).

سبب تسميتهم بالسلاجقة:

عرف السلاجقة بهذه التسمية نسبة إلى زعيمهم «سلجوق^(٥) بن تقاق»^(١)، وقد

(١) التركستان: يقصد بها بلاد الترك عامة، أي الأصقاع المترامية الأطراف التي تمتد بين بلاد الإسلام ومملكة الصين، والتي كان يقطنها الرحل من الترك والمغول.

انظر: بارتولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ص ١٤٥، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، الطبعة الأولى، الكويت، أشرف على طبعه قسم التراث العربي بالمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب سنة ١٤٠١هـ/١٩٨٠م.

(٢) انظر: تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ١٢٤، ١٢٥، د/عبد النعيم حسانين: كتابه سلاجقة إيران والعراق ص ١٦: نقلاً عن بهار: محمد تقى بهار ملك الشعراء، سبك شناسى ٢/٢٤٥.

(٣) انظر: أبو بكر محمد بن على بن سليمان بن محمد بن أحمد بن الحسين بن همة الراوندى: راحة الصدور وآية السرور ص ١٤٧، ترجمة د/ إبراهيم أمين الشواربي، د/ عبد النعيم محمد حسنين، د/فؤاد عبد المعطى الصياد، ط المجلس الأعلى للثقافة القاهرة، سلسلة ميراث الترجمة العدد ٩٩٦ سنة ٢٠٠٥م.

(٤) انظر: سلاجقة إيران والعراق ص ١٦، د/ محمد عبد العظيم أبو النصر: السلاجقة تاريخهم السياسى والعسكرى ص ٣٥، ط عين للدارسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية سنة ٢٠٠٣م.

(٥) يرى فامبرى (انظر: تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر هامش ص ١٢٧) أن كلمة «سلجوق» يجب أن تكتب «سالجوق» أو «سيلجيق»، وفقاً لقواعد اللغة التركية. =

عرف «تقاق» بشهامته وحسن تدبيره، وكان مقدم الأتراك الغز و مرجعهم، لا يخالفون له قولاً، ولا يتعدون أوامره^(٢)، وكان «تقاق» وأبناء قبيلته في خدمة أحد ملوك الترك الذي يعرف باسم «بيغو»^(٣).

وقد ذكر «ابن الأثير» رواية مؤداها أن ملك الترك جمع يوماً عساكره، وأراد المسير بهم إلى بلاد الدولة الإسلامية، فنهاه «تقاق» عن ذلك، وطال الجدل بينهما فغضب ملك الترك من «تقاق» وأغلظ له في القول، فما كان من «تقاق» إلا أن لطمه وشج رأسه، فأحاط بـ«تقاق» خدم الملك وأرادوا أخذه، فقاتلهم «تقاق» ومن كان معه من أصحابه، ثم تصالح «تقاق» والملك «بيغو»، وعادت العلاقة بينهما إلى سابق عهدها.

= ويرى بارتولد (انظر: تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ١١٨) أن النطق الصحيح هو «سالجوك» كما وجده في كتاب محمود الكشغري، وسلجوق: بفتح السين المهملة وسكون اللام وضم الجيم وسكون الواو وبعدها قاف.

انظر: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٦٨/٥، حققه د/إحسان عباس، ط دار صادر بيروت سنة ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.
(١) كذا الاسم عند ابن الأثير (عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ٤٧٣/٩)، ويذكره الحسيني (انظر: صدر الدين أبي الحسن علي بن أبي الفوارس ناصر الدين ابن علي الحسيني ت ٥٧٥هـ: أخبار الدولة السلجوقية، تصحيح محمد إقبال، طبعة دار الأفاق الجديدة بيروت، الأولى سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ص ١) «يقاق»، وبعض المصادر تسميه «دُقاق»: بضم الدال المهملة وبين القافين ألف ساكنة. انظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٦٨/٥.

(٢) انظر: الكامل في التاريخ ٤٧٣/٩، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاهنشاه المعروف بأبي الفداء: تاريخ أبي الفداء المسمى المختصر في أخبار البشر ٥١٦/١، ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

(٣) بيغو: معناه الغزال، فكان من عاداتهم أن يطلقوا أسماء الحيوانات القوية أو الجميلة على الأشخاص، وكان الفرس والأتراك الشرقيون يطلقون هذا اللفظ على البوذيين.
انظر: تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر هامش ص ١٢٨.

نشأ «سلجوق» في كنف والده في تلك البلاد، وكانت أمارات النجابة لائحةً عليه، واشتهر بالفروسية والشجاعة، فقربه ملك الترك إليه، واختص به، ولقبه «سباشى» ومعناه (قائد الجيش)^(١).

وقد استطاع «سلجوق» بشجاعته وكرمه ورجاحة عقله أن يستميل قلوب طوائف كبيرة من الجند والأكابرة والعامة، حتى خشيته ملك الترك، وخاف من ازدياد نفوذه، مما حمل «سلجوق» على الرحيل من تلك البلاد، والسير بقبيلته وأنصاره ومن حالفه إلى بلاد الدولة الإسلامية، حيث جاور السامانيين، والخانيين، والغزنويين^(٢).

ومنذ ذلك الوقت عرف هؤلاء الذين قادهم «سلجوق بن دقاق» سنة ٣٧٥هـ/٩٨٥م، ونزل بهم في المنطقة الجديدة باسم السلاجقة، نسبة إلى «سلجوق» الذى وحدهم تحت زعامته، وأخضعهم لحكم أبنائه وأحفاده من بعده^(٣).

اعتناقهم الإسلام:

أدت مجاورة السلاجقة للسامانيين والخانيين والغزنويين إلى اعتناقهم الإسلام على المذهب السنى الذى كان يدين به حكام هذه الدول^(٤).

(١) انظر: أخبار الدولة السلجوقية ص ٢، الكامل في التاريخ ٩/٤٧٣، ٤٧٤، ابن الطقطقى محمد بن على بن طباطبا: الفخرى في الآداب السلطانية والدول ص ٢٥٥، ط المعارف، مصر، الثانية.

(٢) انظر: أخبار الدولة السلجوقية ص ٢، ٣، الفخرى في الآداب السلطانية ص ٢٥٥، وقد ذكر صاحب الفخرى أن زوجة ملك الترك قالت لزوجها: إنى أتوسم في سلجوق تغلباً عليك، والرأى عندى أن تقتله فقد كثر ميل الناس إليه، فقال لها: سوف أبصر ما أصنع في أمره، ثم أحس سلجوق بشئ من ذلك العزم...

انظر: الفخرى في الآداب السلطانية ص ٢٥٥.

(٣) انظر: سلاجقة إيران والعراق ص ١٧.

(٤) انظر: أخبار الدولة السلجوقية ص ٢، وذكر بارتولد أن الغز عرفوا المسيحية قبل الإسلام، وأن المسيحية والإسلام تسربت إليهم عن طريق خوارزم، كما أن البيرونى وهو من كتاب =

وكان لدخول السلاجقة في الإسلام أثر كبير في التقريب بينهم وبين السامانيين الذين عهدوا إليهم بالدفاع عن أراضيهم من غارات الأتراك غير المسلمين لقاء المراعى التي أعطيت لهم^(١)، وقد قام السلاجقة بكثير من الخدمات للسامانيين أثناء نزاعهم مع القراخانيين، كما اشتركوا معهم في كثير من الحروب، مما جعل السامانيين يسمحون لهم بالمرور عبر أراضيهم للإقامة على مقربة من شاطئ نهر سيحون^(٢)، حيث اتخذوا مدينة «جند»^(٣) مقراً لهم^(٤).

رابعاً: التعريف بكلمة خدمة:

الخدمة في اللغة: (خَدَمَهُ يَخْدُمُهُ وَيَخْدِمُهُ، الْكَسْرُ عَنِ اللَّحْيَانِيّ، خَدْمَةٌ، عَنْهُ أَيْضاً، وَخَدْمَةٌ: مَهْنَةٌ، وَقِيلَ: الْفَتْحُ الْمَصْدَرُ، وَالْكَسْرُ الْإِسْمُ، وَالذَّكْرُ: خَادِمٌ، وَالْجَمْعُ: خَدَامٌ، وَالْخَدْمُ: اسْمٌ لِلْجَمْعِ، كَالْعَزْبِ وَالرَّوْحِ)^(٥).

والخدمة التي أقصدها في الكتاب: أن دولة السلاجقة سخرت كل ما تملك من وسائل في خدمة الدعوة الإسلامية، فكانت كالخادمة التي تخدم في بيت سيدها.

= القرن الحادى عشر الميلادى (القرن الخامس الهجرى) ذكر أنه كان بين الخوارزميين مسيحيون على الديانة الأرثوذكسية، ويفهم من هذا أن الغز كانوا على نفس الديانة.
انظر: تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ١٢١، ١٢٢.

(١) المرجع السابق ص ١٢٢، السلاجقة تاريخهم السياسى والعسكرى ص ٣٨.

(٢) نهر سيحون: نهر كبير بـ«ما وراء النهر» في حدود بلاد الترك، يتجمد في الشتاء. انظر: معجم البلدان ١٠٢/٥.

(٣) جند: مدينة من بلاد ما وراء النهر، قريبة من خوارزم ونهر سيحون وأهلها مسلمون على المذهب الحنفى. المرجع السابق ١٤٣/٢.

(٤) انظر: الكامل في التاريخ ٩ / ٤٧٤، أخبار الدولة السلجوقية ص ٢، ٣، المختصر في أخبار البشر ٥١٦/١.

(٥) انظر: أبى الحسن على بن إسماعيل بن سيده المعروف بابن سيده: المحكم والمحيط الأعظم ١٤٦/٥، ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان بدون تاريخ.

خامساً: تعريف الدعوة في اللغة والاصطلاح:

الدعوة في اللغة تطلق ويراد بها عدة معان: «يقال: دعا الرجل دعوا ودعاء: ناداه، والاسم الدعوة، ودعوت فلاناً أي صحت به واستدعيته..... وتداعى القوم: دعا بعضهم بعضاً حتى يجتمعوا.... ودعاه إلى الأمير: ساقه.....، والدعاة: قوم يدعون إلى بيعة هدى أو ضلالة، واحدهم داع، ورجل داعيه: إذا كان يدعو الناس إلى بدعة أو دين، أدخلت الهاء فيه للمبالغة،.....، وداعية اللين: ما يترك في الضرع ليدعو ما بعده.... ودعوته يزيد ودعوته إياه: سميته به»^(١).

وجاء في مختار الصحاح: «الدَّعْوَةُ إلى الطعام بالفتح، يقال كنا في دعوة فلان، ومدعاه فلان، وهو مصدر والمراد بهما الدعاء إلى الطعام، والدعوة بالكسر في النسب،.....، والدَّعِيُّ: من تبنيته، ومنه قوله تعالى: ﴿... وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ...﴾^(٢)، وادعى عليه كذا، واللام الدعوى، وتداعت الحيطان للخراب: تهادمت، ودعاه: صاح به»^(٣).

وقال «ابن فارس»: «الدعوة: المرة، وبعض العرب يؤنثها بالألف فيقول: الدعوى، وقد يتضمن الادعاء معنى الإخبار فتدخل الياء جوازاً، يقال: فلان تدعى بكرم فعاله أي يخبر بذلك عن نفسه»^(٤).

تعريف الدعوة في الاصطلاح:

إذا كانت المعاني قد تقاربت وتجاورت وتوازت في التعريف اللغوي، فإن المعاني في التعريف الاصطلاحي تتباعد وتسلك سبلاً شتى، فمن العلماء من عرفها بأنها الدلالة على الدين الإسلامي والدعوة إليه، ومنهم من عرفها بأنها هي الدين المتمثل

(١) انظر: لسان العرب مادة (دعا) ٤ / ٣٦٠ - ٣٦٢.

(٢) سورة الأحزاب من الآية ٤.

(٣) انظر: مختار الصحاح مادة (دعا) ص ١٢١.

(٤) انظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ١/ ١٩٥.

في الرسالة التي أنزلت على النبي محمد ﷺ، وما تحتويه من عقائد، وشرائع، وأخلاق، ومعاملات، وأحكام، وحدود، وآداب.

واليك بعض التعريفات الاصطلاحية للدعوة:

أولاً: «الدعوة إلى الله: هي الدعوة إلى الإيمان به، وبما جاءت به رسله بتصديقهم فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا، وذلك يتضمن الدعوة إلى الشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، والدعوة إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشره، والدعوة إلى أن يعبد العبد ربه كأنه يراه»^(١).

ثانياً: «نقل الأمة من محيط إلى محيط، تلك هي مهمته، وفيما يندرج مجمل منهاجه ومفصله، ومن ظنها غير ذلك فقد جهل نفسه ورسالته»^(٢).

ثالثاً: «دلالة الناس على الله، وردهم إليه ودعوتهم إلى توحيده، وما يقرب إليه ويكمله ويتممه من طاعة الله عز وجل، وامتنال أوامره واجتتاب نواهيه، وجمع الناس على الخير، ودلالتهم على الرشد، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وإعانتهم على تطبيق الإسلام بكل وسيلة مشروعة»^(٣).

رابعاً: هي منهج يقوم على بيان الحق والخير والهدى، وكشف وسائل الباطل، وأساليبه، ومنهج الزيغ فيه بكل الطرق والأساليب والوسائل والمناهج التي يجمعها قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ

(١) انظر: شيخ الإسلام ابن تيمية: مجموع الفتاوى ١٥٧/٥، ١٥٨، ط دار الرحمة بيروت.

(٢) انظر الشيخ البهي الخولي: تذكرة الدعاة ص ٣٥، ط دار التراث، الثامنة، القاهرة سنة

١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

(٣) انظر: الشيخ على محفوظ: هداية المرشدين ص ١٧، ط دار الاعتصام، القاهرة سنة

١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١﴾، (٢).

هذه هي بعض تعاريف العلماء للدعوة، وحقيقة الأمر أن الدعوة تحمل بين طياتها كل المعانى التي تضمنتها هذه التعاريف.

وخلاصة القول أن الدعوة علم مستقل له قواعده وأصوله التي يستند إليها الدعاة لتبليغ الإسلام، والإعلام به عقيدة وشريعة وأخلاق.

والدعوة التي أقصدها بمعناها الفنى التبليغى ما قام به السلاطين السلاجقة من جهود لنشر الإسلام وازدهاره وتبليغه للناس، وما سلّكه في سبيل ذلك من وسائل ومناهج وأساليب.

خامساً: تعريف الإسلامية لغة واصطلاحاً:

الإسلام لغة: «إظهار الخضوع وإظهار الشريعة والتزام ما أتى به النبي ﷺ وبذلك يحقن الدماء ويستدفع المكروه..... فالإسلام باللسان والإيمان بالقلب» (٣)، «وأسلم أمره إلى الله أى: سلّم، وأسلم: دخل في السّلم - بفتحيتين - وهو الإستسلام، وأسلم من الإسلام..... واستسلم: أي انقاد، والانقياد: إظهار الخضوع» (٤).

وبناء على ما مر فإن الإسلام في اللغة يطلق على معنى التسليم والخضوع والاستسلام والانقياد لأمر الله عز وجل.

وقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تحمل هذا المعنى منها:

قوله تعالى حكاية عن «إبراهيم» و«يعقوب» -عليهما السلام- وهما يوصيان أبنائهما قبل وفاتهما: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا

(١) سورة النحل آية ١٢٥.

(٢) انظر: فقه الدعوة والإعلام: د/عمارة نجيب ص ١٩، ط بدون.

(٣) انظر: لسان العرب ٦/٣٤٥.

(٤) انظر: مختار الصحاح مادة (سلم) ص ١٧٨.

تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُدُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٤﴾^(١).

وقال تعالى حكاية عن إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- بعد بنائهما الكعبة: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^(٣).

إلى غير ذلك من الآيات التي تبرهن على أن ما جاء به جميع الأنبياء والمرسلين لأقوامهم هو الإسلام، الذي بمعنى الخضوع والانقياد والاستسلام لله رب العالمين. **تعريف الإسلام في الاصطلاح:** أما عن تعريف الإسلام في الاصطلاح، فله عدة تعريفات أشهرها:

(١) إن خير تعريف للإسلام ما عرفه به الحبيب ﷺ، عندما قال رداً على جبريل عليه السلام: «يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً.....»^(٤).

(٢) هو نظام اجتماعي عالمي، يكفل للناس الخير والسعادة، ويحل لهم في

(١) سورة البقرة آية ١٣٢، ١٣٣.

(٢) سورة البقرة آية ١٢٨.

(٣) سورة لقمان آية ٢٢.

(٤) الحديث رواه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات

قدر الله سبحانه وتعالى ح رقم ١٠، انظر: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري:

صحيح مسلم ١/١٤، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

مجتمعهم من مشكلات لو نفذوا إلى روحه وأنفذوه على وجهه^(١).

(٣) هو النظام العام والقانون الشامل لأمر الحياة، ومناهج السلوك للإنسان التي جاء بها محمد ﷺ من ربه وأمره بتبليغها إلى الناس، وما يترتب على إتباعها أو مخالفتها من ثواب أو عقاب، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٢)،^(٣).

والإسلام يطلق على الدين الذي رضيه الله عز وجل لأمة محمد ﷺ قال الله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾^(٤).

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْثًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٥).

فالإسلام دين عام لسائر البشر، جاء من أجله كل الأنبياء من لدن آدم حتى خاتمهم محمد ﷺ، ففي القرآن الكريم: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَمَا مَنِ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(٦).

والإسلام دين مشتمل على كل أمور الحياة، إن عاجلاً أو أجلاً قال الله تعالى:

(١) انظر: الإمام الشهيد حسن البنا: مجموعة الرسائل ص ٢٦٧، ط دار الشهاب، سنة

١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

(٢) سورة آل عمران الآية ٨٥.

(٣) انظر: د/عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة ص ١٠، ط مؤسسة الرسالة بيروت.

(٤) سورة آل عمران آية ٨٣.

(٥) سورة آل عمران آية ١٩.

(٦) سورة الأعراف آية ١٥٨.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾^(١).

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾^(٢).

وختاماً: إن الذي أقصده من كلمة «إسلامية» في هذا الكتاب، هو كل ما يتصل بالإسلام والدين الحنيف من عقائد، وأخلاق، وشرائع، ومعاملات، وأحكام، وحدود، وآداب، والحالة التي كان عليها الإسلام في هذه الحقبة الزمنية -دولة السلاجقة- وهل كان مزدهراً؟ أم كان غير ذلك، وهل كان منفذاً ومشجعاً للعمل به أم غير ذلك؟



(١) سورة النحل آية ٨٩.

(٢) سورة الأنعام آية ٣٨.

الفصل الأول

الدول الإسلامية المستقلة في آسيا الوسطى
قبيل ظهور السلاجقة وقيام الدولة السلجوقية

المبحث الأول

الدول الإسلامية المستقلة في آسيا الوسطى قبيل ظهور السلاجقة

مدخل :

كان النفوذ السياسي في العالم الإسلامي في الوقت الذي ظهر فيه السلاجقة موزعاً بين ثلاث قوى رئيسية هي:

- (١) الخلفاء العباسيون والدول المستقلة التابعة لهم في الشرق.
 - (٢) الفاطميون في مصر وفى المناطق التي امتد نفوذهم إليها كالشام والجزيرة العربية أو تقلص عنها كبلاد المغرب.
 - (٣) الأمويون بالأندلس والدول التي قامت عقب سقوط الخلافة الأموية.
- والحديث في هذا التمهيد التاريخي مقصور على المنطقة الأولى التي ظهر فيها النشاط السلجوقي مع ما كان للفاطميين من نفوذ فيها، ولكي تتضح الصورة وتكتمل معالمها يجب الحديث عن النشاط العباسي والفاطمي في هذه المنطقة، ثم الحديث عن أهم الدول الإسلامية المستقلة التي اتصلت بتاريخ السلاجقة، وتلك الدول هي:

- (١) السامانيون.
- (٢) البويهيون.
- (٣) القراخانيون.
- (٤) الغزنويون.

أولاً: الخلافة العباسية في العراق قبيل ظهور السلاجقة :

«كانت الخلافة العباسية حين ظهور قوة السلاجقة في أوائل القرن الخامس الهجرى ضعيفة سياسياً وحربياً، بحيث لا يستطيع الخلفاء العباسيون توجيه سير الأحداث في أرجاء دولة الخلافة بالصورة التي يشتهونها، مما أتاح الفرصة للوزراء والحجاب وقواد الجيش وحكام الأقاليم والمجموعات القبلية للتدخل في أمور الدولة المختلفة، والتأثير في سير الأحداث، فوجدت قوى متعددة داخل دولة الخلافة،

واستطاعت بعض هذه القوى أن تستقل سياسياً وحربياً عن دولة الخلافة، فطفت بذلك دويلات ودول فوق سطح الخلافة العباسية^(١)، وكان الخليفة العباسي حتى نهاية عصر نفوذ الأتراك - يتمتع ببعض الامتيازات والحقوق التي ورثها منذ قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ، وكانت تلك الامتيازات رمزاً لسيادة الخلفاء العباسيين السياسية والدينية، وتشمل حق الخليفة في تعيين وزير يعاونه في إدارة شئون الدولة، وإقامة الخطبة له في المساجد، ونقش اسمه على السكة، وضرب الطبول أمام داره في أوقات الصلوات الخمس، والاحتفاظ بضياعه السلطانية، كما كان من حقه تعيين الأمراء والقضاة والعدول وأصحاب الحسبة ونقباء الأشراف وأمراء الحج وخطباء المساجد ومنح الألقاب، ولما استبد البويهيون بالسلطة دون الخليفة العباسي تغير الحال عما كان عليه في السابق، فأنشأوا في بغداد إمارة وراثية^(٢)، ظلت بأيدي أحفادهم حتى سنة ٤٤٧هـ، وكان البويهيون يعتقدون أن العباسيين قد غصبوا الخلافة، وأخذوها من مستحقيها، فلم يكن عندهم باعث ديني يحثهم على الطاعة، حتى أن «معز الدولة»^(٣)، قد فكر في إزالة الخلافة العباسية بعد دخوله بغداد، ولكنه تراجع عن

(١) انظر د/عبد النعيم محمد حسانين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص ١٠، ١١، ط دار

الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني لبنان، الأولى سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

(٢) انظر جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ص ٧٨، ط دار الفكر

العربي، القاهرة سنة ١٩٦٦م.

(٣) معز الدولة (٣٠٣-٣٥٦هـ=٩١٥-٩٦٧م): أحمد بن بويه بن فناخسرو بن تمام، كان يلقب

بأبي الحسن معز الدولة، أحد ملوك الديلم، وكان يقال له الأقطع لأنه كان مقطوع اليد اليسرى،

وبعض أصابع اليمنى، كان في أول أمره يحمل الحطب على رأسه، ثم ملك هو وأخواه عماد

الدولة، وركن الدولة البلاد، وكان أصغر منهما سناً، تولى في صباه كرمان وسجستان والأهواز

تبعاً لأخيه عماد الدولة، ثم امتلك بغداد سنة ٣٣٤هـ، في خلافة المستكفي ودام ملكه في

العراق ٢٢ سنة إلا شهراً، وتوفى في بغداد ودفن بمقابر قریش.

انظر ترجمته في: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي: المنتظم في تاريخ

الملوك والأمم ١٤/١٨٢/١٨٣، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، =

عزمه بعد أن بين له ناصحوه أن مثل هذا العمل سوف يحد من سلطانه، ولم يقف البويهيون عند تجريد الخليفة من سلطانه، بل تجاوزوا ذلك إلى الاعتداء على أشخاص الخلفاء، فعندما قلت الأموال عند «بهاء الدولة»^(١) حسن له وزيره القبض على الخليفة «الطائع» وأطعمه في ماله، وهون عليه الأمر، فاستأنن الأمير البويهى على الخليفة، مدعياً أنه يريد أن يجدد له العهد على عادة «الديلم»، فأذن له في ذلك، وجلس له كما جرت العادة، فدخل «بهاء الدولة» وصحب معه جمعاً كثيراً، وتظاهر أحد أتباعه أنه يريد تقبيل يد الخليفة، فجذبه فأنزله عن سريره، والخليفة يقول «إنا لله وإنا إليه راجعون» ويستغيث فلا يلتفت إليه أحد، وأخذ ما في داره من ذخائر، وحمل

= ط دار الكتب العلمية بيروت . لبنان، الأولى سنة ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ١/١٧٤-١٧٧، الذهبى: سير أعلام النبلاء ١٦/١٨٩/١٩٠، حقه الشيخ شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرقوسى، ط مؤسسة الرسالة بيروت . لبنان، الثانية سنة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، الذهبى: العبر في خبر من غير ٢/٩٦، حقه أبو هاجر محمد السعيد بن بسيونى زغول، ط دار الكتب العلمية بيروت . لبنان، الأولى سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، جمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٤/١٦، ط وزارة الثقافة والإرشاد القومى مصر، ابن العماد الإمام شهاب الدين أبى الفلاح عبد الحى بن أحمد بن محمد العكبرى الحنبلى الدمشقى: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٤/٢٩٠، حقه محمود الأرنؤوط، عبد القادر الأرنؤوط، ط دار ابن كثير دمشق، الأولى سنة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، خير الدين الزركلى: الأعلام ١/١٠٥، ط دار العلم للملايين سنة ١٩٨٠م. (١) بهاء الدولة: أبو نصر أحمد بن عضد الدولة بن بويه، ملك العراق، من ملوك الدولة البويهية، تولى سنة ٣٧٩هـ، وكانت أيامه أربعاً وعشرين سنة، ومات بأرجان، وكان «بهاء الدولة» خاضعا للسلطان محمود بن سبكتكين، صنف له عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهاني كتابه «إيضاح المشكل لشعر المتنبى»، توفي سنة ٤٠٣هـ.

انظر ترجمته فى: المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ١٥/٩٥، سير أعلام النبلاء ١٧/١٨٥/١٨٦، العبر فى خبر من غير ٢/٢٠٥، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ٥/١٧، الأعلام ٢/٧٥.

«الطائع لله» إلى دار «بهاء الدولة» حيث أشهد عليه بالخلع^(١).

وتولى الخلافة بعده «القادر بالله» (٣٨١-٤٢٢هـ)^(٢)، وفي أيامه ازداد نفوذ «بهاء الدولة» الذي تعهد بطاعة الخليفة، كما حلف «القادر بالله» للأمير البويهى بالوفاء والخلوص، وقلده ما وراء بابه مما تقام فيه الدعوة^(٣)، وقد استطاع «القادر بالله» في ظل الإستبداد البويهى أن يتمتع بشئ من السلطة، فتمكن في سنة ٤٢١هـ من أخذ البيعة بولاية العهد لابنه «أبى جعفر»^(٤)، وقد تولى «أبو جعفر» الخلافة بعد أبيه «القادر بالله»، ولقب بـ«القائم بأمر الله» (٤٢٢-٤٦٧هـ)^(٥)، وكان مسلوب

(١) انظر الكامل في التاريخ ٧٩/٩، ٨٠.

(٢) القادر بالله (٣٣٦-٤٢٢هـ=٩٤٧-١٠٣١م): أحمد بن إسحاق بن جعفر بن المعتضد العباسى، ولد سنة ٣٣٦هـ، ولى الخلافة سنة ٣٨١هـ، وطالت أيامه، كان حازماً مطاعاً، وأحبه الناس، فأطاعوه، جدد ناموس الخلافة ودامت ٤١ سنة، وفي أيامه ظهرت العرب، وملكت الجزيرة والشام، وفتحت السند والهند، وهو آخر خليفة من بنى العباس، تولى الأحكام بنفسه، وكان يجلس في كل يوم اثنين وخميس مجلساً للناس، وهو من علماء الخلفاء، صنف كتاباً في الأصول كان يقرأ كل جمعه في حلقة أصحاب الحديث بجامع المهدي، كان يتخفى ويخرج في «بغداد» متفقداً أمور أهلها، توفي سنة ٤٢٢هـ.

انظر ترجمته فى: المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ٢٢٠/١٥، سير أعلام النبلاء ١٥/١٢٧-١٣٧، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ١١٠/٥-١١٢، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ٤/٢٧٧/٢٧٨، الأعلام ١/٩٥/٩٦.

(٣) انظر الكامل فى التاريخ ٩ / ٩١.

(٤) المرجع السابق ٩ / ٤٠٩، ٤١٠.

(٥) القائم بأمر الله (٣٩١-٤٦٧هـ=١٠٠١-١٠٧٥م): أبو جعفر عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن جعفر بن المعتضد العباسى، ولد سنة ٣٩١هـ، ولى الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٤٢٢هـ، كان ذا دين وخير وعلم وعدل، كثير الرفق بالرعية له فضل وعناية بالأدب والإنشاء، ذا حظ من تعبد وصيام وتهجد، وفى أيامه كانت فتنة البساسيرى سنة ٤٥٠هـ، كانت خلافته خمسا وأربعين سنة، توفي سنة ٤٦٧هـ.

انظر ترجمته فى: المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ١٦/١٦٨، سير أعلام النبلاء =

السلطة كغيره من خلفاء ذلك العهد، وكان أصحاب السلطة في مدة حكمه من أمراء بنى بويه جلال الدولة (ت ٤٣٥هـ)^(١)، وأبى كاليجار (ت ٤٤٠هـ)، والملك الرحيم (الذي قبض عليه السلاجقة سنة ٤٤٧هـ)^(٢)، واستمرت الخلافة العباسية على هذه الحالة المتردية حتى دخل السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧هـ^(٣).

ثانياً: الخلافة الفاطمية في مصر:

لم تكن الخلافة الفاطمية^(٤) أسعد حالاً من الخلافة العباسية عند ظهور

= ٣١٨-٣٠٧/١٨، العبر في خبر من غير ٣٢٢/٢، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٥ / ٩٩٨/٩٩٨، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٥ / ٢٨٥-٢٨٧، الأعلام ٤ / ٦٦.

(١) جلال الدولة: فيروزجرد بن أبى نصر بن عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه الديلمي، ولى بعده ابنه العزيز أبو منصور، فضعف وخاف، وكاتب ابن عمه، أبا كاليجار مرزبان بن سلطان الدولة فوعده بالجميل وخطب للثنتين معاً، وكانت دولته لينية، وكان ملكاً جليلاً سليم الباطن، ضعيف السلطنة، مصراً على اللهو والشرب مهملاً لأمر الرعية، عاش نيفاً وخمسين سنة، تملك سبع عشرة سنة، توفى سنة ٤٣٥هـ.

انظر ترجمته فى: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٥ / ٢٨٩/٢٩٠، سير أعلام النبلاء ١٥ / ٥٧٧/٥٧٨، العبر في خبر من غير ٢ / ٢٧٠، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٥ / ٣٩، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٥ / ١٦٦.

(٢) الملك الرحيم: خسرو بن أبى كاليجار بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه، كان خاتمة ملوك بنى بويه، انتزع منه السلطان «طغرلبك» الملك، وسجنه مدة بـ«قلعة الرى» بعد أن أتى إليه مستأمناً، فغدر به سنة ٤٤٧هـ، توفى محبوساً سنة ٤٥٠هـ، تملك ست سنين، وكان ضعيف الدولة.

انظر ترجمته فى: سير أعلام النبلاء ١٨ / ١٢٠، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٥ / ٢٢٠.

(٣) انظر تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ٣ / ٥٩.

(٤) الدولة الفاطمية: دولة تمخضت عن الإسماعيلية الباطنية، أول من دعا إليها «أبو عبد الله الشيعى»، الذى ذهب إلى «المغرب» ونشر دعوته، وفى سنة ٢٩٧هـ استدعى «عبيد الله» داعى الإسماعيلية، وقامت دولة الفاطميين في «المغرب»، وأعلن «عبيد الله» بأنه «المهدى وأمير المؤمنين»، ولذلك تسمى دولتهم بـ«العبيديين»، ومعظم المؤرخين ينكر نسبتهم =

السلاجقة، فقد كان الحاكم بأمر الله الفاطمي^(١) هو الخليفة في ذلك الوقت (٣٨٦-٤١١هـ/٩٩٦-١٠٢٠م)، وكانت الأحوال مضطربة؛ نظراً لما أصاب مصر من جراء انخفاض النيل مدة ثلاث سنين (٣٩٨-٤٠١هـ) من ناحية، وسياسة الحاكم مع رعاياه على اختلاف أديانهم ومذاهبهم، وهي السياسة التي اتسمت بالعنف وكثير من التذبذب والاضطراب من ناحية أخرى^(٢)، وكان لضعف سلطة الخلفاء العباسيين الذي تجلى منذ بداية القرن الرابع الهجري بسبب استفحال نفوذ القواد من الأتراك واستقلال الأمراء بولاياتهم، واستبداد البويهيين بأمر الخلافة أثره في تشجيع الفاطميين على إرسال دعواتهم إلى بلاد الدولة العباسية لنشر الدعوة لهم، كما حفزههم إلى العمل على

= إلى «فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا»، ويقولون: إنهم من نسل «ميمون القداح»، ثم انتقلت دولتهم إلى «مصر» في عهد «المعز لدين الله»، وكانت نهاية دولتهم على يد «صلاح الدين» سنة ٥٦٩هـ.

انظر تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة: ستانلي لين بول، ترجمة د/أحمد السعيد سليمان، طبعة دار المعارف القاهرة بدون تاريخ ١/١٣١.

(١) الحاكم بأمر الله (٣٧٥-٤١١هـ=٩٨٥-١٠٢١م): أبو علي منصور الحاكم بأمر الله بن نزار العزيز بالله بن معد المعز لدين الله بن اسماعيل بن محمد العبيدي الفاطمي، من خلفاء الدولة الفاطمية بمصر، ولد في القاهرة وسلم عليه بالخلافة في مدينة بلبيس بعد وفاة أبيه سنة ٣٨٦هـ، وعمره إحدى عشرة سنة، فدخل القاهرة في اليوم الثاني ودفن أباه وبأمر أعمال الدولة، وخطب له على منابر مصر والشام وإفريقيه والحجاز، وعنى بعلوم الفلسفة والنظر في النجوم، وعمل رسداً، واتخذ بيتاً في المقطم ينقطع فيه عن الناس، وأعلنت الدعوة سنة ٤٠٧هـ في مساجد القاهرة، وقام بدعوته محمد بن إسماعيل الدرزي وحسن بن حيدرة الفرغانى، وكادا يفشلان فظهر حمزة بن علي بن أحمد سنة ٤٠٨هـ فقويت الدعوة به، وفقد في إحدى الليالي.

انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء ١٥/١٧٣-١٨٤، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٤/١٧٧-٢٤٥، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٥/٦١-٦٤، الأعلام ٧/٣٠٥.

(٢) انظر سلاجقة إيران والعراق ص ١٤.

تقويض دعائم الخلافة العباسية وانتزاع زعامة الإسلام منها^(١).

وقد نجح الفاطميون في ذلك عندما دخل «أبو الحارث البساسيري»^(٢) بغداد سنة ٤٥٠هـ، وأقام الخطبة فيها للفاطميين، ولكن سرعان ما فشلوا حيث استطاع طغرلبيك تخليص الخلافة العباسية من ذلك^(٣) أن يخلص الخلافة العباسية من هذا الكابوس الذي حل بها في ذلك الوقت، وهذا ما سأتناوله عند الحديث عن مناهج الدولة السلجوقية^(٤).

أهم الدول الإسلامية المستقلة التي اتصلت بتاريخ السلاجقة:

أولاً: السامانيون في خراسان وما وراء النهر (٢٠٤هـ-٣٩٥هـ):

كانت بلاد ما وراء النهر مسرحاً للتنازع بين ثلاث قوى من بينها السامانيون التي قدر للسلاجقة أن تبدأ دولتهم عند نهاية دولة السامانيين.

يُنسب السامانيون إلى إحدى أسر الفرس العريقة، وهم ينسبون أنفسهم إلى ملوك

(١) انظر د/محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٦٦، ١٦٧، ط دار الفكر العربي القاهرة، الرابعة ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

(٢) البساسيري: أبو الحارث أرسلان بن عبد الله البساسيري التركي مقدم الأتراك ببغداد، والبساسيري بفتح الباء والسين المهملة، نسبة إلى بلدة بفارس اسمها «بسا» والعرب تسميها «فسا» والنسبة إليها بالعربية «فسوي» ويقال لها بالفارسية «بساسيري» وكان مولاه رجلاً من أهل بسا فنسب الغلام إليه فاشتهر بالبساسيري، وهو الذي خرج على القائم بأمر الله ببغداد، وكان قد قدمه على جميع الأتراك، وكان لا يقطع أمراً دونه، وقلده الأمور بأسرها، وخطب له على منابر العراق وخوزستان، فعظم أمره وهابته الملوك، ثم خرج على الإمام القائم وأخرجه من بغداد، وخطب للمستنصر صاحب مصر، وقتل على يد عسكر طغرلبيك ببغداد سنة ٤٥١هـ. انظر ترجمته في: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ١/١٩٢، ١٩٣، تاريخ ابن خلدون: العلامة ابن خلدون، سلسلة الذخائر، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة سنة ١٢٨٤هـ ٤/٤٩٣، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٥ / ٣٤٨.

(٣) أحد أبناء ميكائيل بن سلجوق.

(٤) انظر الرسالة ص ٩٣.

الفرس، وكان جد هذه الأسرة هو سامان خداة^(١) من أبناء الملك «بهرام جوبين»^(٢)، منح الخليفة المعتمد تفويضاً بحكم ما وراء النهر لنصر بن أحمد الساماني سنة ٢٦١هـ^(٣)، وهو التاريخ الذي يعتبر بدءاً لقيام الدولة السامانية، فإن الخليفة أعطى سلطة للحاكم نصر جعلته يحكم جميع هذه المناطق بالوراثة ويباشر فيها نفوذاً شبه مستقل^(٤).

وفى سنة ٢٧٩هـ/٨٩٢م توفى نصر بن أحمد، وتولى مقاليد الأمور في الدولة السامانية أخوه إسماعيل بن أحمد^(٥)، والذي يعد من أعظم حكام السامانيين بلا منازع

(١) سامان خداة: أمير سامان وسمى بهذا الاسم لأنه بنى قرية أسماها سامان. انظر تاريخ بخارى: أبى بكر محمد بن جعفر النرشخى، ترجمة د/ أمين عبد المجيد بدوى، نصر الله مبشر الطرازي، طبعة دار المعارف، ذخائر العرب رقم ٤٠، الطبعة الثالثة بدون تاريخ ص ٨٦. وكان يدين بالزرادشتية. انظر زين الأخبار: أبى سعيد عبد الحى بن الضحاک بن محمود، ترجمة د/عفاف السيد زيدان، طبعة المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٦م، ص ٢٠٨، أسلم سامان على يد المأمون عندما كان والياً على خراسان، وكان لسامان ولد سماه أسد، وكان المأمون يحبه حباً شديداً، وكان لأسد أربعة أولاد هو نوح وأحمد ويحيى وإلياس، ولما ولى المأمون خراسان قريهم واستعملهم، ولما ولى الخلافة استخلف على خراسان غسان بن عباد، وفى سنة ٢٠٤هـ، ولى غسان نوح بن أسد على سمرقند، وأحمد على فرغانه، ويحيى على الشاش وأشروسنة، وإلياس على هراة، ولما ولى طاهر بن الحسين خراسان أقرهم على هذه الأعمال، وقد برز من أبناء أسد أحمد بن أسد، وكان لأحمد سبعة بنين هم نصر ويعقوب ويحيى وأسد وإسماعيل وإسحاق وحמיד، ولما توفى أحمد استخلف مكانه ابنه نصر على أعماله بسمرقند وما وراءها. انظر زين الأخبار ص ٢٠٨، الكامل في التاريخ ٧/٢٧٩، ٢٨٠، تاريخ ابن خلدون ٣/٣١١.

(٢) انظر تاريخ بخارى للنرشخى ص ٨٧.

(٣) انظر الكامل في التاريخ ٧/٢٨٠.

(٤) انظر د/أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الإسلامي ٨/٧١، ط مكتبة النهضة المصرية الأولى القاهرة سنة ١٩٨٣م.

(٥) انظر الكامل في التاريخ ٨/٤٥٦.

في المجالات السياسية والحربية والإدارية على السواء، فقد شهدت الدولة السامانية في عهده رفاهية واستقراراً سياسياً حيث اتسعت حدودها، وتوطد استقلالها أكثر من ذي قبل^(١)، حيث قام إسماعيل بحملة عسكرية ضد جيرانه المسيحيين (تاروز)، وقد نتج عن انتصاره في هذه الحروب أن اعتنق الإسلام كبار قادة هذه البلاد، وتبعته الجماهير، وحولت الكنيسة الكبرى إلى مسجد، وتليت الخطبة باسم الخليفة العباسي.

وكذلك قام إسماعيل بمحاربة «محمد بن زيد العلوي»^(٢) الذي كانت له السلطة في «طبرستان»^(٣)، وانتصر عليه وضم مساحات واسعة من أرضه إلى مملكته، وأعظم حروب إسماعيل كانت انتصاراته الباهرة ضد «عمرو بن الليث الصفاري» الذي خلف أخاه يعقوب، وقد استطاع إسماعيل أن ينتصر في هذه الحروب، وأن يقضى على عمرو، ويرسله مكبلاً إلى بغداد حيث قتله الخليفة^(٤)، ولما توفى الأمير

(١) انظر د/ محمد علي الصلابي: دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي ص ٢٧، ط المكتبة العصرية صيدا بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

(٢) محمد بن زيد العلوي (...-٢٨٧هـ=...-٩٠٠م): محمد بن زيد بن إسماعيل بن الحسن، العلوي الحسني صاحب طبرستان والديلم، ولي الامرة بعد وفاة أخيه الحسن بن زيد سنة ٢٧٠ هـ، وكانت في أيامه حروب وفتن، وطالت مدته، وكان شجاعاً، فاضلاً في أخلاقه، عارفاً بالأدب والشعر والتاريخ، أصابته جراحات في واقعة له مع (محمد بن هارون) من أشياع إسماعيل الساماني، على باب جرجان فمات من تأثيرها. انظر ترجمته في: الأعلام ١٣٢/٦.

(٣) طبرستان: هي بلدان واسعة كثيرة يشملها هذا الاسم، والغالب عليها الجبال، من بلدانها دهستان وجرجان واسترياذ وآمل وهي قصبته، وطبرستان في البلاد المعروفة بمازندران وهي مجاورة لجيلان وديلمان، وهي بين الري وقومس والبحر وبلاد الديلم والجبل، كثيرة المياه متهدلة الأشجار كثيرة الفواكة.

انظر معجم البلدان ١٣/٤.

(٤) انظر موسوعة التاريخ الإسلامي ٨ / ٧٢، ٧٣.

إسماعيل تولى مقاليد الأمور في الدولة السامانية ابنه أحمد بن إسماعيل^(١)، قائداً لدولة مترامية الأطراف، وقد وصلت قوة الدولة السامانية إلى حد أن الدولة العباسية كانت تستعين بها في قمع الثورات والقوى التي تريد الانفصال عنها، ولكن يشاء الله تعالى أن هذه الدولة وفي فترة حكم الأمير أحمد أن تحيط بها الأخطار من جميع الأطراف، فمن الداخل انقسم البيت الساماني على نفسه طمعاً في السيادة والحكم، كما أن بعض رجال الدولة عملوا على تحقيق أطماعهم في الوصول إلى السلطة، أما من الخارج فحركة الأمير «الحسن بن علي الزيدي» الملقب بالأطروش الذي استولى على «طبرستان» و«بلاد الديلم»^(٢)، واستطاع أن يدعو قبائل هذه المنطقة إلى الإسلام، فأسلم عدد كبير منهم، وكانوا على الوثنية أو المجوسية، ثم التف أهل هذه البلاد حوله، وطردها منها والى السامانيين^(٣)، أضف إلى ذلك ظهور قوتين عظيمتين هما الدولة الغزنوية الذي أخذ نفوذها يمتد في عدة أمكنة، وعندما هزم السلطان محمود

(١) أحمد بن إسماعيل الساماني: صار أمير خراسان بعد أبيه، كان يسير بسيرة أبيه في العدل بين الرعية، في عهده زالت «الدولة الصفارية»، قُتِلَ سنة ٣٠١هـ، وسبب ذلك أنه كان مولعاً بالصيد، فخرج للصيد، فأتاه كتاب نائبه بـ«طبرستان» يخبره بظهور «الحسن بن علي العلوي الأطروش»، وتغلبه عليها، فعاد إلى معسكره، وكان قد أحرقه قبل خروجه، فتطير الناس، وكان له أسد يربطه كل ليلة على بابه فلا يقربه أحد، فأغفلوا إحضاره في الليلة التي قُتِلَ فيها، فدخل عليه بعض غلمانته، فذبحوه على سريريه، فحُمِلَ إلى «بخارى» فذُفِنَ بها وتلقب بـ«الشهيد». انظر تاريخ بخارى للنرخشي ص ١٣١/١٣٢.

(٢) بلاد الديلم: اسم الديلم يطلق على السهل والجبل، وكان في أيام البويهيين يشمل جيلان، وطبرسان، وجرجان، وقومس، ثم انفصلت عن الديلم، واستقلت وأصبحت المنطقة الجبلية هي الديلم.

انظر المسالك والممالك ص ١٢١.

(٣) انظر د/محمد حسن عبد الكريم العمادي: خراسان في العصر الغزنوي، تقديم د/نعمان جبران، جامعة اليرموك الأردن، ص ١٧.

الغزنوى جيش السامانيين عند «مرو»^(١) أزال سلطان السامانيين من خراسان^(٢)، أما القوة الثانية فهي الدولة البويهية، والتي كانت قد تمكنت من العراق، وقد تطلع البويهيون إلى السيطرة على أملاك الدولة السامانية، واشتبك الطرفان في حروب.....، وقد استطاع البويهيون انتزاع كرمان من السامانيين والاستيلاء عليها وجباية أموالها التي قاموا بإنفاقها على جيوشهم عام ٣٢٤هـ^(٣)، كل هذه العوامل أدت في النهاية إلى زوال الدولة السامانية.

ولأمراء السامانيين فضل كبير في تشجيع الأدب وبخاصة الأدب الفارسي الذي بدأ ينتعش منذ القرن الثالث، حتى إن الفرس أخذوا يؤلفون بلغتهم الفارسية، وقد بدأت الروح الفارسية تظهر في الأدب الفارسي منذ ذلك الوقت، ومن ذلك كتاب «الشاهنامه» لـ«الفردوسي»، و«مختصر الطبرى» لـ«البلعمى» وزير منصور الأول بن نوح (٣٥٠-٣٦٦هـ) أما الطب والفلك والفلسفة فقد كان الفرس يؤلفون فيها باللغة العربية بدلاً من الفارسية، إذ لم يكن لهذه العلوم كبير علاقة بالأدب الفارسي، ومن أشهر كتب الطب في ذلك العصر «الكتاب المنصورى» الذى ألفه «أبو بكر الرازى»، وأهداه إلى «أبى صالح منصور بن إسحاق السامانى» الذى ولى «سجستان»^(٤) نيابة عن السامانيين.

وقد روى لنا «ابن سينا» الفيلسوف المشهور أنه رأى في مكتبة بخارى حاضرة الدولة السامانية من طرائف الكتب ما لم يسمع بمثله من قبل^(٥).

(١) مرو: من أشهر مدن خراسان وهى مدينتان مرو الروذ ومرو الشاهجان. انظر معجم البلدان ١١٢/٥.

(٢) انظر موسوعة التاريخ الإسلامى ٨ / ٧٤.

(٣) انظر دولة السلاجقة د/الصلابى ص ٢٦.

(٤) سجستان: ناحية كبيرة وولاية واسعة بينها وبين هراة عشرة أيام وهى جنوبى هراة وأرضها رملة سبخة. انظر معجم البلدان ٣/١٩٠.

(٥) انظر د/حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ج ٣، ص ٨٢، طبعة مكتبة النهضة المصرية، بدون تاريخ.

ثانياً: الدولة البويهية (٣٣٤-٤٤٧هـ):

كان البويهيون يمثلون إحدى القوى الكبرى ذات النفوذ في الشرق الإسلامي، وبالإضافة إلى سيطرتهم على «بغداد»، كان بعض أمرائهم يحكمون في مناطق مستقلة، يمكن اعتبارها فروعاً للأسرة البويهية، وعندما نتحدث عن البويهيين فإننا نتحدث عن دولة سيطرت على مناطق محددة من العالم الإسلامي، وأرهقت الخلافة العباسية.

كان بني بويه^(١) جنوداً في جيش القائد الديلمي ما كان بن كالي^(٢)، فلما ضعف أمر ما كان إثر هزيمته أمام مرداويج بن زيار الديلمي^(٣)، طلبوا منه أن يأذن لهم بالانتقال إلى خدمة خصمه مرداويج، وقالوا له: نحن في جماعة وقد صرنا ثقلاً عليك، وأنت مضيق، والأصلح لك أن تفارقك لنخفف عنك مؤونتنا، فإذا صلح أمرنا عدنا إليك، فأذن لهم وصاروا إلى مرداويج حيث رحب بهم، وخلع عليهم، وولي

(١) هم الإخوة عماد الدولة أبو الحسن على، وركن الدولة أبو على الحسن، ومعز الدولة أبو الحسن أحمد، وأولاد أبي شجاع بويه بن فناخسرو، وكان بويه من أواسط الناس يصيد السمك بين الديلم، فملك أولاده الدنيا، ونسبه متصل إلى أردشير بن بابك من الأكاسرة، وكان أول ظهور لهم في سنة ٣٢٢هـ، عندما انفرد الأمير على بن بويه عن أميره مرداويج الديلمي. انظر الكامل في التاريخ ٢٦٤/٨، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٤/١١١، العبر في خبر من غبر ١٣/٢.

(٢) انظر: الكامل في التاريخ ٢٦٧/٨.

(٣) مرداويج بن زيار الديلمي: ملك الديلم، عتا وتمرد، وسفك الدماء، وحكم على مدائن الجبل وغيرها وخافته الملوك، كان بنو بويه من أمرائه، كان مسيئاً إلى الأتراك الذين كانوا معه، فحنقوا عليه فقتلوه وهو في الحمام وذلك في سنة ٣٢٢هـ، وكان قد اتخذ لنفسه تاجاً مرصعاً بالجواهر كتاج كسرى، وتملك بعده أخوه وشمكير. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء ٢١٦/٢١٥/١٥، العبر في خبر من غبر ١٤/٢، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ١١٢/٤.

علياً^(١) - وكان أكبر الأخوة الثلاثة - بلاد الكرج^(٢)،^(٣).

ولم يزل يتلطف الناس ويحسن إليهم حتى اشتهر بين البلاد المجاورة وأحبوه وخضعوا له ونزلوا على طاعته، وساعده في ذلك إخوته حتى استولى على إقليم فارس، وفي سنة ٣٣٤هـ زحف أحمد بن بويه إلى بغداد، ودخلها دون قتال، وغدت العراق تحت سيطرة بنى بويه، وأظهروا الطاعة للخليفة، وأخذوا ألقابهم منه، تلقب أحمد «معز الدولة»، وبقي حاكماً على العراق نائباً عن أخيه عماد الدولة نيفاً وعشرين سنة (ت سنة ٣٥٦هـ)، وأما ركن الدولة الحسن بن بويه فقد حكم أصبهان^(٤)، وطبرستان، وجرجان^(٥)، وأخوهم الكبير عماد الدولة: شيراز^(٦) وما حولها، ولكنه هو

(١) على بن ركن الدولة بن بويه، سلطان الري وبلاد الجبل، كان شهماً شجاعاً جماعاً للأموال، واسع الممالك، لقبه الطائع فلك الأمة، عاش ستاً وأربعين سنة، وكانت دولته أربع عشرة سنة، كان يقول: قد جمعت لولدى ما يكفيهم ويكفي عسكرهم خمس عشرة سنة، خلف من الذهب عيناً، وأوانى قريباً من أربعة آلاف درهم ومن الذخائر والأمتعة على هذا النحو، ومع هذا لم يصلوا ليلة موته إلى شئ من المال، ولم يحصل له كفن إلا ثوب من المجاورين في المسجد، واشتغلوا عنه بالملك، حتى تم لولده رستم من بعده، فأنتن الملك ولم يتمكن أحد من الوصول إليه فربطوه في حبال، وجروه من نتن ريحه، فنتقطع جزاءً وفاقاً، توفي سنة ٣٨٧هـ. انظر ترجمته في: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٣٩٤/١٤، سير أعلام النبلاء ١٣٠/١٥، العبر في خبر من غبر ١٧٢/٢، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٦٩/٤، شذرات الذهب في خير من ذهب ٤/٤٦٦، ١٦٧.

(٢) الكرج: مدينة بين همذان وأصبهان في نصف الطريق، وهى إلى همذان أقرب. انظر معجم البلدان ١٢٦/٥.

(٣) انظر: الكامل في التاريخ ٢٦٧/٨.

(٤) أصبهان: أو أصفان: مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها وهو من نواحي الجبل. انظر معجم البلدان ٢٠٦/١.

(٥) جرجان: مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان. انظر معجم البلدان ٤٢/٣.

(٦) شيراز: بالكسر وآخره زاي، بلد عظيم مشهور، قسبة بلاد فارس في وسطها. انظر معجم البلدان ٣٨٠/٣، ٣٨١.

المقدم فيهم الذى يسمعون كلامه (١).

إنّ تشيع البويهيين جعلهم ينظرون إلى الخلافة العباسية على أنها مغتصبة ، لأن أولاد فاطمة الزهراء رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أحق بالخلافة منهم، ولذا فكروا في إزالتها، ولكنهم تراجعوا عن ذلك خوفاً من انقلاب من يتولى الخلافة عليهم فيما بعد.

لم يخف البويهيون تشيعهم، وكانت لا تمر سنة دون شغب واصطدامات تقع بين السنة والشيعة، تذهب فيها الأرواح والممتلكات وتحرق الدور والأسواق.

وفى سنة ٣٥٢هـ أمر معز الدولة بن بويه أن تغلق الأسواق وأن يلبس النساء المسوح من الشعر، وأن يخرجن في الأسواق حاسرات عن وجوههن، ناشرات شعورهن، يطمئن وجوههن ينحن على الحسين بن على بن أبى طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ولم يتمكن أهل السنة من منع ذلك لكثرة الشيعة وظهورهم، وكون السلطان معهم (٢).

إذا تركنا الثلاثة الكبار (٣) الذين أسسوا ملك البويهيين الفسيح، وذهبنا إلى الجيل التالى وجدنا أنه لم يصل إلى الحكم من أولادهم إلا عز الدولة بختيار بن معز الدولة أحمد (٤)، والذى قبض على زمام الحكم في بلاد البويهيين، فهو عضد

(١) انظر أيعيد التاريخ نفسه ص ٦٢، ٦٣.

(٢) انظر البداية والنهاية ١٢/٢٤٣.

(٣) هم أفراد الجيل الأول من الأسرة البويهية التي حكمت العراق ٣٣٤-٤٤٧هـ، وهم على بن بويه، والحسن بن بويه، وأحمد بن بويه.

(٤) عز الدولة (٣٣٢-٣٦٧هـ=٩٤٣-٩٧٨م): بختيار أبو منصور بن معز الدولة أحمد بن بويه، أحد سلاطين «العراق» من «بنى بويه»، كان شديد البأس يمسك الثور بقرنيه ويصرعه، تسلطن بعد أبيه سنة ٣٥٦هـ، ونشبت معارك بينه وبين ابن عمه «عضد الدولة» انتهت بمقتله، وكانت له عناية بالأدب، وله نظم.

انظر ترجمته فى: المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ١٤/٢٥٦، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ١/٢٦٧/٢٦٨، سير أعلام النبلاء ١٦/٢٣١/٢٣٢، العبر فى خبر من غير ٢/١٢٦، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ٤/٣٥٨، الأعلام ٢/٤٤.

الدولة^(١) أبو شجاع بن ركن الدولة حسن، الذي كانت له بلاد فارس، وفي عهد عضد الدولة بلغ بنو بويه أقصى درجات قوتهم، ولما توفى عضد الدولة سنة ٣٧٢هـ، قامت حروب بين أولاده الثلاثة شرف الدولة وصمام الدولة وبهاء الدولة، وانتهت هذه الحروب سنة ٣٨٠هـ، بانتصار بهاء الدولة، فلما توفى بهاء الدولة سنة ٤٠٦هـ . اشتعلت الحروب بين أبنائه الأربعة سلطان الدولة، ومشرف الدولة، وقوام الدولة، وجمال الدولة، واستمرت الحروب بين أخلافهم حتى هدت كياناتهم جميعاً، وكان آخرهم السلطان الملقب بالملك الرحيم الذي اقتحم السلاجقة بغداد في عهده سنة ٤٤٧هـ، وقبضوا عليه وأرسلوه أسيراً إلى السجن، وانتهى بذلك عهد البويهيين^(٢).

ثالثاً: القراخانيون (٣٤٩-٥٣٦هـ):

ينتسب القراخانيون إلى العنصر التركي، وينتمون إلى قبيلة القارلوق . على الأغلب . الذين يتكونون بدورهم من مجموعة من قبائل تركية متحالفة، وكانت منازلهم في المناطق الوسطى من حوض نهر سيحون وتمتد شرقاً حتى السهوب الغربية لجبال ألطاي، وجنوباً إلى المناطق الواقعة بين وادي نهري سيحون وإيلي، ومناطق حوض

(١) عضد الدولة (٣٢٤-٣٧٢هـ=٩٣٦-٩٨٣م): أبو شجاع فناخسرو بن ركن الدولة حسن بن بويه، تملك فارس بعد عمه عماد الدولة، ثم كثرت بلاده، واتسعت مملكه، وسار إليه المتنبئ ومدحه، وأخذ صلاته، قصد عضد الدولة العراق، والتقى ابن عمه عز الدولة وقتله وتملك بعده، ودانت له الأمم، وكان بطلاً شجاعاً نحوياً أديباً عالماً جباراً، عسوفاً شديداً الوطأة، نقل عنه أنه لما احتضر ما انطلق لسانه إلا بقوله تعالى: ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه، ومات بالصرع، وكان مغالياً في التشيع، أظهر بالنجف قبراً زعم أنه قبر الإمام على وبنى عليه المشهد، مات سنة ٣٧٢هـ، عاش ثمانياً وأربعين سنة، وقام بعده ابنه صمام الدولة. انظر ترجمته في: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٤ / ٥٠-٥٣، سير أعلام النبلاء ١٦/٢٤٩-٢٥٢، العبر في خبر من خبر ٢ / ١٣٩، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٤ / ١٤٦، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٤ / ٣٨٩-٣٩١، الأعلام ٥ / ١٥٦.

(٢) انظر موسوعة التاريخ الإسلامي ٨ / ٨٤.

وادی نهر جو في الشمال، ويحمل زعيم القرخانيين لقب إيلك^(١).

وكان حكام هذه الأسرة حديثي عهد بالإسلام، فلقد تغلغل الإسلام بين الأتراك منذ وقت مبكر، ولكنه لم ينتشر بينهم على نطاق واسع إلا منذ سنة ٣٤٩هـ، حيث أسلم من الترك نحو مائتي ألف خركاه^(٢).

ويرجح «بارتولد»: أن أول خانات الترك الذين دخلوا الإسلام، هو «ساتوق بغراخان عبد الكريم»، وأن الأتراك الذين دخلوا في الإسلام، والذين أشار إليهم «ابن الأثير» من رعايا هذا الحاكم، ويقال إن «بغراخان» هذا توفي في سنة ٣٤٤هـ (٩٥٦/٩٥٥م)^(٣)، ويمكن تحديد قيام هذه الإمارة في بلاد ما وراء النهر عام ٣٨٣هـ/٩٩٣م وهو تاريخ سيطرتهم على بخارى عاصمة السامانيين، ولكن الواقع أن سيطرتهم على المدينة كانت مزعزعة ومهددة، فخرجوا منها تحت الضغط الساماني الذي كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، ودام الصراع بين القوتين حوالي اثنتي عشر سنة سيطر القراخانيون في نهايتها على مدينة بخارى سيطرة تامة ونهائية، وذلك في أواخر سنة ٣٩٤هـ/١٠٠٤م^(٤).

بدأت العلاقات القراخانية السلجوقية مبكراً، حيث اشتبك السلاجقة مع الأمير القراخاني بغراخان في عدة حروب، وكانوا قد التجأوا إليه هرباً من أمير بخارى، فأقاموا في بلاده، واحتموا به، لكنه غدر بطغرلبك، وأسره، فثار داود^(٥) في عشائره

(١) انظر تاريخ السلاجقة في بلاد الشام: د/محمد سهيل طقوش، ص ٧١، طبعة دار النفائس بيروت، الأولى سنة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

(٢) انظر الكامل في التاريخ ٥٣٢/٨.

(٣) انظر ت. هوتسما، ت. و. أرنولد / ر. باسيت، ر. هارتمان: دائرة المعارف الإسلامية ٢٤/٤، ط مركز الشارقة للإبداع الفكري، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

(٤) انظر تاريخ السلاجقة في بلاد الشام ص ٧١.

(٥) السلطان داود بن الأمير ميكائيل بن سلجوق بن دُقاق السلجوقي، صاحب «خراسان» ووالد السلطان «ألب أرسلان»، وأخو صاحب العراق والعجم «طغرلبيك»، وهما أول =

ومن يتبعه، وقصد بغراخان، واستطاع داود أن يخلص أخاه من الأسر، وأقام السلاجقة بعد ذلك بمدينة جند، ثم ما لبثت هذه العلاقة أن تطورت، فقد تحالف بغراخان معهم وأخذ يحرضهم على الإغارة على أملاك السلطان مسعود الغزنوي، ولما دخل طغرلبك خراسان سنة ٤٢٩هـ بعث إليه برسالة ومما قاله فيها: اصمدوا وربطوا حتى نرسل لكم أي عدد من الرجال تريدون، لكن السلطان مسعود الغزنوي بعث برسالة إلى بغراخان وأخيه أرسلان خان وعقد اتفاقاً يتضمن وقف الإمدادات التي تصل إلى السلاجقة^(١).

ظل القراخانيون يحكمون بلاد ما وراء النهر بشكل مستقل دون الخضوع لأي سلطة خارجية حتى عام ٤٨٣هـ/١٠٩٠م عندما اصطدموا بالسلاجقة فقد عبر السلطان السلجوقي ملكشاه آنذاك نهر جيحون، وضم تلك المناطق إلى أملاك الدولة السلجوقية، لكنه أقر القراخانيين على حكمها، وإدارة شئونها نيابة عن السلطنة السلجوقية^(٢)،^(٣).

= الملوك السلجوقية، استولوا على الممالك، وأبادوا الدولة البويهية، وكان ينكر على أخيه الظلم، وفيه ديانة، وكان ملكاً شجاعاً عاقلاً جواداً، فيه ديانة وعدل، عاش سبعين سنة، وامتدت أيامه إلى أن توفى بسرخس في رجب سنة ٤٥١هـ، وقيل: في صفر سنة ٤٥٢هـ، ونقل ودفن بمرور، تملك بعد جغرى بك ابنه ألب أرسلان.

انظر ترجمته في: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٣٩/١٦، وقد أورده في وفيات سنة (٤٥٠هـ)، سير أعلام النبلاء ١٠٦/١٨-١٠٨، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٦٥،٦٤/٥، وقد أورده في وفيات سنة (٤٥٠هـ).

(١) انظر أبو الفضل البيهقي: تاريخ البيهقي ص ٥٧١-٥٧٤، ترجمه إلى العربية د/ يحيى الخشاب، د/ صادق نشأت، طبعة مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٥٦م.

(٢) انظر تاريخ السلاجقة في بلاد الشام ص ٧٣.

(٣) كان السلطان ألب أرسلان السلجوقي قد عبر نهر جيحون في عام ٤٦٥هـ/١٠٧٢م بجيوش جرارة ليضم أراضي القراخانيين، ولكن وفاته في العام نفسه أجلت مشروع السلاجقة هذا لأكثر من خمس عشرة سنة. المرجع السابق هامش ص ٧٣.

وفى سنة ٥٣٦هـ انقضت دولة الخانية المسلمين بعد معركة فاصلة بينهم وبين الأتراك الوثنيين، الخطا الذين كان يساعدهم ملك الصين، ويصف ابن خلدون الموقف بقوله: واستقرت الدولة فيما وراء النهر للخطا وهم يومئذ على دين الكفر^(١).

رابعاً: الغزنويون (٣٥١-٥٨٢هـ):

كانت الدولة الغزنوية من الدول الكبرى التي استطاعت أن تلعب دوراً مهماً في العالم الإسلامي في ذلك الوقت، فما أن استقرت في سيطرتها على أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي حينذاك، حتى اتجه سلاطينها إلى الهند فاتحين وناشرين للإسلام بين الهنود، فإليها يرجع الفضل في نشر الإسلام بين الهنود.

نشأت الدولة الغزنوية على يد جماعة من الأتراك الذين سكنوا الجزء الجنوبي الشرقي من التركستان وهضاب أفغانستان، ونبغ من هؤلاء الأتراك زعيم يسمى «ألبتكين»^(٢) من الموالى الأتراك الذين كانت لهم منزلة كبيرة عند السامانيين، فأُسندوا إليه المناصب العالية في الدولة، وقد عين عبد الملك بن نوح الساماني (٣٤٣-٣٥٠هـ) ألبتكين حاجباً في بلاطه، ثم عينه في سنة ٣٤٤هـ عاملاً على مدينة هراة^(٣)، ولكنه أقصى عن منصبه بعد وفاة مولاه، فعاد إلى مدينة غزنة^(٤) التي كان أبوه

(١) انظر تاريخ ابن خلدون ٤/٣٩٥-٣٩٧.

(٢) ألبتكين: كلمة مركبة من «ألب» بمعنى البطل و«تكين» بمعنى المسمى، والكلمة الأخيرة صحتها «تكن» أو «تين» ولا تزال تروج كاسم علم بين التركمان، وتجد لفظ «تكين» يلحق بكثير من الأسماء التركية مثل «قرة تكين»، و«نوشتكين»، و«سبكتكين». انظر أرمنيوس فامبرى: تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر، ترجمه وتعليق د/أحمد محمود الساداتى، مراجعة د/يحيى الخشاب، طبعة دار لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة بدون تاريخ، ص١١٧.

(٣) هراة: مدينة كبيرة وعريقة في شمال غرب «أفغانستان»، تقع في شمال «هضبة إيران» التي ترتفع حوالى أربع آلاف قدم فوق سطح البحر، وتبعد عن العاصمة «كابل» مسافة حوالى ٦٠٠ كم وإلى الغرب منها، وتتصل بها وبغيرها من مدن البلاد بطرق مواصلات طويلة، وقد دخلها الإسلام بعد معركة «نهاوند»، وبنيت فيها العديد من المساجد والمدارس الإسلامية =

يلها من قبل السامانيين، وحل محله في حكمها بعد وفاته سنة ٣٥٢هـ، واستطاع أن يناوئ منصوراً الأول بن نوح الساماني (٣٥٠-٣٦٦هـ)^(٢)، ولكنه مات بعد سنة واحدة دون أن يتمكن من توسيع رقعة البلاد التي استولى عليها، كما لم يتمكن ابنه إسحاق من مد نفوذ الغزنويين، وكان لإسحاق مملوكان هما يلكاتين وسبكتكين، وقد آلت السلطة من بعده إلى أولهما ف ضرب النقود باسمه في غزنة سنة ٣٥٩هـ، وتبعه في حكمها بيري أحد أهالي هذه المدينة، ويعتبر سبكتكين أحد موالى ألبتكين وزوج ابنته المؤسس الحقيقي للدولة الغزنوية^(٣)، عرف سُبُكْتِكِينَ بالعقل والعفة وجودة الرأي والصرامة في الأمور عند أرباب الدولة، وعندما عاد سيده «أبي إسحاق ألبتكين» إلى «غَزْنَةَ» وعاد معه سُبُكْتِكِينَ، ولم يلبث «أبي إسحاق» أن توفي، ولم يخلف من أهله من يصلح للولاية، فاجتمع قادة الدولة، ونظروا فيمن يولونه، ويلي أمرهم، ويجمع كلمتهم، فاختلّفوا في بادئ الأمر، ثم اتفقوا على تولية سُبُكْتِكِينَ لما عرفوه عنه من العقل والدين، فقدموه عليهم، وولوه أمرهم، وحلفوا له بالولاء والطاعة، فوليهم فأحسن

= التي عملت على تحقيق الحضارة الإسلامية ونشرها في بلاد «ما وراء النهر»، ويبلغ عدد سكانها حوالي ٣٥٠ ألف نسمة تقريباً. انظر موسوعة ١٠٠٠ مدينة إسلامية ص ٥١٠.

(١) غَزْنَةَ: مدينة تاريخية عريقة في شرق «أفغانستان» على مسافة حوالي ١٧٠ كم جنوب غرب العاصمة «كابل»، وتتصل بها وبغيرها من مدن البلاد بطرق مواصلات برية طويلة، وقد اتخذها الغزنويون عاصمة لهم، ولقد شهدت تلك المدينة عصوراً من الإزدهار الإسلامي، وانتشرت فيها المساجد العريقة والمدارس العلمية، وينسب إليها عدد كبير من العلماء الذين أثروا الحضارة الإسلامية في آسيا الوسطى.

انظر موسوعة ١٠٠٠ مدينة إسلامية ص ٣٥١/٣٥٠.

(٢) الأمير السديد منصور بن عبد الملك بن نوح بن نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد بن أسد الساماني، حكم خمس عشرة سنة وقد أثر عنه العدل والإنصاف والخيرات والمبرات الكثيرة، توفي سنة ٣٦٥هـ.

انظر تاريخ كزيدة الملحق بتاريخ بخارى للنرشخي ص ١٥٠/١٥١.

(٣) انظر تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ٩٢/٣.

السيرة فيهم، ومنذ توليته الحكم عمل على نشر الإسلام في «الهند»، فسار نحو «الهند» مجاهداً، وجرى بينه وبين الهنود حروب يشيب لها الوليد، وفتح من بلادهم حصوناً ومعقل، وقتل منهم ما لا يدخل تحت الإحصاء^(١)، وفي سنة ٣٨٧هـ توفى سبكتكين، وكانت دولته نحو عشرين سنة، وكان عادلاً خيراً كثير الجهاد حسن الاعتقاد، ذا مروءة تامة، وحسن عهد ووفاء^(٢).

عهد سبكتكين قبل موته إلى ابنه اسماعيل، وكان ضعيف الرأي والتدبير، حتى كادت تنفذ خزائنه، فأرسل إليه أخوه محمود، وكان أكبر منه سناً، يبين له أحييته في السلطنة بعد أبيه، واتصل بمحمود قواد إسماعيل سراً، والنقت جيوشهما بظاهر غزنة، وانتصر محمود، وبانتصاره استقر له ملك الغزنويين، وقبض على إسماعيل بعد أن حكم سبعة أشهر^(٣).

عمل السلطان محمود على مد نفوذه وتوسيع رقعة بلاده، ففي سنة ٣٨٩هـ استولى على خراسان، وأزال عنها اسم السامانية، وخطب فيها للقادر بالله، وعين أخاه نصراً على جيوشها^(٤).

وفي سنة ٣٩٣هـ استولى السلطان محمود على سجستان من صاحبها خلف بن أحمد ولكنها لم تلبث أن خرجت عليه فأخضعها وأقطعها أخاه نصراً^(٥).

وفي سنة ٤٠١هـ استولى على بلاد الغور^(٦)، وكانت تجاور مملكته، وكانوا يقطعون الطريق، مغتربين بحصانة بلادهم ووعرة مسالكها، فلما كثر إفسادهم خرج

(١) انظر الكامل في التاريخ ٦٨٣/٨، ٦٨٤.

(٢) المرجع السابق ١٣٠/٩.

(٣) انظر تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ٨٧/٣.

(٤) انظر الكامل في التاريخ ١٤٦/٩.

(٥) المرجع السابق ١٧٢/٩-١٧٥.

(٦) بلاد الغور أو غورستان: بلاد واسعة موحشة تغلب عليها الطبيعة الجبلية والمناخ البارد تقع بين هرة وغزنة. انظر المسالك والممالك ص ١٥٣، ١٥٤، بلدان الخلافة الشرقية ص ٤٥٨، ٤٥٩.

السلطان محمود لغزوه، واستطاع أن يوقع بهم الهزيمة، وأظهر السلطان شعائر الإسلام، وجعل عندهم من يعلمهم أصول الدين وأحكامه^(١).

عندما عبر السلطان محمود نهر جيحون سنة ٤١٥ هـ هاله كثرة عدد جند السلاجقة، وقوة شوكتهم، فكاتب أرسلان بن سلجوق، وأخذ يستميله ويرغبه في لقائه^(٢)، ويقول: «إننى لفى عجب من تدبيركم وعقلكم، ولكنكم حتى الآن وبحكم الجوار لم تطلبوا منا طلباً أو تلتمسوا ملتماً، وإنى لشديد الرغبة في مصادقتكم واستمداد المعونة منكم، ولست في غنى على الإطلاق عن معاونتكم، فإذا لم يستطع جميع الإخوة الحضور إلى فليختاروا واحداً منهم يفد إلى مقرى، ولقد اتخذت مقامى على شاطئ النهر حتى تقصر المسافة بينى وبينكم، فإذا جاءنى واحد منكم عقدت معه العهد ووثقت معه الموثيق»^(٣).

ولما وصلت رسالة السلطان محمود إلى أبناء سلجوق، وثقوا بما جاء فيها اعتماداً منهم على الوفاء الإسلامى، واختاروا أن يرسلوا إليه إسرائيل، وكان المقدم المحترم بينهم^(٤).

فسار إسرائيل إلى السلطان محمود ومعه جيش كبير، فلما علم السلطان بمقدمهم أرسل إلى إسرائيل رسولاً على وجه السرعة يستقبله، ويقول له: «لسنا الآن في حاجة إلى الاستمداد بجيشك، وإنما جملة مقصودنا أن ننعّم برؤيتك والاستظهار بك، فاترك الجيش في مكانه، وتعال أنت مع خواصك وأعيان رجالك»^(٥)، فامتل إسرائيل لطلب السلطان محمود وجاء إليه مجرداً من جيشه، فلما وصل إلى حضرة السلطان بالغ

(١) المرجع السابق ٢٢١/٩، ٢٢٢.

(٢) المرجع السابق ٤٧٥/٩.

(٣) انظر راحة الصدور وآيه السرور ص ١٤٧، ١٤٨.

(٤) المرجع السابق ص ١٤٨.

(٥) المرجع السابق ص ١٤٨.

السلطان محمود في إكرامه، وأجلسه على العرش إلى جواره^(١).

وأراد السلطان محمود أن يعرف قوة السلاجقة على حقيقتها، فأوهم إسرائيل أنه يود الاستعانة بهم للقضاء على من يحاول الخروج عليه حينما يذهب لغزو بلاد الهند، وسأل إسرائيل حول مقدار ما يستطيع السلاجقة أن يمدوه به من الجيوش، وكان إسرائيل يحمل قوساً وسهمين، فأخذ سهماً وأعطاه للسلطان محمود وقال له: أرسل هذا السهم إلى جندنا إذا عرضت لك حاجة إلينا، يأتيك منا مائة ألف فارس، فأجابه السلطان محمود: وإذا لم يكف هذا العدد فماذا نفعل؟ فتناول إسرائيل السهم الآخر وأعطاه للسلطان محمود وقال له: أرسل هذا السهم إلى «جبل بلخان»^(٢) يأتيك على الفور خمسون ألفاً غيرهم، فأجابه السلطان: وإذا لم يكف هذا العدد فماذا نصنع؟ فناوله إسرائيل قوسه وقال له: أرسل هذه أمانة إلى تركستان يأتيك إذا شئت مائتا ألف فارس^(٣).

ازدادت مخاوف السلطان محمود من السلاجقة وكثرة جيوشهم، فأمر بالقبض على إسرائيل بن سلجوق وولده قتلش وبقية من معه من الفرسان، ثم أرسل الأمير السلجوقي إلى بلاد الهند وسجن في قلعة «كالنجر»^(٤).

وبعد أن ظل سجيناً مدة سبع سنوات، جرت محاولة لتحريره من القلعة إلا أنها أخفقت، وأعيد إسرائيل إلى القلعة وشددوا القيود عليه، وبقي سجيناً حتى أدركته الوفاة^(٥).

(١) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ١٤٨.

(٢) جبل بلخان: جبل إلى الشمال الشرقي من خراسان والساحل الشرقي لبحر الخزر.

انظر عباس إقبال أشتياني: تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية ص ٢٢٩، نقله عن الفارسية د/محمد علاء الدين منصور، مراجعة د/السباعي محمد السباعي، طبعة دار الثقافة القاهرة سنة ١٩٨٩م.

(٣) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ١٤٨، ١٤٩.

(٤) المرجع السابق ص ١٥٠.

(٥) المرجع السابق ص ١٥١.

وقد أغضب هذا التصرف الغادر السلاجقة، وجعلهم يعقدون العزم على الأخذ بالثأر لإسرائيل، فاختروا أخاه ميكائيل^(١) لقيادتهم ففكر في الانتقال بهم إلى إقليم خراسان^(٢)، فكتب إلى السلطان محمود يقول: «إن مقامنا أصبح يضيق بنا، وإن مراعيينا أصبحت لا تقى بحاجة مواشيننا، فأذن لنا أن نعبّر النهر وأن نجعل مقامنا بين «نسا»^(٣) و«باورد»^(٤)، ولكن أرسلان الجاذب حاكم مدينة «طوس»^(٥)، حذر السلطان محمود من عبور السلاجقة قائلاً: «ليس من الصواب أن تسمح لهم بالعبور إلى خراسان، فإنهم فرسان كثيرون، يملكون العدة والعتاد، وإنى أخشى أن يكونوا سبباً في متاعب لا يمكن تلافيها وتداركها...»^(٦)، غير أن السلطان محمود لم يلتفت إلى رسالة أرسلان الجاذب وقال: «إننى لا أهتم بأمرهم ولا خشية لى من أمثالهم...»، وسمح لهم بعبور

(١) تذكر بعض المصادر أن ميكائيل قتل قبل هذا التاريخ أثناء غارات السلاجقة على الأتراك غير المسلمين. انظر الكامل في التاريخ ٤٧٤/٩، المختصر في أخبار البشر ٥١٦/١.

(٢) انظر سلاجقة إيران والعراق ص ٢٤.

(٣) نسا: مدينة بخراسان قرب سرخس، بناها فيروز بن يزدجرد، أحد الأكاسرة وكان يقال لها شهر فيروز، ويقال لها اليوم درهكز أي وادي المن. انظر آثار البلاد وأخبار العباد ص ٤٦٥، بلدان الخلافة الشرقية ص ٤٣٥.

(٤) باورد: تلفظ أيضاً أبيورد، تقع شرق مدينة نسا فيما وراء الجبال، وتعد من أقاليم خراسان الشرقية. انظر بلدان الخلافة الشرقية ص ٤٣٦.

(٥) طوس: مدينة بخراسان من أعمال نيسابور وبينهما نحو عشرة فراسخ، بها قبر هارون الرشيد. انظر معجم البلدان ٢٧٢/٦.

(٦) تذكر بعض المصادر أن السلطان محمود استشار «أرسلان الجاذب» فيما يفعله حيال السلاجقة، فصحه بأن يقطع ابهام كل رجل منهم حتى لا يستطيعوا شد القوس أو أن يغرقهم جميعاً في نهر جيحون، فاستقبح السلطان محمود هذا العقاب واتهمه بقساوة القلب. انظر الكامل في التاريخ ٤٧٥/٩-٤٧٦، أخبار الدولة السلجوقية ص ٣، عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص ٥، اختصره الشيخ الفتح بن علي بن محمد البنداري الأصفهاني، طبعة دار الأفاق الجديدة بيروت، الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

نهر جيحون والاستقرار في إقليم خراسان سنة ٤١٦ هـ^(١)، ويرى بعض المؤرخين^(٢) أن هجرة السلاجقة إلى إقليم خراسان لم تكن بناء على طلب منهم، بل كانت تهجيراً إجبارياً فرضه عليهم السلطان محمود ليضعف شوكتهم ويحد من قوتهم، وكان انتقال السلاجقة إلى خراسان بداية لمرحلة جديدة من مراحل كفاحهم، فقد أخذوا يدعمون قواتهم، وينتشرون في الأرجاء المجاورة لهم، ويتحنون الفرص للانقضاض على الدولة الغزنوية، واقتلاع جذورها من خراسان وما وراء النهر^(٣).

أدت سياسة السلاجقة التي تنطوى على التوسع إلى تذرر أهل نسا وبارود، وبعض أهل المناطق المحيطة بهم، فرفعوا شكواهم إلى السلطان محمود سنة ٤١٨ هـ من عدوان السلاجقة على بلادهم، فعهد السلطان محمود إلى أمير طوس بمحاربتهم، فدارت بينهم وبين هذا الأمير عدة معارك انتهى الأمر فيها بانتصار السلاجقة وهزيمة الجيش الغزنوي^(٤)، مما حمل أمير طوس إرسال الجاذب على أن يبعث برسالة إلى السلطان محمود يبين فيها مدى خطورة التركمان، وأنه لن يتيسر التغلب عليهم إلا إذا خرج إليهم السلطان بنفسه^(٥)، فاضطر السلطان إلى المسير إليهم على رأس جيش كبير سنة ٤١٩ هـ، ولما وصل وضع له أميرها حقيقة الحال فقوى عزمه على محاربتهم وإجلائهم عن البلاد التي استولوا عليها، وعند رباط فراوة^(٦) التقى الغزنويون بالسلاجقة، ودارت بين الفريقين معركة كبيرة انتصر فيها الغزنويون انتصاراً ساحقاً، حيث قتل من السلاجقة أربعة آلاف فارس من خيرة فرسان السلاجقة، وأسر عدد كبير

(١) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ١٥٣، ١٥٤.

(٢) انظر تاريخ البيهقي ص ٢٩٢.

(٣) انظر سلاجقة إيران والعراق ص ٢٥.

(٤) انظر راحة الصدور وآية السرور هامش ص ١٥٤، زين الأخبار ص ٢٧١، سلاجقة إيران والعراق ص ٢٦.

(٥) انظر راحة الصدور وآية السرور هامش ص ١٥٤.

(٦) رباط فراوة: بليدة من أعمال نسا بينها وبين دهستان وخوارزم. انظر معجم البلدان ٤/٢٤٥.

منهم، وفر الباقون إلى «بلخان» و«دهستان»^(١)،^(٢)، غير أن جغرى بك داود أبو سليمان، وطغرلبك أبو طالب محمد ولدى ميكائيل بن سلجوق^(٣)، استطاعا جمع السلاجقة بعد تفرقهم، وكونوا جيشاً قوياً، وانتهزا فرصة وفاة السلطان محمود في عام ٤٢١هـ، فحاولوا الأخذ بالثأر، وتوسيع رقعة الأراضي التي يحتلها السلاجقة، وأخذوا ينشران نفوذهما على الجهات المجاورة حتى شمل نفوذهما كثيراً من أنحاء خراسان^(٤).

لم يكتف جغرى بك وطغرلبك بما حققاه من نصر في خراسان، بل أرسلوا إلى حاكم مدينة «نيسابور»^(٥) «سورى بن المعتز» يطلبان منه أن يأذن للسلاجقة بالإقامة في أطراف هذه المدينة^(٦)، فرفض إجابة طلبهم، وكتب إلى السلطان مسعود بذلك، فعول السلطان على المسير إلى «نيسابور» سنة ٤٢٦هـ، وأعد جيشاً كبيراً عهد قيادته إلى عدد من أمرائه^(٧)، وسيره إلى حرب السلاجقة^(٨)، ثم دارت بين الفريقين معارك كثيرة انتهت بهزيمة جيش السلطان مسعود هزيمة منكرة، واستولى السلاجقة على ما قيمته عشرة ملايين من الدنانير، ومن الملابس والأسلحة والأمتعة والدواب ما لا

(١) دهستان: بلد مشهور في طرف مازندان قرب خوارزم وجرجان. المرجع السابق ٤٩٢/٢.

(٢) انظر راحة الصدور وآية السرور هامش ص ١٥٤، زين الأخبار ص ٢٧١، ٢٧٢.

(٣) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ١٥٤.

(٤) انظر سلاجقة إيران والعراق ص ٢٦.

(٥) نيسابور: مدينة عظيمة، ذات فضائل جسيمة، وأعظم مدن إيران وسميت إيران شهر، فتحت في

عهد عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقيل في عهد عمر بن الخطاب على يد الأحنف بن قيس.

انظر معجم البلدان ٣٣١/٥.

(٦) انظر تاريخ البيهقي ص ٥٠٣، ٥٠٤، راحة الصدور وآية السرور ص ١٥٤، ١٥٥.

(٧) كان عددهم عشرة من الأمراء على رأسهم حاجب بكتغدى، وكدخدای خواجه حسيني بن على

بن ميكائيل، وكانت جملة الجيش خمسة عشر ألف فارس مجهزين بتمام العدة، وألفى غلام من

الحراس. انظر تاريخ البيهقي ص ٥١٥، ٥١٦.

(٨) المرجع السابق ص ٥١٥، ٥١٦.

يحصى^(١)، اضطر السلطان مسعود بعد تلك الهزيمة التي لحقت بجيشه إلى عقد صلح معهم اعترف فيه بسيادتهم على «نسا» و«فرواة» و«دهستان»، ثم قفل راجعاً إلى بلاد الهند^(٢)، وكان السلاجقة قد أرسلوا كتباً^(٣) إلى السلطان مسعود على الرغم من النصر الذي حققوه على جيشه يلتمسون فيها العفو عنهم، وعقد صلحاً معهم يقربهم على ما بيدهم من البلاد، وبعد مفاوضات جرت بين السلاجقة والسلطان مسعود، وافق السلطان مسعود على طلب السلاجقة، واستقر الأمر في النهاية على أن تعطى لبيغو وطغرلبك وداود ولايات نسا وفرواة ودهستان، كما تعطى لكل واحد منهم خلعة ومنشور ولواء^(٤)، وتقرر أن

(١) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ١٥٥، ١٥٦، تاريخ البيهقي ص ٥٢٦ وما بعدها، الكامل في التاريخ ٩/٤٧٧، ٤٧٨.

(٢) انظر تاريخ البيهقي ص ٥٢٨، راحة الصدور وآية السرور ص ١٥٧، ١٥٦، أخبار الدولة السلجوقية ص ٩-١٢.

(٣) جاء في الرسالة التي حملها رسول السلاجقة إلى السلطان مسعود: «وقد أخطأنا في اختيار سورى للوساطة والشفاعة عن السلطان، فإنه متهور ولا يرضى المصلحة في عواقب الأمور، وانتهى الأمر إلى أن سير السلطان إلينا جيشاً، ومعاذ الله ما كنا نجرؤ على امتشاق الحسام في وجه الجيش المنصور، لولا أنهم انقضوا على دورنا كما تنقض الذئب على الحملان، واعتدوا على نساتنا وأطفالنا مع أننا حاصلين على الأمان، فلم نجد بداً من أن ندافع عن أنفسنا، والنفوس عزيزة، وإننا نؤكد ما ذكرنا أول الأمر، وكل ما حدث لم يكن إلا من قبيل عين حاسدة أصابت الجيش المنصور على الرغم منا، ولما كان الأستاذ الرئيس سابقة معرفتنا في خوارزم أثناء حكم خوارزمشاه ألتونتاش، وله بنا صلة أكل الخبز والملح معاً فجدير به أن يتفضل بالوساطة والشفاعة لنا عند السلطان، فيستعطف قلبه ليحنو علينا ويقبل أذارنا ويعيد رسولنا موقفاً مكرماً لتطمئن بذلك قلوبنا، وأفضل من هذا أن يوفد الأستاذ الرئيس إلينا أحد تقاته مع هذا الرسول ليسمع أقوالنا ويتأكد من عبوديتنا وإخلاصنا وبأننا لا نبيغى غير السلم». انظر تاريخ البيهقي ص ٥٢٥، ٥٢٦.

(٤) تشمل الخلع قلنسوة ذات ركنين ولواء، وحلة مطرزة وجواداً وسرجاً، وكمر من ذهب يرسم التركمان، وثلاثين ثوباً غير مخبطة. انظر تاريخ البيهقي ص ٥٢٨.

يذهب أبو نصر العيني^(١) بنفسه ليسلم الخلع، ويأخذ عليهم الميثاق بالوفاء بالعهد للسلطان مسعود، على أن يكتفوا بهذه الولايات الثلاث^(٢)، وبعد أن يصل إلى بلخ، ويطمئنوا إلى عطفه يأتي أحد هؤلاء الثلاثة إلى الدركاه^(٣) ليكون في خدمة السلطان مسعود^(٤)، واضطر السلطان مسعود إلى الذهاب إلى بلاد الهند، وفي هذه الأثناء أخذ أمر السلاجقة يعلو بمرور الأيام فاشتد بأسهم، وازدادت قوتهم، ولاحت عليهم أمارات الملك، وعلامات الحكم ومخايل السلطان^(٥)، وفي سنة ٤٢٩ هـ عاد السلطان مسعود من بلاد الهند إلى غزنة، ولما علم بارتفاع شأن السلاجقة وقوة شوكتهم أرسل رسولاً إلى أمير خراسان برسالة يأمره فيها بوجوب محاربة السلاجقة وإخراجهم من خراسان، غير أن أمير خراسان أجاب على رسالة السلطان مسعود بقوله: «إن أمر السلاجقة قد علا بحيث لا أستطيع أنا ولا غيري أن نقاومهم»^(٦)، وظن السلطان مسعود أن أمير خراسان يتهرب من الأمر، أو أنه يمهّد الأمور لنفسه حتى إذا جد جديد استغل الموقف لصالحه، فشدّد عليه الأمر، فاضطر أمير خراسان إلى الخروج لإجلاء السلاجقة عن منازلهم، وفي آخر شعبان سنة ٤٢٩ هـ التقى جيش مسعود الذي يقوده أمير خراسان على باب مدينة «سرخس»^(٧)، ودارت بين الفريقين معركة كبيرة انتهت

(١) القاضي أبو نصر العيني كان من دهاة الرجال، وكان يجمع إلى قليل من الفضل حسن التدبير والحيلة والمكر، وكان أبوه مؤدباً للسلطان محمود الغزنوي، وكانت منزلته قوية عنده، ففوض إليه الإشراف على البلاط، ولما تولى السلطان مسعود أبقاه في مكانه. المرجع السابق ص ٥٢٦، ٥٢٧.

(٢) المرجع السابق ص ٥٢٨.

(٣) الدركاه: بلاط السلطان مسعود.

(٤) انظر تاريخ البيهقي ص ٥٢٨.

(٥) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ١٥٦، ١٥٧.

(٦) المرجع السابق ص ١٥٧.

(٧) سرخس: مدينة قديمة من نواحي خراسان. انظر معجم البلدان ٥/٢٥٨.

بانتصار السلاجقة^(١)، فكان لهذا النصر الذي أحرزه السلاجقة أثر كبير في قيام دولتهم، فملك السلجوقية بعدها خراسان، ودخل طغرلبيك نيسابور بعد أن منح أهلها الأمان، وجلس على عرش السلطان مسعود، وأمر أن تقرأ الخطبة باسمه على منابر المدينة^(٢).

النظرة الدعوية لما حدث بين الغزنويين والسلاجقة:

إذا أردنا أن نضع ما حدث بين الغزنويين والسلاجقة تحت دائرة التحليل الدعوى، فلا بد أن نذكر أولاً سبب القتال بين الغزنويين والسلاجقة، وأول هذه الأسباب من خلال ما ذكرت من أحداث هي:

(١) الغدر^(٣): لأن السلطان محمود الغزنوي عندما طلب من السلاجقة الحضور إليه، ذهبوا إليه واثقين بما جاء في الرسالة التي بعث بها إليهم اعتماداً منهم على الوفاء الإسلامي، ولكن التصرف الذي صدر منه بأن أمر بالقبض على إسرائيل ومن معه كان هو الشرارة التي أجمت نار العداوة بين الغزنويين والسلاجقة.

(٢) يتضح من الأحداث التي مرت أن إسرائيل بن سلجوق أتى بجيشه لكي يعاون به السلطان محمود في جهاده في بلاد الهند، ولم يكن في نيته قتال، ويدل على ذلك قول السلطان محمود نفسه: «لسنا الآن في حاجة إلى الاستمداد

(١) انظر تاريخ البيهقي ص ٥٧٩ - ٥٩٢، راحة الصدور وآية السرور ص ١٥٨، الكامل في التاريخ ٤٨٠/٩، ٤٨١، أخبار الدولة السلجوقية ص ٩.

(٢) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ١٥٨، تاريخ البيهقي ص ٦٠٠ - ٦٠٤، الكامل في التاريخ ٤٨٠/٩، ٤٨١.

(٣) والغدر كما نعرف جميعاً محرم في شريعة الإسلام، وقد أوردت ترجمة للسلطان محمود فيها من فضائله وصفاته الكريمة الشيء الكثير، وأنا أحيل القارئ الكريم إليها. (الرسالة ص ٣٥)، وما ذكرته من هذه الصفة تمثل في موقف معين له أخذ عليه، وكل إنسان له ما له، وعليه ما عليه، وكفى بالمرء نبلاً أن تعد معايبه، ولا معصوم إلا سيد الخلق سيدنا محمد ﷺ.

بجيشك»^(١)، ومقصود الكلام فيه دلالة على أن غرض السلاجقة لم يكن قتالاً أو حرباً، وإنما المعونة والمساعدة للسلطان محمود في جهاده، وجاء ذلك على لسان السلطان محمود نفسه.

(٣) أن السلطان محمود هو الذى بدأ بالعدوان عليهم عندما عهد لعامله على مدينة طوس بمحاربتهم، بل إنه خرج لمحاربتهم بنفسه سنة ٤١٩هـ، وحقق انتصاراً كبيراً عليهم، وقتل كثيراً من خيرة فرسانهم، وكانوا دائماً في موقف المدافع عن النفس والمال.

وهكذا يبدو جلياً أن السلاجقة كانوا دائماً في موقف المدافع، وأن الغزنويين هم الذين بدأوا بالقتال، ولو أحسن السلطان محمود النية واستعان بهم في فتوحاتهم في الهند لعم الخير على الإسلام والمسلمين، ولكن شاء الله أن تترث الدولة السلجوقية الدولة الغزنوية في ممتلكاتها في خراسان وما حولها، وهذه هي سنة الله تعالى في الكون أن تقوم دولة وتنهض على حساب دولة أخرى.

إبداء الرأي في الحروب التي دارت بين الغزنويين والسلاجقة :

لقد دارت عدة معارك بين الغزنويين والسلاجقة، وسقط فيها الكثير من القتلى من الجانبين، فهل شريعة الإسلام تجيز ذلك؟

إن حفظ النفس من الأمور الخمسة التي أمر الإسلام بحفظها وهى النفس والمال والدين والعقل والعرض.

ولذا فإن قتل النفس بغير حق، جعله الله تعالى اعتداء على الناس جميعاً، قال الله تعالى: ﴿مَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ

(١) انظر راحة الصدور ص ١٤٨.

جَاءَ نَهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿١﴾.

بل إن الحق جل وعلا جعل قتل النفس من أكبر الكبائر التي تلى الشرك، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزُنُوتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ (٢).

وقد توعد الله سبحانه وتعالى قاتل النفس المتعمد بالخلود في جهنم وبالغضب واللعنة والعذاب العظيم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَتْهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (٣).

وغير ذلك من الآيات التي تحرم قتل النفس إلا بالحق.

وقد وضحت السنة النبوية المطهرة أيضاً أن قتل النفس لا يحل إلا في أمور ثلاثة: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة.

لقوله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث الثيب الزان، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة» (٤).

ولم تتحقق هذه الأمور الثلاثة لا في الغزنويين ولا في السلاجقة.

وعليه: فإن ما حدث بين هؤلاء وهؤلاء، أمر يرفضه الشرع ولا يقره، ولكن المتبادر من الأحداث أن كل منهما كان يظن نفسه على حق، فالغزنويين يرون أن من حقهم الحفاظ على دولتهم، والسلاجقة وقفوا موقف المدافع عن النفس والمال ضد

(١) سورة المائدة الآية ٣٢.

(٢) سورة الفرقان الآية ٦٨.

(٣) سورة النساء الآية ٩٣.

(٤) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ٣/٣٠٢، ٣٠٣، كتاب القسامة، باب ما يباح به دم المسلم، ح

محاولات الغزنويين القضاء عليهم^(١)، والأمر في النهاية لله عز وجل هو الذى سيفصل بين الجميع يوم القيامة.



(١) لعل من أهم الأسباب التي أدت إلى الشقاق والتنازع بين الغزنويين والسلاجقة هو البعد عن منهج الله تعالى، ولو احتكم الاثنان إلى كتاب الله -عز وجل- كما جاء في قوله -سبحانه-: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ - النساء: (٥٩) - لعم الخير والأمن هذه المنطقة في تلك الحقبة من فترات التاريخ، ولعاد ذلك بالنفع للإسلام والمسلمين.

المبحث الثاني

ظهور الدولة السلجوقية على مسرح الأحداث

العصر السلجوقي الأول (٤٢٩-٤٨٥هـ)

تعد سنة ٤٢٩هـ بدء قيام الدولة السلجوقية من الناحية العملية، فقد دخل طغرلبيك نيسابور وجلس على عرش السلطان مسعود، وأمر أن يخطب له على المنابر باسم السلطان الأعظم^(١)، كما أمر أن تضرب النقود باسمه في البلاد التي كانت بأيدي السلاجقة^(٢)، أما من الناحية النظرية فقد كان السلطان السلجوقي - في هذا الوقت - بحاجة إلى تفويض شرعي من الخليفة العباسي لحكم البلاد ليكسب صفة شرعية أمام المسلمين، ولما بلغ السلطان مسعود خبر قيام الدولة السلجوقية، وتلقب طغرلبيك بلقب السلطان الأعظم، عزم على محاربة السلاجقة والقضاء على دولتهم الجديدة^(٣)، فأعد جيشاً ضخماً^(٤) سار به نحو خراسان، وبعد معارك كثيرة بينه وبين السلاجقة كان آخرها في داندانقان^(٥)،^(٦) (٨ رمضان ٤٣١هـ) اندحرت فيها قوات السلطان مسعود

(١) وكان جغرى بك قد خطب له في مرو أول جمعة في رجب سنة ٤٢٨هـ، ولقب في الخطبة بملك الملوك. انظر الكامل في التاريخ ٩/٤٨٠.

(٢) انظر تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ١٢٣، سلاجقة إيران والعراق ص ٢٨.

(٣) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ١٦٢، تاريخ البيهقي ص ٦٠٥-٦٠٧.

(٤) كانت عدة هذا الجيش خمسين ألف فارس ورجال وثلاثمائة فيل. المرجع السابق ص ٦٠٥-٦٠٧.

(٥) بلدة من نواحي مرو الشاهنجاه على عشرة فراسخ منها في الصحراء وتقع بين سرخس ومرو. انظر معجم البلدان ٢/٤٧٧، راحة الصدور وآية السرور ص ١٦٣.

(٦) يصف البيهقي هذه المعركة بقوله: «... وانتال السلاجقة على الجيش الغزنوي من حافة الصحراء عن يمين وشمال، فاشتبكوا بالجيش الغزنوي، واشتدت المعركة كانوا حين يهجمون من كل جانب يقابلهم الجيش الغزنوي بدفاع اليائس المتخاذل، ثم يضيف قائلاً: «وكنا =

واضطر إلى العودة إلى غزنة، وأخذ السلاجقة يتتبعون جيشه المهزوم ويوقعون به، ويغنمون منه ما لا حصر له من الأسرى والأموال والسلاح والدواب^(١).

نتائج معركة دندانقان:

- (١) وضعت تلك المعركة حداً نهائياً لحكم الغزنويين في خراسان، ونصب طغرلبيك التخت في مكان المعركة وجلس عليه، وجاء الأعيان يسلمون عليه بإمارة خراسان.
- (٢) حرر طغرلبيك الرسائل إلى الأمراء المجاورين لإعلامهم بخبر الانتصار.
- (٣) طاربت القوات السلجوقية القوات الغزنوية المنهزمة حتى شواطئ نهر جيحون بهدف قسرهم على الهروب إلى ما وراء النهر، حتى يقدموا برهاناً ملموساً على النصر.
- (٤) أتاحت المعركة قيام سلطنة إسلامية جديدة، وانحسار ظل واحدة، كما تعد إحدى المعارك الكبرى الفاصلة في التاريخ الإسلامي، بل إن نتائجها تعدت العالم الإسلامي وأثرت على عالم العصور الوسطى^(٢).
- (٥) أخذ السلاجقة بعد هذا النصر الذي أحرزوه في دندانقان يتحدون لإرساء قواعد دولتهم، فاجتمع جغرى بك وطغرلبيك مع عمهما موسى بن سلجوق وكبار قومهم

= نحارب مضطرين، مما زاد من جرأة خصومنا، وكان الغلمان يتقاعسون عن واجباتهم، وأما الفرسان فكانوا كالمترجمين لا يحركون ساكناً، وجيش السلاجقة يزداد قوة ساعة بعد أخرى بقدر ما يزداد الغزنويون فتوراً، ويختم بقوله: وكان القيامة قد قامت» انظر تاريخ البيهقي ص ٦٨٤-٦٨٥.

(١) انظر تاريخ البيهقي ص ٦٦٣-٦٩٥، راحة الصدور وآية السرور ص ١٦٣، ١٦٤، أخبار الدولة السلجوقية ص ١١، ١٢، الكامل في التاريخ ٩/٤٨٢، ٤٨٣، المختصر في أخبار البشر ١/٥٤٧، ٥١٨.

(٢) انظر سلاجقة الروم في آسيا الوسطى ص ٢٩.

وقواد جنودهم وتعاهدوا على الاتحاد والتعاون فيما بينهم^(١).
ثم أكدوا اتفاقهم على تعيين طغرلبك قائداً أعلى لجيوشهم، وسلطاناً على دولتهم، على الرغم من أن جغرى بك كان يكبره سناً، إلا أن طغرلبك كان يتمتع بشخصية قوية، وذكاء حاد، وشجاعة فائقة، وتدين ملحوظ، فأدت هذه الصفات جميعها إلى التقاف الجند والقبائل حوله وإسلامهم القيادة له^(٢).

(٦) قسم السلاجقة الولايات التي استولوا عليها، فاتخذ جغرى بك - وكان أكبر الإخوة - مدينة «مرو» داراً لملكه، واختص بأكثر خراسان، وتقلد موسى ولاية «بست»^(٣) و«هراة» و«سجستان» وما يجاور ذلك من النواحي التي يستطيع فتحها، وولى «قاورد» وهو أكبر أبناء جغرى بك ولاية «الطبيين»^(٤) ونواحي «كرمان»^(٥)، وعين إبراهيم ينال وهو أخوه من أمه والياً على «قهبستان» و«جرجان»، كما ولى أبا على الحسن بن موسى بن سلجوق «بوشنج» و«بلاد الغور» وبعض بلاد أبيه في «هراة» و«سجستان»^(٦).

ولما تم توزيع الولايات على أفراد البيت السلجوقي عزم السلاجقة على الاتصال

(١) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ١٦٥، ومما قاله طغرلبك في هذا الاجتماع: فإذا نشأ خلاف بيننا لم يتيسر لنا فتح العالم، وتغلب علينا الأعداء وذهب الملك من أيدينا. المرجع نفسه.

(٢) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ١٦٠-١٦٧، سلاجقة إيران والعراق ص ٣١، ٣٢.

(٣) بست: مدينة بين سجستان وغزنة وهراة، من أعمال كابل، كثيرة الأنهار والبساتين. انظر معجم البلدان ١/٤١٤، ٥١٥.

(٤) الطبيسين: قسبة ناحية بين نيسابور وأصفهان تسمى قهبستان قان، وهما بلداتان كل واحدة منهما يقال لها طيبس إحداهما طيبس العناب والأخرى طيبس التمر، وهما أصغر من قابين. المرجع السابق ٤/٢٠، المسالك والممالك ص ١٥٤.

(٥) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ١٦٧.

(٦) انظر تاريخ دولة آل سلجوق ص ٨، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٥/٣٢.

بالخليفة القائم بأمر الله العباسي، وكان غرضهم من ذلك اعتراف الخليفة العباسي بقيام دولتهم ليكتسب حكمهم صفة الشرعية، فأنفذوا في سنة ٤٣٢ هـ إلى القائم بأمر الله رسالة حملها رسولهم المعتمد أبو إسحاق الفقاعي^(١) يقولون فيها: إننا معشر آل سلجوق قوم أطعنا دائماً الحاضرة النبوية المقدسة وأحببناها من صميم قلوبنا، ولقد اجتهدنا دائماً في غزو الكفار وإعلان الجهاد، وداومنا على زيارة الكعبة المقدسة، وكان لنا عمّ مقدم محترم بيننا اسمه إسرائيل بن سلجوق، قبض عليه يمين الدولة محمود بن سبكتكين بغير جرم أو جناية، وأرسله إلى قلعة كالجرجر ببلاد الهند، فبقي في أسره سبع سنوات حتى مات، واحتجز كذلك في القلاع الأخرى كثيراً من أهلنا وأقاربنا، فلما مات محمود، وجلس في مكانه ابنه مسعود لم يقم على مصالح الرعية وانشغل باللهو والطرب، فلا جرم إذا طلب منا أعيان خراسان ومشاهيرها على حمايتهم ولكن مسعوداً وجه إلينا جيشه ف وقعت بيننا وبينه معارك تناوبناها بين كر وفر وهزيمة وظفر، حتى ابتسم لنا الحظ الحسن فانحاز إلينا آخر عون لمسعود ومعه جيش جرار وظفرنا بالغلبة بمعونة الله عز وجل بفضل إقبالنا على الحاضرة النبوية المقدسة المطهرة، وانكسر مسعود وأصبح ذليلاً، وانكفأ علمه وولى الأدبار تاركاً لنا الدولة والإقبال، وشكراً لله على ما أفاء علينا من فتح ونصر، فنشرنا عدلنا وإنصافنا على العباد وابتعدنا عن طريق الظلم والجور والفساد، ونحن نرجو أن نكون في هذا الأمر قد نهجنا وفقاً لتعاليم الدين ولأمر أمير المؤمنين^(٢).

وصلت رسالة السلاجقة إلى دار الخلافة، وسر بها الخليفة، وبادر بإرسال رسول إلى السلاجقة هو أبو الحسن الماوردي^(٣)، إلى مدينة الري وطلب منه أن يتقرب من

(١) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ١٦٦، ١٦٧، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٧، ٨.

(٢) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ١٦٦، ١٦٧.

(٣) الماوردي (٣٦٤ - ٤٥٠ هـ = ٩٧٤ - ١٠٥٨ م): علي بن محمد حبيب، أبو الحسن الماوردي: أفضى فضاء عصره، من العلماء الباحثين، أصحاب التصانيف الكثيرة النافعة، =

طغرلبيك حتى يحضره إلى بغداد لتتشرف دار الخلافة بحضوره، وأن يقرر الصلح بين طغرلبيك وبين الأمير البويهى أبى كالجار^(١).

عاد الماوردي إلى بغداد سنة ٤٣٦ هـ وأخبر عن طاعة طغرلبيك للخليفة وتعظيمه لأوامره ووقوفه عندها^(٢)، وأرسل السلطان طغرلبيك إلى الخليفة رسولاً يحمل جواباً عن رسالة الخليفة إليه، وشكراً لإنعام الخليفة عليه بالخلع والألقاب، وأرسل معه إلى الخليفة عشرة آلاف دينار عيناً، وأغلاقاً نفيسة من الجواهر والثياب والطيب، وغير ذلك، وأرسل خمسة آلاف دينار للحاشية، وألفى دينار لرئيس الرؤساء^(٣)، كان لاعتراف الخليفة العباسي بقيام دولة السلاجقة أثر كبير في تقرب السلاجقة من الخلافة العباسية، فأخذت العلاقات بين طغرلبيك وبين الخليفة العباسي القائم بأمر الله تتوطد على مر الأيام، كما كان لهذا الاعتراف أثر كبير في اكتمال الكيان الشرعي

= ولد في البصرة وانتقل إلى بغداد، وولي القضاء في بلدان كثيرة، ثم جعل أفضى القضاة في أيام القائم بأمر الله العباسي، وكان يميل إلى مذهب الاعتزال، وله المكانة الرفيعة عند الخلفاء، وربما توسط بينهم وبين الملوك وكبار الأمراء في ما يصلح به خلافاً أو يزيل خلافاً، نسبته إلى بيع ماء الورد، ووفاته ببغداد، من كتبه: أدب الدنيا والدين، الأحكام السلطانية، والنكت والعيون، الحاوى، نصيحة الملوك، تسهيل النظر في سياسة الحكومات، وقد أثنى العلماء والفقهاء والمؤرخون على أبى الحسن الماوردي الفقيه العالم يقول فيه الخطيب البغدادي: كان من وجوه الفقهاء الشافعيين وله تصانيف عده في الفقه وغيره وكان ثقة، توفى ببغداد سنة ١٠٥٨/٥٤٥٠ م عن ٨٦ سنة ودفن بباب حرب وحضر جنازته القاضي أبو الطيب وكثير من العلماء والرؤساء. انظر ترجمته في: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٣/٢٨٢ - ٢٨٤، وإن كان الراوندى والبندارى يذكران أن رسول الخليفة إلى السلاجقة هو «هبة الله بن محمد المأمون» القاضي الهاشمي لأنه كان يختص هبة الله بوده وإخلاصه. انظر راحة الصدور وآية السرور ص ١٦٨، ١٦٩، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٨، ٩.

(١) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ١٦٨، ١٦٩، الكامل في التاريخ ٩/٥٢٢.

(٢) انظر الكامل في التاريخ ٩/٥٢٢.

(٣) المرجع السابق ٩/٥٨٠.

لدولة السلاجقة أمام المسلمين الخاضعين لسلطتهم في المشرق^(١).
وهكذا قامت الدولة السلجوقية وأصبح لها جيش منظم، واعترف بها الخليفة
العباسي.



(١) انظر تاريخ العراق والمشرق الإسلامي خلال العصر السلجوقي: د/محمد محمود إدريس، ط
مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة سنة ١٩٨٥م، ص ٩٥.

المبحث الثالث

التعريف بسلاطين الدولة السلجوقية

أولاً: السلطان طغرلبيك:

١ - اسمه ولقبه:

من خلال ما ورد في كتب التاريخ الإسلامي نجد أن اسم مؤسس الدولة السلجوقية هو محمد بن ميكائيل بن سلجوق.

أما لقبه: فكان يلقب بركن الدين طغرلبيك^(١)،^(٢).

٢ - صفاته الخُلقية:

لقد اتسم طغرلبيك بصفات جليلة ونبيلة تنم عن رقة الشمائل وكرم في السجايا، وكلها صفات يحبها الله تعالى ويرتضيها.

فقد كان طغرلبيك: عاقلاً حليماً من أشد الناس احتمالاً، وأكثرهم كتماناً لسره، وكان محافظاً على الطاعة، وصلاة الجماعة، وصوم الاثنين والخميس، وكان لبسه

(١) طغرلبيك: بضم الطاء المهملة، وسكون الغين المعجمة، وضم الراء، وسكون اللام، وفتح الموحدة، وبعدها كاف، هو اسم تركي مركب من طغرل: بلغة الترك اسم علم لطائر معروف عندهم، وبه سمي الرجل، وبك: معناه أمير. انظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٢٣٤/٥، والسلطان طغرلبيك غير أرطغرل والد مؤسس الدولة العثمانية عثمان بن أرطغرل حيث كان وفاة أرطغرل في سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م.

انظر د/محمد على الصلابي: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ص ٤٤، ط دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة الأولى سنة ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء ١٠٧/١٨، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٨٤/١٦، البداية والنهاية ٩٠/١٢، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٢٣٢/٥، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٧٤/٥.

الثياب البيضاء^(١).

كما كان كثير الصدقات، حريصاً على بناء المساجد، متعبداً متهجداً، وكان يقول: أستحي من الله تعالى أن أبني داراً ولا أبني بجانبها مسجداً، وكما كان لا يرى القتل ولا يسفك دماً، ولا يهتك محرماً^(٢).

فمن المواقف التي تدل على حلمه: حكى عنه أفضى القضاة الماوردي قال: لما أرسلني القائم بأمر الله إليه سنة ٤٣٣ هـ كتبت كتاباً إلى «بغداد» أذكر فيه سيرته وخراب بلاده، وأطعن عليه بكل وجه، فوقع الكتاب من غلامى، فحمل إليه فوقف عليه وكنمه، ولم يحدثنى فيه بشئ، ولا تغير عما كان عليه من إكرامى^(٣).

ومما يدل على كرمه: أن أخاه إبراهيم ينال لما غزا بلاد الروم، أسر بعض ملوكهم، فبذل في نفسه أربعمئة ألف دينار، فلم يقبل إبراهيم منه، وحمله إلى طغرلبيك، فأرسل ملك الروم إلى نصر الدولة بن مروان حتى خاطب طغرلبيك في فكاكه، فلما سمع طغرلبيك رسالته، أرسل الرومى إلى ابن مروان بغير فداء، وسير معه رجلاً علوياً، فأنفذ ملك الروم إلى طغرلبيك من الهدايا الشئ الكثير، وعمر مسجد القسطنطينية، وأشاع المهادنة^(٤).

٣ - توليه السلطنة ومدة ملكه :

تعد سنة ٤٢٩ هـ بداية تولي طغرلبيك السلطنة، ففيها جلس على سرير الملك، وصار يقعد للمظالم يومين في الأسبوع^(٥)، وكانت مدة ملكه ستاً وعشرين سنة^(٦).

(١) انظر الكامل في التاريخ ٢٨/١٠، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٦، أخبار الدولة السلجوقية ص ٢٢، ٢٣.

(٢) انظر تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٦، أخبار الدولة السلجوقية ص ٢٢، ٢٣.

(٣) انظر الكامل في التاريخ ٢٨/١٠، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٦.

(٤) انظر الكامل في التاريخ ٢٨/١٠، سير أعلام النبلاء ١١١/١٨.

(٥) انظر الكامل في التاريخ ٤٥٩/٩.

(٦) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ١٦٠.

٤ - وزراءه :

أما عن وزراءه: فقد استوزر للسلطان طغرلبيك:

- (١) أبا القاسم على بن عبد الله الجويني: وهو أول وزير وزر له.
- (٢) رئيس الرؤساء أبو عبد الله الحسين بن علي بن ميكائيل.
- (٣) نظام الملك أبو محمد الحسن بن محمد الدهستاني: وهو أول من تلقب بنظام الملك.
- (٤) عميد الملك الكندري: وهو أشهرهم، وإنما اشتهر لأن طغرلبيك في أيامه عظمت دولته، ووصل إلى العراق وخطب له بالسلطنة.

٥ - توسعات الدولة في عهده:

بعد انتصار السلاجقة على الغزنويين في معركة داندانقان سنة ٤٣١هـ^(١)، شرعوا في إرساء قواعد دولتهم وتدعيمها، فاجتمع جغرى بك وطغرلبيك مع عمهما موسى بن سلجوق ومع أبناء أعمامهم وكبار قومهم وقواد جنودهم وتعاهدوا على الاتحاد والتعاون فيما بينهم^(٢)، كما تعاهدوا على أن يدينوا بالولاء والملك لطغرلبيك وعلى تعيينه قائداً أعلى لجيوشهم^(٣)، كما قسم السلاجقة الولايات التي تحت أيديهم وعينوا على كل ناحية واحداً من كبار قوادهم^(٤)، وجعلوا له الحرية المطلقة في حكمها وفي فتح الأقاليم المجاورة لها دون أن يتعدى على غيره من أفراد أسرته^(٥).

لم يكتف السلاجقة بما ظفروا به من نصر في تثبيت دعائم دولتهم، بل واصلوا توسعهم على حساب الإمارات المجاورة، واستطاعوا في فترة وجيزة لا تزيد عن بضع

(١) انظر الكامل في التاريخ ٩/٤٨٢، ٤٨٣.

(٢) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ١٦٥.

(٣) انظر سلاجقة إيران والعراق ص ٣١، ٣٢.

(٤) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ١٦٧.

(٥) انظر سلاجقة إيران والعراق ص ٣٤.

سنوات أن يزيلوا عدداً منها، ويبسطوا سلطانهم على كثير من الأقاليم الشرقية والوسطى والغربية لفارس^(١).

ففي سنة ٤٣٣ هـ ملك طغرلبك «جرجان» و«طبرستان»، وكان يتولى حكمها أنوشروان بن منوجهر، وقضى على الدولة الزيارية، وتعهد أنوشروان بدفع جزية سنوية قدرها ثلاثون ألف دينار وأقيمت الخطبة لطغرلبك في البلاد كلها^(٢).

وفي سنة ٤٣٤ هـ سار طغرلبك إلى «خوارزم»^(٣) فاستولى عليها بعد حصارها، وكان يتولى حكمها من قبل الغزنويين «شاه ملك»، الذي فر إلى «دهستان»، ثم انتقل عنها إلى «طبس»، ثم إلى أطراف «كرمان»، ثم إلى أعمال «التيز» و«مكران»، لكن «أرتاش» ابن عم طغرلبك لحق به، وتمكن من أسره، وبهذا دخلت «خوارزم» في حوزة السلاجقة^(٤).

وفي الوقت الذي استولى فيه طغرلبك على «خوارزم» سار إبراهيم ينال - أخو طغرلبك - لأمه إلى «همدان»، فاستولى عليها من صاحبها «أبو كاليجار كرشاسف بن علاء الدولة»، ففارقها إلى «سابور خواست»، فسار إبراهيم ينال إليها وتمكن من دخولها بعد حصارها، ولما سمع بقدوم طغرلبك إلى «الري» أتاه، وتسلم طغرلبك «الري» منه وأمر بعمارتها، وكانت قد خربت، وتسلم غيرها من «بلد الجبل».

وأخذ طغرلبك قلعة «طبرك» من مجد الدولة بن بويه، ثم سار إلى «قزوين»^(٥).

(١) انظر تاريخ العراق والمشرق الإسلامي خلال العصر السلجوقي الأول ص ١٣٢.

(٢) انظر الكامل في التاريخ ٩/٤٩٦، ٤٩٧، تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٢٣١.

(٣) خوارزم: ناحية واسعة في الشرق، عاصمتها الجرجانية، ويسميا أهلها كركانج، سكانها من أصل تركي، وهي ذات خيرات، ونهرها جيحون، ويصب في بحيرة تحمل إسمها، مناخها قاس شديد البرودة في الشتاء. انظر معجم البلدان ٢/٣٩٥، ٣٩٨.

(٤) انظر الكامل في التاريخ ٩/٥٠٤-٥٠٦، تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٢٣١، ٢٣٢.

(٥) قزوين: مدينة مشهورة، تبعد عن الري سبعة وعشرون فرسخاً، وتبعد عن أبهر اثنا عشر فرسخاً. انظر معجم البلدان ٧/٤٦.

فاستولى عليها وصالح أهلها على ثمانين ألف دينار، ودخل صاحبها في طاعته، وأرسل طغرلبيك إلى ملك الديلم يدعوه إلى الطاعة ويطلب منه مالاً، ففعل ذلك، وحمل إليه مالاً وعروضاً، وأرسل أيضاً إلى سلار الطرم يدعوه إلى خدمته، ويطلبه بحمل مائتي ألف دينار، فاستقر الحال بينهما على الطاعة وشئ من المال، كما استولى على «أبهر»^(١)، «زنجان»^(٢).

وسير طغرلبيك طائفة من أصحابه إلى «كرمان»^(٣)، مع أخيه إبراهيم ينال إلا أن أبا كاليجار البويهى سير إليهم عساكر كثيرة تمكنت من صد السلاجقة عنها^(٤).

وعلى الرغم من السلاجقة تمكنوا من إخضاع هذه الأقاليم بحد السيف إلا أن سلطانهم على هذه الأقاليم لم يكن مستقراً تماماً بسبب تغير ولاء حكامها، ففي سنة ٤٣٧ هـ أمر طغرلبيك أخاه إبراهيم ينال بالمسير إلى بلاد الجبل وهمذان التي خرجت على طاعة السلطان السلجوقي^(٥)، فسار إليها ينال، فاستولى على «همذان» وأخذها من «كرشاسف بن علاء الدولة ابن كاكويه»، واستولى على «الدينور»^(٦)، وأخذها من «أبى الشوك»^(٧)، كما استولى على «قرميسين»^(٨)،

(١) أبهر: مدينة مشهورة بين قزوين وزنجان وهمذان من نواحي إقليم الجبال، وأبهر: مركبة من

مقطعين أب: يعنى الماء، وهر بمعنى الرحا، يعنى ماء الرحا. انظر معجم البلدان ١/٧٥.

(٢) زنجان: بلد كبير مشهور من نواحي الجبال بين أذربيجان، قريبة من أبهر وقزوين. المرجع السابق ٣/١٥٢.

(٣) كرمان: ولاية مشهورة وناحية معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان. المرجع السابق ٧/١٣٢.

(٤) انظر الكامل في التاريخ ٩/٥٠٦، ٥١١، تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٢٣٢، ٢٣٣.

(٥) انظر الكامل في التاريخ ٩/٥٢٨، تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٢٣٣.

(٦) الدينور: مدينة من أعمال الجبل قرب قرميسين، بينها وبين همذان نيف وعشرين فرسخاً. انظر معجم البلدان ٢/٥٤٥.

(٧) انظر الكامل في التاريخ ٩/٥٢٨، المختصر في أخبار البشر ١/٥٢٢.

(٨) قرميسين: بلد معروف بينه وبين همذان ثلاثون فرسخاً قرب الدينور وهى بين همذان وحلوان. انظر معجم البلدان ٤/٣٣٠، ٣٣١.

و«حلوان»^(١)، ودخلت جيوشه مدينة «خانقين»^(٢)،^(٣)، وبذلك امتد نفوذ السلاجقة إلى الأقسام الغربية والوسطى والشرقية من إيران^(٤).

وفى سنة ٤٤١ هـ حدث ما شغل طغرلبك عن بسط نفوذه على بقية إيران، حيث بلغه أن أخاه إبراهيم ينال الذى عينه على بلاد الجبل وهمذان خرج على طاعته، فأرسل إليه يطلب منه تسليم القلاع التي بيده، فامتنع ينال عن ذلك، فاضطر طغرلبك إلى الخروج لقتاله، ودارت بين الأخوين معارك شديدة انتهت باستسلام إبراهيم ينال لأخيه الذى عفا عنه وأحسن إليه ورد عليه كثيراً مما أخذ منه^(٥).

وأرسل طغرلبك في نفس السنة إلى نصر الدولة بن مروان حاكم ديار بكر^(٦) يطلب منه إقامة الخطبة له في بلاده، فأجابته إلى ذلك^(٧)، وفى سنة ٤٤٢ هـ سار طغرلبك إلى أصفهان قاصداً الاستيلاء عليها، وكان يحكمها وقتذاك أحد أمراء آل كاكويه^(٨)، وبعد حصار طويل دام عاماً تمكن طغرلبك من ضمها إلى حوزته في المحرم سنة ٤٤٣ هـ، وقضى على حكم آل كاكويه، واتخذ طغرلبك هذه المدينة مقراً

(١) حلوان: بلدة في آخر حدود السواد مما يلى الجبال من بغداد، وقيل إنها سميت بحلوان بن عمران بن الحاف بن قضاة كان بعض الملوك أقطعها إياها، فسمين به وهى تقع بين همذان وبغداد. المرجع السابق ٢/٢٩٠، آثار البلاد وأخبار العباد ص ٣٥٧.

(٢) خانقين: بلدة من نواحي السواد في طريق همذان من بغداد. انظر معجم البلدان ٢/٣٤٠، ٣٤١.

(٣) انظر الكامل في التاريخ ٩/٥٢٨، ٥٢٩، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٥/٤٣.

(٤) انظر تاريخ العراق والمشرق الإسلامي خلال العصر السجوقى الأول ص ١٣٥.

(٥) انظر الكامل في التاريخ ٩/٥٥٦، ٥٥٧.

(٦) ديار بكر: ديار واسعة كبيرة تتسب إلى بكر بن وائل بن قاسط، تقع غرب نهر دجلة قريبة من حصن كيفا وآمد وميا فارقين. انظر معجم البلدان ٢/٤٩٤.

(٧) انظر الكامل في التاريخ ٩/٥٥٦.

(٨) هو الأمير أبو منصور بن علاء الدولة بن كاكويه، وكان غير ثابت في موالته للسلاجقة، فتارة يخطب للملك الرحيم البويهى، وتارة لطغرلبك السلجوقى. انظر الكامل في التاريخ ٩/٥٦٢.

لدولته وداراً لمقامه بدلاً من الري، كما أرسل طغرلبيك سرية من عسكره نحو إقليم فارس، فاستولى عليه في سنة ٤٤٢هـ، وضم هذا الإقليم إلى أملاك السلاجقة^(١).

وفى جمادى الأولى سنة ٤٤٢هـ سار ألب أرسلان بن داود أخى طغرلبيك من مدينة مرو بخراسان، وقصد بلاد فارس ووصل إلى مدينة فسا^(٢)، فاستولى عليها وعاد بعدها إلى خراسان^(٣).

وفى سنة ٤٤٦هـ سار طغرلبيك إلى أذربيجان^(٤) وما جاورها، لتأكيد سلطانه عليها، فقصد تبريز، وجنزة^(٥)، فأطاعه أميراهما^(٦)، وخطبا له، وكذلك سائر تلك النواحي أرسلوا يبذلون الطاعة والخطبة^(٧)، ثم قصد طغرلبيك أرمينية^(٨)، وحاصر مدينة ملاذكرد^(٩) التي كانت خاضعة للنفوذ البيزنطى ولما عجز عن فتحها عاد إلى

(١) انظر الكامل في التاريخ ٥٦٢/٩.

(٢) فسا: ويقال لها بسا بالباء، وهى مدينة بفارس، والمنسوب إليها يقال له بساسيرى ولم يقولوا فسائى، وقولهم بساسيرى مثل قولهم كرم سير، وسرد سير، وخرج منها البساسيرى الذى خرج على القائم بأمر الله العباسي سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م. انظر معجم البلدان ٤/٢٦٠، ٢٦١.

(٣) انظر الكامل في التاريخ ٥٦٤/٩، ٥٦٥.

(٤) أذربيجان: بالفتح ثم السكون، وفتح الراء وكسر الباء، إقليم واسع يقع في حدود الإقليم الخامس، النسبة إليه أذرى ومن أشهر مدنها تبريز وهى قصبتهما وأكبر مدنها. انظر معجم البلدان ١/١٢٨، بلدان الخلافة الشرقية ص ١٩٣ وما بعدها.

(٥) جنزة: مدينة بين خوزستان وأصبهان. انظر معجم البلدان ٤/٤٨٢.

(٦) وهما الأميران أبو منصور وهسودان بن محمد الروادى حاكم تبريز، والأمير أبى الأسوار حاكم جنزة. انظر الكامل في التاريخ ٥٩٨/٩.

(٧) المرجع السابق ٥٩٨/٩، ٥٩٩.

(٨) إرمينية: بكسر أوله ويفتح، وسكون ثانية، وكسر الميم، وياء ساكنة، وكسر النون وياء خفيفة مفتوحة: اسم لصقع عظيم واسع في جهة الشمال. انظر معجم البلدان ١/١٥٩، ١٦٠.

(٩) ملاذكرد أو منازكرد: بلد مشهور بين خلاط وبلاد الروم يعد في أرمينية وأهله أرمن وروم. المرجع السابق ٥/٢٠٢.

الرى فأقام بها إلى أن دخل العراق سنة ٤٤٧ هـ^(١).

دخول السلاجقة العراق والقضاء على الدولة البويهية :

أخذ طغرلبيك بعد عودته إلى الرى يستعد للمسير إلى بغداد، وكانت قد تبودلت بينه وبين الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧ هـ) في خلال هذه الفترة الرسل والهدايا^(٢)، وكانت الخلافة العباسية في ذلك الوقت جسداً لا روح فيه^(٣)، فكانت أمور الخلافة جميعها بيد أحد غلمان بهاء الدولة الديلمي وهو «أبو الحارث البساسيري»، رئيس الجند الأتراك ولم يكن للخليفة في الحقيقة أدنى نفوذ في مقابل «البساسيري» وأصحابه^(٤)، وكان هذا القائد يميل إلى الفاطميين في مصر، ويتصل بهم في الخفاء، ويحاول أن يبسط نفوذهم على بغداد إذا وافته الفرصة المناسبة لتحقيق ذلك^(٥).

لم تكن الحالة في بلاد العراق، والصعاب الداخلية التي تواجه الخليفة العباسي خافية عن السلاجقة، فعهدوا إلى انتهاز هذه الفرصة لمواصلة جهودهم لبسط سيادتهم على أراضي الدولة العباسية^(٦)، ففي المحرم سنة ٤٤٧ هـ أظهر طغرلبيك أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة، والمسير إلى الشام ومصر، وإزالة المستنصر صاحبها، وأمر أصحابه بإعداد الأقوات والعلوفات^(٧)، ثم أرسل السلطان طغرلبيك رسالة إلى الخليفة العباسي يدين له فيها بالطاعة ويستأذنه في دخول بغداد، فأذن له الخليفة العباسي، وأمر خطباء المساجد في بغداد بأن يخطبوا له يوم الجمعة لثمان بقين من رمضان

(١) انظر الكامل في التاريخ ٥٩٩/٩.

(٢) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ١٦٦-١٦٩، الكامل في التاريخ ٥٢٢/٩، ٥٨٠.

(٣) انظر سلاجقة إيران والعراق ص ٣٨.

(٤) انظر تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٢٣٦.

(٥) انظر سلاجقة إيران والعراق ص ٣٨.

(٦) انظر سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٨٧.

(٧) انظر الكامل في التاريخ ٦٠٩/٩، أخبار الدولة السلجوقية ص ١٨، ١٩، تاريخ ابن خلدون

سنة ٤٤٧ هـ، ولما وصل السلطان السلجوقي إلى النهروان، خرج رئيس الرؤساء أبو القاسم ابن المسلمة^(١) لاستقباله في موكب عظيم من القضاة والنقباء والأشراف وأعيان الدولة، وصحبه الأمراء من عسكر الملك الرحيم، فما علم طغرلبيك بهم أرسل إلى طريقهم الأمراء ووزيره أبا نصر الكندري^(٢)، فلما وصل رئيس الرؤساء إلى السلطان أبلغه رسالة الخليفة، واستحلفه للخليفة، وللملك الرحيم، وأمراء الأجناد، ودخل طغرلبيك بغداد يوم الإثنين ٢٥ رمضان من هذه السنة^(٣)، ونزل بباب الشماسية.

ولم يلبث السلطان السلجوقي بعد أن استقر مقامه في حاضرة الخلافة أن قبض على الملك الرحيم آخر الأمراء البويهيين، وأرسله سجيناً إلى إحدى القلاع، وانتهى بذلك العهد البويهي في العراق^(٤).

(١) ابن المسلمة هو علي بن الحسن بن أحمد بن محمد بن عمر أبو القاسم بن المسلمة، كان أحد الشهود المعتدلين، ثم استكتبه الخليفة القائم بأمر الله واستوزره ولقبه رئيس الرؤساء، وشرف الوزراء، وجمال الوري، وكان مضطرباً بعلوم كثيرة مع سداد الرأي ووفور في العقل، قتل في فتنة البساسيري سنة ٤٥٠ هـ. انظر المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٤١/١٦-٤٣.

(٢) عميد الملك أبو نصر محمد بن منصور بن محمد الكندري، وزير السلطان طغرلبيك، كان أحد رجال الدهر سؤدداً وجوداً، تفقهاً وتادباً، وكان كاتباً، ثم ارتقى وولى خوارزم، ثم عصى على السلطان، قدم بغداد، ولقبه القائم سيد الوزراء، وكان معتزلياً له النظم والنثر، فلما مات طغرلبيك وزر لألب أرسلان قليلاً ونكب، ومما قاله: ما أسعدني بدولة بني سلجوق أعطاني طغرلبيك الدنيا، وأعطاني ألب أرسلان الآخرة، ووزر تسع سنين وأخذوا أمواله، منها ثلاثة مائة مملوك، وقتل صبراً وطيف برأسه، قال الذهبي: وما بلغنا عنه كبير إساءة لكن ما على غضب الملك عيار، قتل بـ«مرو الروذ» في ذى الحجة سنة ست وخمسين وأربع مائة، وله اثنان وأربعون سنة، وكان يؤذى الشافعية ويبالغ في الانتصار لمذهب أبي حنيفة ووزر بعده نظام الملك.

انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء ١١٣/١٨-١١٥، الكامل في التاريخ ٣١/١٠-٣٤.

(٣) انظر الكامل في التاريخ ٦٠٩/٩، ٦١٠، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم حوادث سنة ٤٤٧ هـ، تاريخ ابن خلدون ٤/٤٩٣، ٤٩٤، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٩، ١٠.

(٤) انظر الكامل في التاريخ ٦١١/٩، ٦١٢، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم حوادث سنة ٤٤٧ هـ.

وفى سنة ٤٥٤ هـ سار السلطان طغرلبيك إلى «قلعة الطرم» من بلاد الديلم، فملكها وقرر على صاحبها مائة ألف دينار وألف ثوب^(١).

وفى سنة ٤٥٥ هـ توجه السلطان طغرلبيك من «أرمينية» إلى بغداد للدخول ببنت الخليفة، وفى أثناء عودته من بغداد إلى بلد الجبل مرض بعد أن وصل إلى «الرى»^(٢)، وبذلك انتهت رحلة هذه التوسعات التي جعلت من الدولة السلجوقية دولة قوية ذات سيادة مرهوبة الجانب.

يعتبر طغرلبيك المؤسس الحقيقى لدولة السلاجقة في المشرق، فقد استطاع أن يضع أساساً متيناً لدولته، وأن يحقق آمال السلاجقة في تثبيت أركان الدولة السلجوقية في تلك البلاد، كما استطاع خلفاؤه أن يقيموا على هذا الأساس بناءً شامخاً ومجداً عظيماً^(٣).

٦ - وفاته :

توفى طغرلبيك يوم الجمعة الموافق الثامن من شهر رمضان المعظم سنة ٤٥٥ هـ بالرى، وكان عمره سبعين سنة تقريباً، وكان عقيماً لم يلد ولداً، وحمل إلى مرو فدفن عند أخيه داود، وقيل: بل دفن بالرى^(٤).

وحكى عنه وزيره عميد الملك الكندرى: انه لما مرض قال: إنما مثلى في مرضى مثل شاة تشد قوائمها لجز الصوف، فتظن أنها تذبح فتضطرب، حتى إذا أطلقت تفرح، ثم تشد قوائمها للذبح فتظن أنها لجز الصوف، وتسكن فتذبح، وهذا المرض شد القوائم للذبح^(٥).

(١) انظر الكامل في التاريخ ٢٤/١٠.

(٢) المرجع السابق ٢٥/١٠، ٢٦، أخبار الدولة السلجوقية ص ٢١، ٢٢.

(٣) انظر سلاجقة إيران والعراق ص ٤٥.

(٤) انظر الكامل في التاريخ ٢٦/١٠، سير أعلام النبلاء ١١١/١٨.

(٥) أخبار الدولة السلجوقية ص ٢٣، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٦.

ولما وصل خبر وفاته إلى بغداد جلس الوزير فخر الدولة بن جهير للجزاء في السادس والعشرين من شهر رمضان^(١).

ثانياً: السلطان ألب أرسلان:

١ - اسمه ولقبه:

هو السلطان الكبير الملك العادل، محمد بن جغرى بك داود بن ميكائيل بن سلجوق بن تقاق بن سلجوق التركمانى، الغزى، من عظماء ملوك الإسلام وأبطالهم^(٢).

أما لقبه: عضد الدولة، أبو شجاع، ألب أرسلان^(٣).

٢ - مولده:

اختلف المؤرخون في سنة مولده اختلافاً بيناً، وإليك توضيح ذلك:

(أ) يقول ابن الأثير: ولد السلطان ألب أرسلان بن داود أول المحرم سنة ٤٢٠ هـ عشرين وأربعمائة^(٤)، وقال: ومولده سنة ٤٢٤ هـ، أربع وعشرين وأربعمائة، وبلغ من العمر أربعين سنة وشهوراً^(٥).

(ب) ويقول ابن خلكان: كانت ولادة السلطان ألب أرسلان سنة ٤٢٤ هـ^(٦) أربع وعشرين وأربعمائة.

(ج) يقول الراوندى: أنه ولد في الثاني من المحرم سنة ٤٣١ هـ إحدى وثلاثين

(١) المرجع السابق ص ٢٧.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء ٤١٤/١٨.

(٣) المرجع السابق ٤١٤/١٨.

(٤) انظر الكامل في التاريخ ٤٧٦/٩.

(٥) المرجع السابق ٧٤/١٠.

(٦) انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٧٠/٥.

وأربعمائه^(١).

أما سائر الكتب التاريخ فتتفق على أن تاريخ ولادته هو الثاني من المحرم سنة ٤٢١ هـ^(٢) إحدى وعشرين وأربعمائه.

٣ - توليه السلطنة:

لما مات السلطان طغرلبك نص على تولية الأمر لسليمان بن داود أخي ألب أرسلان، ولم ينص عليه إلا لأن أمه كانت عنده، فتبع هواها في ولدها، فقام سليمان بالأمر وثار عليه أخوه ألب أرسلان، وعمه شهاب الدولة قتلمش، وجرت بينهم خطوب فلم يتم لسليمان الأمر، وكانت النصر لأخيه ألب أرسلان^(٣).

وهكذا انتهت فتنة سليمان بن جغرى بك، واستتب الأمر لأخيه الأكبر ألب أرسلان في ذي الحجة سنة ٤٥٥ هـ/١٠٦٣ م^(٤)، فاستولى على الممالك وعظمت دولته، ورهبت سطوته، وفتح من البلاد ما لم يكن لعمه طغرلبك مع سعة ملك عمه، وقيل: إنه لم يعبر الفرات في قديم الزمان ولا حديثه في الإسلام ملك تركي قبل ألب أرسلان، فإنه أول من عبرها من ملوك الترك^(٥).

٤ - صفاته الخلقية:

لقد اتسم ألب أرسلان بأخلاق كريمة، وصفات حميدة، فقد كان رحيم القلب، رقيقاً بالفقراء، كثير الدعاء بدوام ما أنعم الله به عليه، اجتاز يوماً بمرور على فقراء الخرائين، فبكى وسأل الله أن يغنيه من فضله، وكان يكثر الصدقة، فيتصدق في رمضان بخمسة عشر ألف دينار، وكان في ديوانه أسماء خلق كثير من الفقراء في جميع

(١) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ١٨٥.

(٢) المرجع السابق هامش ص ١٨٥.

(٣) انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٦٩/٥.

(٤) انظر سلاجقة إيران والعراق ص ٤٨.

(٥) انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٦٩/٥.

ممالكه، ولم يكن في جميع بلاده جنائية ولا مصادرة، قد قنع من الرعايا بالخراج الأصلي يؤخذ منهم كل سنة دفعتين رفقاً بهم^(١)، وكان حريصاً على إقامة العدل في رعاياه، وحفظ أموالهم وأعراضهم، بلغه أن غلاماً من غلمانه أخذ إزاراً لبعض أصحابه فصلبه، فارتدع سائر المماليك به خوفاً من سطوته، وكتب إليه بعض السعاة في نظام الملك^(٢) وزويده وذكر ماله في ممالكه، فاستدعاه، فقال له: خذ إن كان هذا صحيحاً فهذب أخلاقك وأصلح أحوالك، وإن كذبوا فاغفر له زلته^(٣)، وكان كثيراً ما يقرأ عليه تواريخ الملوك وآدابهم^(٤)، وأحكام الشريعة، ولما اشتهر بين الملوك بحسن سيرته، ومحافظته على عهوده، أذعنوا له بالطاعة والموافقة بعد الامتناع، وحضروا عنده من

(١) انظر الكامل في التاريخ ١٠/٧٤، ٧٥.

(٢) نظام الملك: الوزير الكبير، نظام الملك، قوام الدين، أبو علي الحسن بن علي ابن إسحاق الطوسي، عاقل، سانس، خبير، سعيد، متدين، محتشم، عامر المجلس بالقراء والفقهاء، أنشأ المدرسة الكبرى ببغداد، وأخرى بنيسابور، وأخرى بطوس، ورغب في العلم، وأدر على الطلبة الصلات، وأملى الحديث، وبعد صيته، وكان أبوه من دهاقين بيهق، فنشأ وقرأ نحواً، وتعاني الكتابة والديوان، وخدم بغزنة، وتنقلت به الأحوال إلى أن وزر للسلطان ألب أرسلان، ثم لابنه ملكشاه، فدبر ممالكه على أتم ما ينبغي، وخفف المظالم، ورفق بالرعايا، وبنى الوقوف، وهاجرت الكبار إلى جنبه، وازدادت رفعته، واستمر عشرين سنة، وكان فيه خير وتقوى، وميل إلى الصالحين، وخضوع لموعظتهم، يعجبه من يبين له عيوب نفسه، فينكسر ويبكي، مولده في سنة ثمان وأربع مئة، وقتل صائماً في رمضان، أتاه باطني في هيئة صوفي يناوله قصة، فأخذها منه، فضربه بالسكين في فؤاده، فتلف، وقتلوا قاتله، وذلك ليلة جمعة سنة خمس وثمانين وأربع مئة، بقرب نهاوند، وكان آخر قوله: لا تقتلوا قاتلي، قد عفوت، لا إله إلا الله. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء ١٩/٩٤-٩٦، الكامل في التاريخ ١٠/٢٠٤-٢١٠، البداية والنهاية ١٢/١٤٠، ١٤١.

(٣) انظر البداية والنهاية ١٢/١٠٧.

(٤) من الدروس المستفادة من هذا أهمية تربية القادة على معرفة التاريخ الإسلامي، وأخذ العبرة والعظة من أحداثه، وكذلك تعليمهم أحكام الشرع الحنيف، حتى يتمسكوا به ويأخذوا رعيتهم على الإلتزام بما جاء فيه.

أقصى ما وراء النهر إلى أقصى الشام^(١).

٥ - وزراءه :

استوزر السلطان ألب أرسلان نظام الملك الحسن بن علي بن إسحاق^(٢)، وقد قام نظام الملك بدور موجه في سياسة الدولة السلجوقية، فاشترك بحسن سياسته، ودقة تدبيره في نجاح أهداف السلطان، فأعطى لمنصب الوزراء أهمية ورونقاً وجعله منصباً مرموقاً تتطلع إليه أبصار كبار رجال الدولة^(٣).

٦ - توسعات الدولة في عهده :

كان السلطان طغرلبيك قد عهد بالملك قبل وفاته لابن أخيه سليمان بن داود، وذلك بناء على رغبة أمه وكانت عنده، فلما توفي نفذ وزيره عميد الملك الكندري وصيته، وأجلس سليمان على العرش، وخطب له بالسلطنة، واختلف الأمراء فمنهم من خطب له، ومنهم من خطب لألب أرسلان وهو حينئذ صاحب خراسان، ومعه «نظام الملك»، وزيره، فلما رأى «عميد الملك» أن سلطنة سليمان لن تتحقق مع وجود ند قوي كألب أرسلان خطب له، وجعل سليمان ولياً لعهد^(٤).

لما جلس ألب أرسلان على عرش السلطنة أمر بالقبض على «عميد الملك الكندري»، فلما تم له ذلك أعطى الوزارة «نظام الملك»، وكان في خدمته قبل توليته السلطنة، وبقي «الكندري» سنة في اعتقاله إلى أن أمر السلطان بقتله سنة ٤٥٦ هـ بسعى من «نظام الملك» ورضى منه^(٥).

بدأ ألب أرسلان بعد استتباب الأمر له ولوزيره في إقامة الدولة معتمداً على

(١) انظر الكامل في التاريخ ٧٥/١٠.

(٢) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ١٨٥، ١٨٦.

(٣) انظر سلاجقة إيران والعراق ص ٦٠، ٦١.

(٤) انظر الكامل في التاريخ ٢٩/١٠، تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٢٤١، ٢٤٢.

(٥) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ١٨٦، ١٨٧.

الأساس الذي أرساه طغرلبيك في إيران والعراق، ورسماً معاً سياسة الدولة السلجوقية، والتي تتلخص في تثبيت أركان حكمه في البلاد الخاضعة لنفوذ السلاجقة، ثم فتح البلاد المسيحية المجاورة لدولته^(١)، وإسقاط الخلافة الفاطمية في مصر، وتوحيد العالم الإسلامي تحت راية الخلافة العباسية السنية ونفوذ السلاجقة^(٢).

واستطاع السلطان ألب أرسلان بكفائته وحنكة وزيره نظام الملك أن يصل بدولته حتى شاطئ نهر جيحون والبحر المتوسط، وأن يزيل جميع خصومه الذي ادعوا السلطنة والمخالفة^(٣).

ففي سنة ٤٥٦ هـ عصى أمير ختلان بقلعته، فسار إليه ألب أرسلان، وبعد قتال شديد تسلم ألب أرسلان القلعة وصارت بحوزته، وكذلك قضى على عصيان عمه «بيغو بن ميكائيل» في «هراة» الذي طمع في الملك، فسار إليه ألب أرسلان في العساكر العظيمة، وبعد قتال دام ليلاً ونهاراً تسلم المدينة، وخرج عمه إليه، فأبقى عليه وأكرمه، وسار إلى أمير «صغانيان» واسمه موسى الذي عصى عليه وتحصن بقلعته فقاتله، وتسلم القلعة، وعاد إلى مرو ثم إلى نيسابور^(٤).

وفي ربيع الأول سنة ٤٥٦ هـ سار السلطان ألب أرسلان من الري إلى أذربيجان عازماً على قتال الروم، فوصل إلى «نقجوان»، وجعلها مركزاً لعسكره، وخضعت له «خوى» و«سلماس»، ثم سار إلى بلاد الكرج، وقام ولده ملكشاه ووزيره نظام الملك بفتح كثير من حصونها وقلاعها، ثم رجعا إلى ألب أرسلان، وبعد أن فتح السلطان بلاد الكرج، سار منها إلى مدينة «آنى»^(٥)، وكانت حصينة، فمَنَّ الله على المسلمين

(١) سيأتى تفصيل ذلك في الكلام عن الجهاد في الدولة السلجوقية.

(٢) انظر سلاجقة إيران والعراق ص ٥٠-٥٢.

(٣) انظر تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٢٤٣.

(٤) انظر الكامل في التاريخ ٣٤/١٠، المختصر في أخبار البشر ٥٤٢/١، تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٢٤٣.

(٥) آنى: قلعة حصينة، ومدينة بأرض أرمينية بين خلاط وكنجة. انظر معجم البلدان ٥٩/١.

بفتحها، وقرئ كتاب الفتح ببغداد في دار الخلافة، وعين عليها والياً من قبله، ثم عاد إلى «أصفهان»، ومنها إلى «كرمان»، ثم إلى «مرو»^(١).

وفى سنة ٤٥٧ هـ عبر السلطان ألب أرسلان نهر جيحون وسار إلى مدينة «جند»، وبها قبر جده سلجوق، فلما عبر النهر استقبله ملكها وأطاعه، وأهدى إليه هدايا جلييلة، فأقره السلطان على ما بيده، ثم سار إلى خوارزم ومنها إلى مرو^(٢).

وفى سنة ٤٥٩ هـ استطاع القضاء على ثورة والي «كرمان» (قرا أرسلان)، ثم سار منها إلى فارس، فوصل إلى «اصطخر»، وفتح قلعتها، واستنزل واليها، فحمل إليه الوالى الهدايا العظيمة، جلييلة القدر^(٣).

وفى سنة ٤٦٣ هـ خطب «محمود بن صالح بن مرداس» أمير «حلب» للخليفة «القائم بأمر الله» وللسلطان ألب أرسلان، وأسقط الخطبة للفاطميين، وكذلك خطب لهما بمكة والمدينة، ومع أن «محمود بن صالح» قد أطاع السلطان ألب أرسلان، وخطب له إلا أن السلطان أتى «حلب»، وطلب إلى محمود أن يحضر للقاءه فامتنع أول الأمر، ولكن لم يجد بداً من الحضور بعد حصار السلطان للمدينة، فحضر ومعه أمه، فعفا السلطان عنه، وأقره على مكانه بحلب، وبذلك صارت «حلب» تبعاً للسلاجقة^(٤)، وفى نفس السنة استولى «أتسز بن أوق الخوارزمي» وهو من أمراء السلطان ملكشاه على «الرملة» و«بيت المقدس» من نواب الخليفة «المستنصر»، وحاصر «دمشق» غير أنه لم يتمكن من فتحها^(٥).

(١) انظر الكامل في التاريخ ١٠/٣٧-٤١، تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٢٤٤، ٢٤٥.

(٢) انظر الكامل في التاريخ ١٠/٤٩، المختصر في أخبار البشر ١/٥٤٣، تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٢٤٥.

(٣) انظر الكامل في التاريخ ١٠/٥٣، ٥٤، أخبار الدولة السلجوقية ص ٤٢.

(٤) انظر الكامل في التاريخ ١٠/٦٣، ٦٤، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٣٦، ٣٧، المختصر في تاريخ البشر ١/٥٤٥، تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٢٤٦.

(٥) انظر الكامل في التاريخ ١٠/٦٨، المختصر في أخبار البشر ١/٥٤٥.

وفى سنة ٤٦٤ هـ سير السلطان ألب أرسلان وزيره نظام الملك إلى بلاد فارس، وبها حصن من أمنع الحصون، وصاحبه اسمه فضلون فدعاه نظام الملك إلى الطاعة فلم يطعه، فقاتله حتى هزم، وأخذ إلى السلطان ألب أرسلان أسيراً، فعفا عنه وأطلقه^(١).

وفى سنة ٤٦٥ هـ سار السلطان ألب أرسلان إلى بلاد ما وراء النهر لتأديب «شمس الملك بن طفقاج» الذى خرج عن الطاعة، فعقد على جيحون جسراً وعبره في نيف وعشرين يوماً، وعسكره يزيد على مائتى ألف فارس، فأثاه أصحابه بمستحفظ قلعة يقال له «يوسف الخورزمي»^(٢)، وكان قد ارتكب جريمة في أمر هذه القلعة، فأمر السلطان أن تضرب له أوتاد أربعة ويشد بأطرافه إليها، فقال له يوسف يا مخنث مثلى يقتل هذه القتلة؟ فغضب السلطان ألب أرسلان وأخذ القوس والنشاب ورماه بسهم فأخطأه، ولم يكن يخطئ سهمه، فوثب يوسف يريده، والسلطان على سُدّه، فلما رأى يوسف يقصده قام عن السُدّه ونزل عنها فعثر، فوقع على وجهه، فبرك عليه يوسف وضربه بسكين كانت معه في خاصرته، وضرب بعض الفراشين يوسف بمرزبة على رأسه فقتله، وتوفى السلطان على أثر هذه الجراحة^(٣).

٧ - وفاته :

توفى السلطان ألب أرسلان في سنة ٤٦٥ هـ على أثر جراحة، جرحه إياها يوسف الخورزمي في بلاد ما وراء النهر، ولما جرح قال: ما من وجه قصدته، وعدو أردته إلا استعنت بالله عليه، ولما كان أمس صعدت على تل، فارتجت الأرض تحتى من

(١) انظر أخبار الدولة السلجوقية ص ٤٢، ٤٣، الكامل في التاريخ ١٠/٧١، ٧٢.

(٢) ذكر الرواندى أن اسم هذا الأسير هو يوسف البرزمي. انظر راحة الصدور وآية السرور ص ١٩٠.

(٣) انظر الكامل في التاريخ ١٠/٧٣، ٧٤، المختصر في أخبار البشر ١/٥٤٧، ٥٤٨، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٤٤، ٤٥، راحة الصدور وآية السرور ص ١٩٠-١٩٢، أخبار الدولة السلجوقية ص ٥٣، ٥٤.

عظم الجيش وكثرة العسكر، فقلت في نفسي: أنا ملك الدنيا، وما يقدر أحد على، فنجزني الله تعالى بأضعف خلقه، وأنا أستغفر الله تعالى، وأستقيه من ذلك الخاطر، ولما تُوفى حُمل جثمانه إلى مرو ودفن عند أبيه، وكانت مدة ملكه منذ خطب له بالسلطنة إلى أن قتل تسع سنين وستة أشهر وأياماً^(١).

قال الذهبي في العبر: كان ألب أرسلان في آخر عمره، من أعدل الناس، وأحسنهم سيرة، وأرغبهم في الجهاد ونصرة الإسلام^(٢).

ثالثاً: السلطان ملكشاه:

١ - اسمه ولقبه:

هو السلطان الكبير ملكشاه بن ألب أرسلان محمد بن جغرى بك السلجوقي التركي^(٣).

أما لقبه: جلال الدولة أبو الفتح ملكشاه^(٤).

٢ - مولده:

ولد السلطان ملكشاه سنة ٤٤٧ هـ سبعم وأربعين وأربعمائة من الهجرة^(٥).

٣ - أولاده:

كان للسلطان ملكشاه عدد من الأولاد اشتهر منهم:

(١) أبو المظفر ركن الدين بركياروق.

(٢) غياث الدين محمد.

(٣) أبو الحارث سنجر.

(١) انظر الكامل في التاريخ ٧٣/١٠، ٧٤، أخبار الدولة السلجوقية ص ٥٣-٥٥.

(٢) انظر العبر في خير من غير ٣١٨/٢.

(٣) انظر سير أعلام النبلاء ٥٤/١٩، ٥٥.

(٤) المرجع السابق ٥٤/١٩، ٥٥.

(٥) انظر الكامل في التاريخ ٢١١/١٠.

(٤) محمود وهو أصغرهم^(١).

٤ - توليه السلطنة:

لما جرح السلطان ألب أرسلان ببلاد ما وراء النهر سنة ٤٦٥ هـ أوصى بالسلطنة لابنه ملكشاه^(٢)، فلما توفى جلس ملكشاه على سرير الملك وقام الأمراء بين يديه، فقال له الوزير نظام الملك: تكلم أيها السلطان، فقال: الأكبر منكم أبى والأوسط أخی والأصغر ابني، وسأفعل معكم ما لم أسبق إليه، فأمسكوا، فأعاد القول، فأجابوه بالسمع والطاعة^(٣).

وهي كلمة تدل على نزعته العادلة، وامتناله الآداب الإسلامية، وقد تكون من وضع الوصي عليه نظام الملك، كما تولى هو وأبو سعد المتولى أخذ البيعة له من الأمراء والوجهاء وأطلق عليهم الأموال^(٤)، وقد اتسع ملك السلطان ملكشاه حتى تملك بلاد ما وراء النهر، وبلاد الهياطلة، وبلاد الروم، والجزيرة والشام، والعراق وخراسان وغير ذلك.

قال صاحب العبر: ملك من مدينة كاشغر الترك إلى بيت المقدس طويلاً، ومن القسطنطينية وبلاد الخزر إلى بحر الهند عرضاً^(٥)، وقد أثبت السلطان الجديد مقدرة فائقة في الحرب، ورغبة نادرة في الإصلاح والتعمير حتى عده أحد المؤرخين المؤسس الحقيقي للإمبراطورية السلجوقية المترامية الأطراف وذلك لنشاطه وحكمة وزيره^(٦).

(١) انظر أخبار الدولة السلجوقية ص ٧٤.

(٢) انظر الكامل في التاريخ ١٠/٧٦.

(٣) انظر البداية والنهاية ١٢/١٠٦.

(٤) انظر نظام الملك: الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، د/عبد الهادي محمد رضا محبويه، ط

الدار المصرية اللبنانية ص ٣٤٥، الأولى سنة ١٤١٩ هـ/١٩٩٩ م.

(٥) انظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٥/٣٦٦.

(٦) انظر نظام الملك ص ٣٤٦.

٥ - صفاته الخلقية والخلقية :

بالنسبة لصفاته الخلقية: كان السلطان ملكشاه جميل الصورة، معتدل القد، مرتفع القامة، قوى الساعد، يميل إلى الضخامة، وكانت لحيته مستديرة، ووجهه أبيض مشرباً بحمرة، وكانت إحدى عينيه منحرفة قليلاً عن طريق التعود لا عن طريق الخلقة^(١).

صفاته الخلقية: لقد اتسم السلطان ملكشاه بصفات حميدة وأخلاق كريمة منها:

١ - مناصرة المظلومين :

لقد كان السلطان يقف بجانب المظلومين من رعيته فمن ذلك: أن فلاحاً أنهى إليه أن غلماناً له أخذوا له حمل بطيخ، ففتشوا فإذا في خيمة الحاجب بطيخ فحملوه إليه، ثم استدعى الحاجب، فقال: من أين لك هذا البطيخ؟ قال: جاء به الغلمان، فقال أحضرهم، فذهب فعرفهم، فأرسل إليه، فأحضره وسلمه إلى الفلاح، وقال: خذ بيده، فإنه مملوكى ومملوك أبى، فأياك أن تفارقه، ثم رد على الفلاح الحمل البطيخ، فخرج الفلاح بحمله وبيده الحاجب، فاستنقذ الحاجب نفسه من الفلاح بثلاثمائة دينار^(٢).

٢ - دعاؤه لله أن ينصر الأصلاح للمسلمين :

ولما توجه إلى حرب أخيه تكش اجتاز بمشهد على بن موسى الرضا بطوس، فدخل للزيارة ومعه النظام، فلما خرجا قال له: يا حسن بما دعوت؟ فقال دعوت الله أن يظفرك بأخيك، فقال: إننى لم أسأل ذلك، وإنما قلت: اللهم إن كان أخى أصلاح للمسلمين منى فظفره بى، وإن كنت أصلاح لهم فظفرنى به^(٣).

٣ - خوفه من الله :

غنته امرأة حسناء فطرب، وتاقت نفسه إليها، فهم بها، فقالت له: إنى أغار على هذا الوجه الجميل من النار، وبين الحلال والحرام كلمة واحدة، فاستدعى القاضي

(١) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ١٩٧.

(٢) انظر البداية والنهاية ١٢/١٤٢.

(٣) انظر المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٣١٠/١٦.

فزوجها بها^(١)، فانظر كيف أن المرأة خوفت السلطان من الله تعالى فاسترجع وأتاب، ونحن نحتاج إلى مثل هؤلاء في زماننا هذا، فعلى أكتافهم تقام الدول، وتعلو الهمم، فصالح الراعي فيه صلاح الرعية.

ومن ذلك أنه بنى منارة القرون من صيوده بالكوفة، ومثلها فيما وراء النهر، وضبط ما صاده بنفسه في صيوده فكان ذلك نحواً من عشرة آلاف صيد، فتصدق بعشرة آلاف درهم، وقال: إني خائف من الله تعالى أن أكون أزهدت نفس حيوان لغير مأكله^(٢)، وكان مع عظمته يقف للمسكين والضعيف والمرأة فيقضى حوائجهم^(٣)، وهذه هي مهمة الحاكم في كل زمان ومكان، خدمة الناس، وقضاء حوائجهم، والقيام بأمرهم، لأنه في الحقيقة أجبر عندهم وليس مسلطاً عليهم كما يحدث الآن في كثير من بلاد المسلمين.

٦ - وزيرائه :

استوزر السلطان ملكشاه: نظام الملك الحسن بن علي بن إسحاق^(٤)، وقد أجمعت المصادر التاريخية بأن النظام لعب دوراً كبيراً في تنصيب السلطان الجديد، كما كان له الفضل الأكبر في إرساء دعائم الدولة وانتصاراتها الحربية^(٥)، وبعد مقتل نظام الملك سنة ٤٨٥ هـ تولى الوزارة تاج الملك الشيرازي^(٦)، ولكنه لم يهنأ بها فقد

(١) انظر البداية والنهاية ١٢/١٤٣.

(٢) المرجع السابق ١٢/١٤٢.

(٣) المرجع السابق ١٢/١٤٢.

(٤) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ١٩٧.

(٥) انظر نظام الملك ص ٣٤٥.

(٦) هو تاج الملك أبو القاسم واسمه المرزبان بن خسرو فيروز فارسي الأصل، كان يمتاز بحسن المظهر والمخبر، والكفاية والدراية، والفضل والهمة، وكان يتولى شؤون الملابس السلطانية، فشاءت تركان خاتون أن ترفعه في وجه نظام الملك. المرجع السابق ص ٢٠٧.

توفى السلطان ملكشاه بعدها بأيام قلائل^(١).

٧ - توسعات الدولة في عهده:

كان السلطان ألب أرسلان قد أوصى بالسلطنة لابنه ملكشاه، وكان في صحبته، وأمر أن يحلف له العسكر، فحلفوا جميعهم، وكان المتولى للأمر في ذلك نظام الملك، فلما توفى ألب أرسلان آلت السلطنة إلى ملكشاه بناءً على هذه الوصية، وعاد ملكشاه والجيش الذي معه من بلاد ما وراء النهر إلى خراسان، وقصد نيسابور، وقام بوزارته نظام الملك، وأرسل إلى بغداد وإلى الأطراف، فخطب له فيها على ما كان لأبيه^(٢)، وهكذا استقام الأمر لملكشاه فتوجه من نيسابور إلى الري ليكمل ما بدأه أبوه^(٣)، ولكن ما لبث أن خرج عليه عمه قاروت بك^(٤) صاحب كرمان، عندما علم بوفاة أخيه ألب أرسلان، وسار إلى الري فسبقه إليها السلطان ملكشاه ونظام الملك، والتقى الجيشان، فانهزم عسكر قاروت بك، وأتى به إلى ملكشاه أسيراً وأمر به فخنق، وأقر كرمان بيد أولاده^(٥)، فتوارثوا حكمها إلى عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م، وسميت دولتهم في التاريخ باسم سلاجقة كرمان^(٦).

بعد أن ثبت السلطان ملكشاه أقدامه في الحكم، واطمأن على سلطنته، التفت إلى

(١) انظر الكامل في التاريخ ٢١٠/١٠.

(٢) انظر الكامل في التاريخ ٧٦/١٠، المختصر في أخبار البشر ٥٤٨/١.

(٣) انظر سلاجقة إيران والعراق ص ٦١.

(٤) هو عماد الدين قرا أرسلان قارود كان يلي كرمان بعد استيلائه عليها سنة ٤٣٣هـ، وكان خاضعاً لأخيه السلطان ألب أرسلان، وسبق لقارود العصيان سنة ٤٥٥هـ، وسنة ٤٥٩هـ على ألب أرسلان، وخلع عليه الطاعة، وقطع له الخطبة مطالباً بأحقية السلطنة، لكن ألب أرسلان أخضعه ثم صالحه وفوض إليه حكم هذا الإقليم. انظر تاريخ العراق هامش ص ١٤٥.

(٥) انظر الكامل في التاريخ ٧٨/١٠، ٧٩، المختصر في أخبار البشر ٥٤٨/١.

(٦) انظر سلاجقة إيران والعراق ص ٦٢.

بلاد الشام^(١)، وأحيا مشروع أبيه ألب أرسلان بغزو هذه البلاد، وضم مصر إليها، والقضاء على الدولة الفاطمية، فاختر أن يولى على هذه الجبهة أميراً سلجوقياً لصيقاً به وبالأسرة السلطانية^(٢)، فأسند الأمر إلى أخيه تاج الدولة تتش في عام ٤٧٠هـ، وسمح له أن يضم إلى حوزته كل ما يفتحه من بلادها، فحاصر تاج الدولة تتش حلب أولاً، ولما قدم في ذلك الوقت قائد الجيش الفاطمي إلى الشام، لدفع أتسز الخوارزمي، وحاصر دمشق أرسل أتسز إلى تاج الدولة تتش يستنصره، فسار تتش إلى دمشق، فلما قرب منها رحل عنها عسكر مصر، ولم يسمح أتسز لتتش أن يدخل دمشق وخرج هو ليلاقيه خارج أسوارها، فغضب تتش لهذا وقتل أتسز واستولى على دمشق في سنة ٤٧٢هـ^(٣)، وأسس فيها دولة سلاجقة الشام^(٤)، وحاول أن يحسن سيرته ويعدل في حكمه^(٥).

(١) كان أتسز بن أوق الخوارزمي - وهو من أمراء السلطان ملكشاه - قد قصد بلاد الشام في سنة ٤٦٣هـ وفتح مدينة الرملة وبيت المقدس وضمها إلى أملاك السلاجقة. انظر الكامل في التاريخ ٦٨/١٠، وفي سنة ٤٦٨هـ استولى أتسز على دمشق من الفاطميين، وقطع الخطبة العلوية، وأقام الخطبة للعباسيين، ومنع من الأذان حتى على خير العمل. انظر المختصر في أخبار البشر ٣/٢، الكامل في التاريخ ٩٩/١٠، ١٠٠. وفي سنة ٤٦٩هـ توجه أتسز إلى مصر، ولكنه لم يستطع فتحها وهزم على أيدي القوات الفاطمية، وعاد إلى الشام.

انظر الكامل في التاريخ ١٠/١٠٣، ١٠٤.

(٢) انظر تاريخ السلاجقة في بلاد الشام ص ١٢٥.

(٣) انظر الكامل في التاريخ ١١١/١٠، المختصر في أخبار البشر ٥/٢، ٦، تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٢٤٩، ٢٥٠.

(٤) سلاجقة الشام: بدأت بحكم أبو سعد تتش بن ألب أرسلان ٤٧١هـ/١٠٧٨م وانتهت بحكم سلطان شاه بن رضوان تحت وصاية بدر الدين لؤلؤ سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م. انظر أثر الحضارة السلجوقية في دول شرق العالم الإسلامي على الحضارتين الأيوبية والمملوكية بمصر هامش ٢٢/١.

(٥) انظر سلاجقة إيران والعراق ص ٦٤.

وفى نفس العام ٤٧٢ هـ استولى «مسلم بن قريش العقيلي» على مدينة «حلب»، وأرسل إلى السلطان ملكشاه يخبره بملك البلد، وسأل السلطان أن يقرر عليه الضمان، فأجابه السلطان إلى ما طلب^(١).

وفى سنة ٤٧٧ هـ استولى «سليمان بن قتلمش»^(٢) على مدينة «أنطاكية»^(٣) من بلاد الشام وأرسل إلى السلطان يبشره بذلك، وبذلك دخلت «أنطاكية»^(٤) في حوزة السلاجقة^(٥)، وكان فتح «أنطاكية» بالغ الأهمية، لأنه جعل نفوذ الدولة يمتد إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط^(٦).

وفى سنة ٤٧٩ هـ توجه السلطان ملكشاه من أصفهان إلى الجزيرة والشام ومنها عن طريق الموصل إلى بلاد وادي الفرات الأعلى، فاستولى على بعض قلاع هذه المنطقة التي كانت لا تزال في يد الروم ثم أتى حلب، ولما نزل السلطان ملكشاه بحلب أرسل إليه الأمير «نصر بن علي بن منقذ الكنانى» صاحب «شيرز»^(٧)،

(١) انظر الكامل في التاريخ ١١٤/١٠، ١١٥.

(٢) هو سليمان بن قتلمش بن إسرائيل بن سلجوق السلجوقي عم طغرل الأول وجغرى، وسليمان هذا مؤسس شعبة سلاجقة الروم، حاصر حلب، فكاتب أهلها صاحب دمشق تتش بن ألب أرسلان، فسارع فالتقى الجمعان بظاهر حلب، فانهزم الروميون، وثبت سليمان، إلى أن قتل، وقيل بل قتل نفسه بسكين عند الغلبة، وكان السلطان ملكشاه قد فوض إليه ولاية قونية وأقصر من بلاد أسيا الصغرى سنة ٤٧٠ هـ.

انظر سير أعلام النبلاء ٤٤٩/١٨، تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٢٥١.

(٣) أنطاكية: قسبة العواصم من الثغور الشامية على ساحل البحر المتوسط. انظر معجم البلدان ٢٦٦/١-٢٧٠.

(٤) انظر الكامل في التاريخ ١٣٨/١٠، ١٣٩.

(٥) انظر سلاجقة إيران والعراق ص ٦٥.

(٦) انظر تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٢٥٢.

(٧) شيرز: قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة في وسطها نهر الأردن قرب حماة. انظر معجم البلدان ٣٨٣/٣.

ودخل في طاعته، وسلم إليه اللاذقية^(١)، وكفر طاب^(٢) وأفامية، فأجابه السلطان إلى ما طلب وترك قصده، وأقر عليه «شيرز»، ولما ملك السلطان ملكشاه حلب، سلمها إلى قسيم الدولة آقسنقر، ثم ارتحل إلى بغداد^(٣).

وفي سنة ٤٨٢ هـ سار السلطان ملكشاه بجيوش لا تحصى إلى بلاد ما وراء النهر وعبر نهر جيحون، وسار إلى بخارى^(٤)، وملك ما على طريقة من البلاد، ثم ملك «بخارى»، ثم سار إلى «سمرقند»^(٥) فملكها، وأسر صاحبها «أحمد خان» وأكرمه^(٦)، وكان من علماء ما وراء النهر قد شكوا من ظلم هذا الأمير فقد كان صبيهاً ظالماً، قبيح السيرة، يكثر مصادرة الرعية، فنفروا منه، وكتبوا إلى السلطان سراً يستغيثون به، ويسألونه القدوم عليهم ليملك بلادهم^(٧)، وكانت لهذه دلالة بالغة، هي أن المسلمين في تلك البقاع ينظرون إلى السلاجقة على أنهم حماة الإسلام والمسلمين^(٨)، ثم سار السلطان إلى «كاشغر»^(٩)، فبلغ إلى بوزكند، وأرسل إلى ملك كاشغر يأمره بإقامة الخطبة له والسكة، فأجاب إلى ذلك، وسار ملك كاشغر وحضر عند السلطان ملكشاه،

(١) اللاذقية: مدينة في ساحل بحر الشام، تعد من أعمال حمص وهي غربي جيلة، وتعد أيضاً من أعمال حلب. المرجع السابق ٦/٥.

(٢) كفر طاب: بلدة بين المعرة ومدينة حلب. المرجع السابق ٤/٤٧٠.

(٣) انظر المختصر في أخبار البشر ١١/٢.

(٤) بخارى: من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلها، يعبر إليها من أمل الشط بينها وبين جيحون يومان، وكانت قاعدة ملك الدولة السامانية. انظر معجم البلدان ١/٣٥٣.

(٥) سمرقند: يقال لها بالعربية سمران، بلد معروف مشهور، قيل إنها من أبنية ذى القرنين بما وراء النهر، وهو قصبه إقليم الصغد، مبنية على جنوبى وادى الصغد مرتفعة عليه. المرجع السابق ٣/٢٤٦، ٢٤٧.

(٦) انظر المختصر في أخبار البشر ١٢/٢، الكامل في التاريخ ١٠/١٧١، ١٧٢.

(٧) المرجع السابق ١٠/١٧١.

(٨) انظر سلاجقة إيران والعراق ص ٦٧.

(٩) كاشغر: مدينة وقرى ورساتيق في وسط بلاد الترك. انظر معجم البلدان ٤/٤٣٠.

فأكرمه السلطان وعظمه وأعادته إلى ملكه، ثم رجع السلطان إلى خراسان^(١)، ولكنه لم يلبث أن سمع أن قبائل الأتراك التي تقيم بالقرب من «سمرقند» قد أخذت تتمرد، وتعصى من جديد، بحجة أن مرتباتها لم تصل إليها، كما علم أن أمير «فرغانه»، وزعماء بعض القبائل الأخرى قد انضموا إليها، فلم يلبث السلطان ملكشاه أن استعان بحكمه وزيره «نظام الملك»، ونفوذ زوجته ترکان خاتون في إخماد الفتنة في سهولة ويسر^(٢).

وهكذا فقد بلغت الدولة السلجوقية في عهد السلطان ملكشاه درجة كبيرة من الازدهار والتوسع، فشملت المناطق الواقعة بين «كاشغر» شرقاً، و«أنطاكية» غرباً، ومن «بحيرة خوارزم» شمالاً إلى حدود اليمن جنوباً، وكان اسمه يذكر في الخطبة، وينقش على السكة، وانضوت تحت لوائه أقاليم ما وراء النهر وفارس، وبعض أقاليم آسيا الصغرى وبعض إمارات الشام^(٣)، ويصف «الراوندى» سلطنة ملكشاه بأنها: صارت شاباً للدولة، وربيعاً لأيام الملك، وطرازاً لأبهى حلة، فالعالم مسلم له، ورايته منصوره، ورعيته هانئة، وبلادها معمورة^(٤)، وفي سنة ٤٨٥ هـ قتل «نظام الملك» على أيدي الباطنية^(٥)، وبعد مقتله بخمسة وثلاثين يوماً مات السلطان ملكشاه، وانحلت الدولة، ووقع السيف^(٦)، وبوفاة السلطان ملكشاه انتهى العصر السلجوقي الأول، والذي يسمى بالعصر الذهبي للدولة السلجوقية^(٧).

(١) انظر الكامل في التاريخ ١٠/١٧٢، المختصر في أخبار البشر ٢/١٢، ١٣.

(٢) انظر سلاجقة إيران والعراق ص ٦٨.

(٣) انظر تاريخ العراق والمشرق الإسلامي خلال العصر السلجوقي الأول ص ١٤٩، ١٥٠.

(٤) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ١٩٨.

(٥) انظر الكامل في التاريخ ١٠/٢٠٤.

(٦) المرجع السابق ١٠/٢٠٥.

(٧) انظر تاريخ العراق والمشرق الإسلامي خلال العصر السلجوقي الأول ص ١٥٨.

وفاته:

توفى السلطان ملكشاه ليلة الجمعة في النصف من شوال سنة ٤٨٥هـ، وقد ذكر في سبب وفاته ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه خرج إلى الصيد بعد صلاة العيد فأكل من لحم الصيد واقتصد فحم فمات.

والثاني: أنه طرقتة حمى حادة فمات.

والثالث: أن خردك سمّه في خلال هلك به.

وكان عمره سبعاً وثلاثين سنة، ومدة ملكه تسعة عشرة سنة وأشهر، ودفن في الشوينزنة، ولم يصل عليه أحد^(١).



(١) انظر المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٣١٣/١٦.

المبحث الرابع

سلاطين السلاجقة بعد السلطان ملكشاه

العصر السلجوقي الثاني (٤٨٥-٥٥٢هـ)

انقسم السلاجقة انقساماً شديداً بعد وفاة السلطان ملكشاه، وبدأ عهد جديد من الضعف والانقسام، عهد أصبح الظفر فيه بمنصب السلطان غاية في نفسه، فكثر فيه النزاع بين أفراد البيت السلجوقي، ولم تعد الدولة فيه تخضع لسلطان واحد، بل يتنازعها أكثر من سلطان في وقت واحد، ويتقاسمها أمراء السلاجقة الذين لم يعد مهمهم نصرته الإسلام وتوسيع رقعة الدولة السلجوقية، كما كان يفعل طغرل وألب أرسلان وملكشاه، بل محاولة القضاء على بعضهم البعض حتى يخلو الجو للمنتصر منهم، فأفادت كثرة القتال بينهم إلى إسقاطهم جميعاً في النهاية^(١).

نذكر من تولى السلطنة داخل الدولة السلجوقية حتى نهايتها:

أولاً: السلطان محمود بن ملكشاه بن ألب أرسلان:

كان للسلطان ملكشاه أربعة بنين هم: بركيارق ومحمد وسنجر ومحمود^(٢)، وكان التنافس على العرش ينحصر بين بركيارق الابن الأكبر لملكشاه يؤيده أتباع نظام الملك، وبين أخيه الأصغر محمود، وهو ابن ترکان خاتون الزوجة المدللة ذات النفوذ، ويناصرهما تاج الدين الشيرازي، الوزير الذي احتل مكان نظام الملك، وهكذا انقسم السلاجقة إلى معسكرين متنازعين يجاهر كل منهما الآخر بالعداء، وكانت الظروف في صالح محمود أول الأمر^(٣)، فبايعه العسكر لأمر:

(١) انظر سلاجقة إيران والعراق ص ٨٢.

(٢) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ٧٦.

(٣) انظر سلاجقة إيران والعراق ص ٨٣.

أحدها: أن أمه ترکان خاتون كانت مستولية على الأمور في أيام السلطان ملكشاه، وكانت محسنة للأجناد فقدموا ولدها.

والثاني: أنها كانت من نسل الملوك الترك قيل أنها من نسل افراسياب، والثالث: أن الأموال كانت بيدها ففرقتها فيهم فباعوه^(١)، ولما مات السلطان ملكشاه كتمت زوجته ترکان خاتون خبر موته وأرسلت إلى الأمراء سراً فأرضتهم، واستحلفتهم لولدها محمود، وعمره أربع سنين وشهور، فأجابوها، وأرسلت كذلك إلى الخليفة العباسي فأجابها ورتب في الوصاية عليه وزيرها تاج الملك، ولقبه بناصر الدنيا والدين، وخطب له يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوال سنة ٤٨٥هـ، وقد خشيت ترکان خاتون أن ينازع بركيارق ولدها محمود في السلطنة، فأرسلت من يقبض عليه في أصفهان، وقبض عليه، وأودع السجن، ولكن المماليك النظامية أخرجوه من السجن ونصبوه ملكاً، وخطبوا له بأصفهان^(٢)، وبهذا وجد سلطانان في وقت واحد، محمود في بغداد، وبركيارق في أصفهان، وأصبح لا مفر من الاحتكاك بين المعسكرين^(٣)، وقد دارت الحروب بين جند السلطان محمود تؤيدهم أمه ترکان خاتون، والوزير تاج الملك، وجند بركيارق تؤيدهم أمه زبيدة وأبناء الوزير نظام الملك وبعض الأمراء الذين انحازوا إلى جيش بركيارق، وخاصة يلبرد وكمشتكين، وحلت الهزيمة بجند محمود فعادوا إلى أصفهان، وسار جند بركيارق في أثرهم وحاصروهم فيها، ثم عاد بركيارق عن الحصار مقابل خمسمائة ألف دينار، وعاد إلى همذان، وقد انتهز أنصار الوزير نظام الملك هذه الفرصة فأخذوا بثأره إذ قتلوا تاج الملك في المحرم سنة ٤٨٦هـ، لممالاته على قتل نظام الملك طمعاً في الوزارة، وقلد بركياروق عز الدولة بن نظام الملك^(٤) الوزارة

(١) انظر أخبار الدولة السلجوقية ص ٧٤.

(٢) انظر الكامل في التاريخ ٢١٤/١٠، ٢١٥.

(٣) انظر سلاجقة إيران والعراق ص ٨٤.

(٤) عز الدولة بن نظام الملك:

وفوض إليه أمور دولته^(١).

وقامت ترکان خاتون بمحاولة أخرى، فأرسلت إلى إسماعيل بن ياقوتى^(٢) خال برکیارق تدعوه إلى محاربتة، وتعدده بالزواج منها، وأرسلت إليه الآلات والأسباب والأموال والدروع، فحارب بها السلطان في نواحي الكرج سنة ٤٨٦هـ، ولكنه أصيب بالهزيمة، وعاد إلى أخته زبيدة خاتون والدة برکیارق، وأمر السلطان بقتله في شهر رمضان من هذه السنة^(٣).

ثم خرج على برکیارق عمه تنتش بن ألب أرسلان، ونزل بقمهستان فعجل السلطان برکیارق بالذهاب إليه قاصداً أصفهان، وكان معه عدد قليل من الجيش، ولما رأى برکیارق أن لا قوة له على مقاومة تنتش استسلم لأخيه محمود، واستقبله محمود بأصفهان وترجل الأخوان عن جواديهما، وتعانقا، ولكن ما لبث أن تم القبض على برکیارق، والاتفاق على كحله، وسمل عينيه، وفجأة أصيب السلطان محمود بالجدرى، فتوقف الأمراء عن كحل برکیارق حتى يروا نتيجة الأمور، ولم يكد ينقضى أسبوع حتى مات محمود، فأحضروا برکیارق وأجلسوه على العرش، وماتت ترکان خاتون في رمضان سنة ٤٨٧هـ^(٤).

ثانياً: السلطان برکیارق^(٥):

١ - اسمه ولقبه:

هو السلطان برکیارق بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن سلجوق بن دقماق السلجوقي.

(١) انظر تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والإجتماعي ٤/٤٠، ٤١.

(٢) هو إسماعيل بن ياقوتى بن داود، خال برکیارق وابن عم ملكشاه، وكان أميراً على أذربيجان. انظر الكامل في التاريخ ١٠/٢٢٤.

(٣) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ٢١٨.

(٤) المرجع السابق ص ٢١٩.

(٥) برکیارقوق: بفتح الباء الموحدة، وسكون الراء والكاف، وفتح الياء المثناة من تحتها وبعد الألف راء مضمومة وواو ساكنة. انظر وفيات الأعيان ١/٢٦٨، ٢٦٩.

أما لقبه: ركن الدين أبو المظفر شهاب الدولة، مجد الملك، ويلقب أيضاً بهاء الدولة^(١).

٢ - مولده^(٢):

ولد السلطان بركياروق بأصفهان في المحرم من سنة ٤٧٤ هـ^(٣).

٣ - توليه السلطنة:

خطب للسلطان بركياروق بالسلطنة يوم الجمعة الرابع عشر من شهر المحرم سنة ٤٨٧ هـ، وأرسل إلى الخليفة المقتدى بأمر الله يطلب الخطبة، فأجيب إلى ذلك، وخطب له، ولقب بركن الدين^(٤).

٤ - أهم الحوادث التي تمت في عهده:

بعد إصابة السلطان محمود بالجدري وموته سنة ٤٨٧ هـ، عظم شأن السلطان بركياروق وكثر عسكره^(٥)، واستطاع أن يهزم عمه تتش سنة ٤٨٨ هـ، وأن يقضى على فتنته^(٦)، وكذلك استطاع السيطرة على خراسان وكانت بيد عمه أرسلان أرغون بعد مقتله على يد أحد غلمانه سنة ٤٩٠ هـ، وتسليمها إلى أخيه سنجر^(٧)، وبعد أن جعل

(١) المرجع السابق ٢٦٨/١، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٨٨/٥، سير أعلام النبلاء ١٩٥/١٩.

(٢) ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٤٧١ هـ أن ولادته كانت سنة ٤٧١ هـ. انظر الكامل في التاريخ ١١٢/١٠، وهذا خطأ لأنه هو نفسه يقول إن موته كان في سنة ٤٩٨ هـ، وكان عمره ٢٥ سنة. المرجع السابق ٣٨١/١٠.

(٣) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ٢١٤، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٢٦٨/١، أخبار الدولة السلجوقية ص ٧٨.

(٤) انظر الكامل في التاريخ ٢٢٩/١٠.

(٥) المرجع السابق ٢٣٤/١٠، ٢٣٥.

(٦) المرجع السابق ٢٤٤/١٠، ٢٤٥.

(٧) انظر الكامل في التاريخ ٢٦٢/١٠-٢٦٥.

بركياروق أخاه سنجر على خراسان عاد إلى العراق، ولكن في سنة ٤٩٢ هـ هدد نفوذه أخوه محمد الذي قام في وجهه مطالباً بالسلطنة بتأييد مؤيد الملك بن نظام الملك^(١)، واستطاع السلطان محمد الحصول على الخطبة من الخليفة العباسي المستظهر العباسي، فخطب له يوم الجمعة سابع عشر من ذى الحجة سنة ٤٩٢ هـ ولقب غياث الدنيا والدين^(٢).

وهكذا وجد سلطانان في وقت واحد معترف بهما من الخليفة العباسي^(٣)، وقد طالعت الحروب بين محمد وأخيه بركياروق نحواً من خمس سنين (٤٩٢-٤٩٧ هـ) ودارت بينهما خمس معارك طاحنة انتهت بانتصار بركياروق على أخيه محمد^(٤).

وفي سنة ٤٩٧ هـ وقع الصلح بين السلطانين بركياروق ومحمد وذلك لأن الحروب تطاولت بينها، وعم الفساد، فصارت الأموال منهوبة، والدماء مسفوكة، والبلاد مخربة، والقرى محرقة، والسلطنة مطموعاً فيها، محكوماً عليها، وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قاهرين، وكان الأمراء الأكابر يؤثرون ذلك ويختارونه ليدوم تحكمهم، وانبساطهم وإذلالهم، وكان السلطان بركياروق حينئذ في الرى والخطبة له بها، وبالجبيل وطبرستان وخوزستان، وفارس وديار بكر والجزيرة وبالحرمين الشريفين، وكان السلطان محمد بأذربيجان والخطبة له فيها، وببلاد أرانية وأرمينية وأصبهان والعراق كلها ما عدا تكريت، وأما أعمال البطائح فيخطب ببعضها لبركياروق وبعضها لمحمد، وأما البصرة فكان يخطب فيها لهما، وأما خراسان فإن السلطان سنجر كان يخطب له في جميعها، وهي من حدود جرجان إلى ماوراء النهر، ولأخيه محمد، فلما رأى السلطان بركياروق المال عنده معدوماً، والطمع من العسكر زائداً أرسل إلى أخيه محمد طالباً للصلح، فأجابه إلى ذلك، وتم الصلح بينهما على ما يلي:

(١) انظر تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ٤/٤٢٠.

(٢) انظر الكامل في التاريخ ١٠/٢٨٩.

(٣) انظر سلاجقة إيران والعراق ص ٩٢.

(٤) انظر تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ٤/٤٢٠، ٤٣.

- (١) أن السلطان بركياروق لا يعترض أخاه محمد في ضرب الطبول.
 - (٢) أن لا يذكر معه على سائر البلاد التي صارت له.
 - (٣) أن يكون الاتصال بينهما عن طريق الوزراء.
 - (٤) ألا يتعرض أحد العسكريين لعسكر الآخر في قصد أيهما شاء.
 - (٥) أن يكون للسلطان محمد من النهر المعروف بإسبيزود إلى باب الأبواب وديار بكر والجزيرة والموصل والشام، ويكون له من بلاد العراق بلاد سيف الدولة صدقة، فأجابه السلطان بركياروق إلى هذا.
- ولما وصلت رسل السلطان بركياروق إلى الخليفة المستظهر بالله بالصلح أقيمت الخطبة لبركياروق ببغداد يوم الخميس تاسع عشر من جمادى الأولى سنة ٤٩٧هـ^(١).
- ٥ - وزراءه :

استوزر السلطان بركياروق:

- (١) الوزير عز الملك الحسين بن نظام الملك.
- (٢) الوزير مؤيد الملك أبو بكر بن نظام الملك.
- (٣) الوزير فخر الملك بن نظام الملك.
- (٤) الوزير أعز الملك عبد الجليل الدهستاني.
- (٥) الوزير مجد الملك أبو الفضل القمي^(٢).

٦ - صفاته الخلقية والخلقية :

أما بالنسبة لصفاته الخلقية: فقد كان مليح الوجه، معتدل القامة، مقرون الشارب واللحية، مقرون الحاجبين^(٣).

(١) انظر الكامل في التاريخ ١٠/٣٦٩-٣٧١.

(٢) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ٢١٤.

(٣) المرجع السابق ص ٢١٤.

أما عن صفاته الخُلقية: فقد وصفه ابن الأثير بأنه: كان حليماً، كريماً صبوراً، عاقلاً، كثير المداراة، حسن القدرة، لا يبالغ في العقوبة، وكان عفوه أكثر من عقوبته^(١)، ووصفه ابن خلكان بقوله: كان السلطان بركياروق مسعوداً، عالي الهمة ولم يكن فيه عيب سوى ملازمته للشراب والإدمان عليه^(٢)، وهذا من كبائر الذنوب، ورأس كل مصيبة، إن أصيب به آحاد الرعية هلك، فما بالناس بحاكم يحمل عبء رعيته، وقد ابتلي بشرب الخمر والإدمان عليها.

٧ - وفاته :

توفي السلطان بركياروق في الثامن عشر من ربيع الآخر، وقيل الأول سنة ثمان وتسعين وأربعمائة بروجرد^(٣)، وأقام في السلطنة اثنتي عشرة سنة وأشهرًا^(٤).

والشئ الجدير بالملاحظة أن بركياروق ترك الدولة السلجوقية بعد أن تجزأت، وصار كل جزء منها يتبع والياً يكاد يكون مستقلاً، فكانت الأجزاء الشرقية من الدولة تخضع لحكم سنجر بينما تخضع الأجزاء الشمالية لسيطرة أخيه محمد، وكانت بلاد الشام في قبضة أبناء تنتش، وكانت أسيا الصغرى تحت حكم أبناء سليمان بن قتلش، وكان كل حاكم يسيطر سيطرة مطلقة على الأقاليم الخاضعة لنفوذه، فنقسمت تلك الدولة السلجوقية العظيمة، فلم تعد ترى تلك الصورة الرائعة من الاتحاد والتماسك بين أجزاء الدولة السلجوقية المترامية الأطراف التي كانت واضحة المعالم في عهد طغرل وألب أرسلان وملکشاه، ولم تتضح هذه الصورة إلا في خلال جزء من عصر

(١) انظر الكامل في التاريخ ٣٨١/١٠.

(٢) انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٢٦٨/١.

(٣) بروجرد: بضم الباء الموحدة والراء وسكون الواو وكسر الجيم وسكون الراء وبعدها مهملة، بلدة على ثمانية عشر فرسخاً من همذان. المرجع السابق ٢٦٩/١.

(٤) المرجع السابق ٢٦٨/١، سير أعلام النبلاء ١٩٦/١٩، الكامل في التاريخ ٣٨٠/١٠، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٤١٩/٥، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٨٨/٥، أخبار الدولة السلجوقية ص ٧٨.

سنجر^(١).

ثالثاً: السلطان ملكشاه بن بركياروق:

عهد السلطان بركياروق لولده ملكشاه بالسلطنة قبل موته، وأوصى به الأمير إياز، فتوجه بالصبي إلى بغداد ونزل به دار المملكة وعمره أربع سنين وعشرة أيام، وأجلسه على تخت الملك مكان أبيه بركياروق، وخطب له ببغداد في جمادى الأولى، فلم يتم أمر الصبي، وملك عمه محمد بن ملكشاه الذي كان ينازع أخاه بركياروق، وقتل الأمير إياز^(٢).

رابعاً: السلطان محمد بن ملكشاه:

١. اسمه:

هو محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق^(٣).

٢ - مولده:

ولد السلطان محمد بن ملكشاه في شهر شعبان سنة ٤٧٤هـ أربع وسبعين وأربعمائة من الهجرة^(٤).

٣ - توليه السلطنة:

تقررت السلطنة لمحمد بن ملكشاه عند وفاة أخيه ركن الدين بركياروق سنة ٤٩٨هـ، وكان الأمير إياز أتابك السلطان ملكشاه بن بركياروق، قد أخذه عند وفاة والده وهرب به من مكان إلى مكان حتى دخل في طاعة السلطان محمد وقتل إياز، وتسلم ملكشاه عمه السلطان محمد^(٥)، وبذلك صفت له السلطنة، وعظمت هيئته

(١) انظر سلاجقة إيران والعراق ص ٩٤، ٩٥.

(٢) انظر النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٨٨/٥.

(٣) انظر البداية والنهاية ١٨٠/٢، ١٨١.

(٤) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ٢٣٤، الكامل في التاريخ ٥٢٥/١٠.

(٥) انظر أخبار الدولة السلجوقية ص ٧٩.

وكثررت جيوشه وأمواله، وكان اجتماع الناس عليه اثنتي عشرة سنة وستة أشهر.

٤ - وزرائه :

استوزر للسلطان محمد بن ملكشاه:

- (١) مؤيد الملك أبو بكر بن نظام الملك.
- (٢) خطير الملك أبو منصور الميبذى.
- (٣) سعد الملك الأبي.
- (٤) نظام الملك أحمد بن نظام الملك.
- (٥) ربيب الملك أبو منصور القيراطى^(١).

٥ - صفاته الخلقية والخلقية :

أما بالنسبة لصفاته الخلقية: فقد كان السلطان محمد شديد الطول، مفروق الحاجبين، يميل وجهه إلى الصفرة قليلاً، وكانت لحيته سوداء غزيرة تميل إلى الطول^(٢).

أما عن صفاته الخلقية: فقد وصفه ابن خلكان بقوله: رجل الملوك السلجوقية وفحلهم، وله الآثار الجميلة والسيرة الحسنة، والمعدلة الشاملة، والبر للفقراء والأيتام، والحرب للطائفة الملحدة والنظر في أمور الرعية^(٣)، ووصفه ابن الأثير بأنه: كان عادلاً، حسن السيرة شجاعاً، فمن عدله: أنه اشترى مماليك من بعض التجار، وأحالهم بالثمن على عامل خوزستان فأعطاهم البعض، ومطل بالباقي، فحضرُوا مجلس الحكم وأخذوا معهم غلمان القاضى، فلما رآهم السلطان قال لحاجبه: انظر ما حال هؤلاء، فسألهم عن حالهم، فقالوا: لنا خصم يحضر معنا مجلس الحكم، فقال من هو؟

(١) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ٢٣٤.

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٤.

(٣) انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٧٢/٥.

قالوا السلطان، وذكروا قصتهم، فأعلمه ذلك فاشتد عليه وأكرهه، وأمر باحضار العامل، وأمره بإيصال أموالهم، والجعل الثقيل، ونكل به حتى يمتنع غيره عن مثل فعله، ثم إنه كان يقول بعد ذلك: لقد ندمت ندماً عظيماً حيث لم أحضر معهم مجلس الحكم، فيقتدى بي غيري، ولا يمتنع أحد عن الحضور فيه وأداء الحق.

ومن عدله: أنه أطلق المكوس والضرائب في جميع البلاد، ولم يعرف منه فعل قبيح، وعلم الأمراء سيرته، فلم يقدم أحد منهم على الظلم وكفوا عنه^(١).

٦ - وفاته :

توفى السلطان محمد بن ملكشاه يوم الخميس الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة إحدى عشرة وخمسائه بمدينة أصبهان وعمره سبع وثلاثون سنة وأربعة أشهر وستة أيام، وهو مدفون بأصبهان في مدرسة عظيمة، وهو موقوفة على الطائفة الحنفية، وليس بأصبهان مدرسة مثلها.

ولما أيس من نفسه أحضر ولده محموداً، وقبله وبكى كل واحد منهما، وأمره أن يخرج ويجلس على تخت السلطنة، وينظر في أمور الناس، فقال لوالده: إنه يوم غير مبارك، يعنى من طريق النجوم، فقال صدقت ولكن على أبيك، وأما عليك فمبارك عليك بالسلطنة، فخرج وجلس على التخت بالتاج والسوارين^(٢).

ولما مات السلطان محمد أحضر الأمراء وأعلموا بوفاته، وقرئت وصيته إلى ولده محمود يأمره بالعدل والإحسان، وخطب للسلطان محمود بالسلطنة يوم الجمعة في الخامس والعشرين من ذى الحجة سنة ٥١١هـ^(٣).

وكان إذ ذاك في الرابعة عشرة من عمره، ووافق الخليفة المستظهر بالله العباسي على ذلك، فذكر اسم السلطان محمود في الخطبة في بغداد، ولكن عمه سنجر والى

(١) انظر الكامل في التاريخ ١٠/٥٢٦، ٥٢٧.

(٢) انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٥/٢٣.

(٣) انظر الكامل في التاريخ ١٠/٥٢٥.

خراسان وما وراء النهر استتكتف أن يكون تابعاً لابن أخيه، فأعلن نفسه سلطاناً على السلاجقة، وهكذا نجد سلطانان في وقت واحد، وظهرت على الدولة علامات الانقسام، وبدا واضحاً في ذلك الوقت أن دولة السلاجقة الرئيسية في إيران والعراق قد صارت قسمين متميزين: سلاجقة الشرق أو سلاجقة خراسان ويمثلهم السلطان سنجر، وسلاجقة الغرب أو سلاجقة العراق ويمثلهم السلطان محمود، وأخذ كل من المعسكرين يكدد للأخر فاشتعلت الحرب بينهما وكان النصر حليف السلطان سنجر فاعترف له الخليفة العباسي بالسلطنة^(١).

وسأكمل حديثي عن سلاجقة خراسان إلى أن انتهت دولة السلاجقة في خراسان ثم في العراق.

سلاجقة خراسان:

خامساً: السلطان سنجر^(٢) السلجوقي:

١ - اسمه ولقبه:

أما اسمه: سنجر بن السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان بن جغرى بك بن ميكائيل بن سلجوق الغزى التركى السلجوقى.

واسمه بالعربى: أبو الحارث أحمد بن حسن بن محمد بن داود^(٣).

وأما لقبه: لقب السلطان سنجر بألقاب عديدة منها:

السلطان الأعظم معز الدنيا والدين، ملك الإسلام والمسلمين، يمين أمير المؤمنين^(٤).

(١) انظر سلاجقة إيران والعراق ص ١٠٩.

(٢) سمي سنجر نسبة إلى مدينة سنجار التي ولد بها. انظر الكامل في التاريخ ١٠/١٤١.

(٣) انظر سير أعلام النبلاء ٢٠/٣٦٢.

(٤) انظر أخبار الدولة السلجوقية ص ٨٤.

٢ - مولده:

ولد السلطان سنجر يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة ٤٧٩ هـ تسع وسبعين وأربعمائة بظاهر مدينة سنجار^(١).

٣ - توليه السلطنة:

كان السلطان سنجر والياً على خراسان وما وراء النهر من قبل أخويه بركياروق ومحمد^(٢)، ولما مات محمد خوطب سنجر بالسلطان، واستقام أمره وأطاعه السلاطين، وخطب له على أكثر منابر الإسلام بالسلطنة نحو أربعين سنة^(٣)، ولم يملك أحد من الخلفاء والسلاطين هذه المدة فإنها تقارب الستين سنة^(٤)، وخطب له بالعراقين وأذربيجان وأران وأرمينية والشام والموصل وديار بكر وربيعة والحرمين، وضربت السكة باسمه في الخاقين^(٥).

٤ - أهم الأحداث في عهد السلطان سنجر:

قام السلطان سنجر بتسعة عشر فتحاً منذ ابتداء عهده ومنذ صار ملكاً على خراسان من قبل أخيه بركياروق، إلى أن انقضت أربعون سنة من حكمه، لم يصبه فيها وهن، ولا حلت به هزيمة قط، وقد استولى على «غزنة»، ولم يغزها شخص من آل سلجوق قبله وأجلس «بهرامشاه» من أبناء الغزنويين على العرش، وقرر أن يؤدي إلى خزائنه يومياً ألف دينار من عوائد المدينة، كما استولى أيضاً على ملك «سمرقند»، وكان سبب ذلك أن «أحمد خان» كان قد عصى بعد وفاة «بركياروق»، فحاصر سنجر المدينة أربعة أشهر، واستولى عليها في سنة أربع وعشرين وخمسائة،

(١) انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٤٢٨/٢، الكامل في التاريخ ١٠/١٤١.

(٢) انظر سلاجقة إيران والعراق ص ١١١.

(٣) انظر الكامل في التاريخ ١١/٢٢٢.

(٤) انظر المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٨/١٢١.

(٥) انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٢/٤٢٧.

وأسر «أحمد خان»، واستخلص جملة ولايات كانت في قبضة أبيه ملكشاه، كما أخضع ملك «سجستان» و«خوارزم» تحت حكمه، ومنح «اتسز بن محمد بن نوشتكين» ملك خوارزم، وأعطى «تاج الدين الأمير أبا الفضل» ملك «نيمروز» بـ«زابلستان»، وكان قائد جيشه في أغلب حروبه العظيمة، وكانت له مواقف مجيدة في موقعتي «غزنة» و«بيلان»^(١).

٥ - وزرائه :

تولى الوزارة للسلطان سنجر :

- (١) معين الدين مختص الكاش.
- (٢) شهاب الدين أبو المحاسن بن الفقيه الأجل أخى نظام الملك.
- (٣) شرف الدين أبو طاهر ماميسا القمى.
- (٤) يغان بك الكاشغرى.
- (٥) قوام الدين أبو القسم.
- (٦) ناصر الدين طاهر بن فخر الملك^(٢).

٦ - صفاته الخلقية والخلقية :

بالنسبة لصفاته الخلقية: فقد كان السلطان سنجر قمحى اللون، مجدر الوجه، تام اللحية طويلاً وعرضاً، غير أن بعض شاربه تلاشى بسبب الجدرى، وكان عالى المنكبين، فارع الطول، رحب الصدر^(٣).

أما عن صفاته الخلقية: فقد كان السلطان سنجر مهيباً كريماً رقيقاً بالرعية،

(١) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ٢٥٧، ٢٥٨.

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٥، ٢٥٦.

(٣) المرجع السابق ص ٢٥٥.

وكانت البلاد في زمانه آمنه^(١)، وصفه «ابن خلكان» بقوله: كان من أعظم الملوك همة، وأكثرهم عطاء، نكر عنه أنه اصطبح خمسة أيام متوالية ذهب في الجود بها كل مذهب، فبلغ ما وهبه من العين سبعمائة ألف دينار، غير ما أنعم به من الخيل والخلع والأثاث وغير ذلك، وقال خازنه: اجتمع في خزائنه من الأموال ما لم أسمع أنه اجتمع في خزائن أحد من الملوك الأكاسرة، وقلت له يوماً: حصل في خزائنك ألف ثوب ديباج أطلس وأحب أن تبصرها فسكت، وظننت أنه رضى بذلك، فأبرزت جميعها، وقلت أما تنظر إلى مالك؟ أما تحمد الله على ما أعطاك وأنعم عليك؟ فحمد الله تعالى، ثم قال: يقبح بمثلي أن يقال مال إلى المال، وأمر الأمراء بالإذن في الدخول عليه فدخلوا عليه، ففرق عليهم الثياب الطلس وانصرفوا، واجتمع عنده من الجوهر ألف وثلاثون رطلاً، ولم يسمع عند أحد من الملوك بمثل هذا ولا بما يقاربه^(٢).

٧ - وفاته:

توفى السلطان سنجر يوم الاثنين رابع عشر من شهر ربيع الأول سنة اثنين وخمسين وخمسائة بمرو، ودفن بها بعد خلاصة من الأسر، وانقطع بموته استبداد الملوك السلجوقية بخراسان، واستولى على أكثر ملكه خوارزم شاه أتسز بن محمد أنوشتكين، وهو جد السلطان محمد بن تكش خوارزم شاه، وذكر ابن الأزرقي الفارقي في تاريخه أنه مات سنة خمسة وخمسين وخمسائة، وقال غيره: توفى في جمادى الآخرة من هذه السنة، وقطعت الخطبة ببغداد للسلجوقية عند وصول خبر وفاته في أيام المقتفى لأمر الله، وكتب إلى بلاد الجزيرة الفراتية والشام بقطع الخطبة في هذه السنة^(٣).

(١) انظر الكامل في التاريخ ٢٢٢/١١.

(٢) انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٤٢٧/٢، ٤٢٨.

(٣) المرجع السابق ٤٢٨/٢.

سلاجقة العراق:

سبق أن أشرت إلى أن السلطان محمد بن ملكشاه أوصى لابنه محمود بالسلطنة من بعده، ولكن السلطان سنجر لم يعترف له بها، واستكف أن يكون تابعاً لابن أخيه، ودارت بينهما حروب انتهت بانتصار سنجر وتزعمه لدولة السلاجقة، وكان من يتولى الحكم في العراق تابعاً له، ولكن بدا الانقسام واضحاً بينهم، فكان كل منهم يلقب بلقب سلطان، رغم وجود سنجر السلطان الأعظم في خراسان لذا سأقتصر على ترجمة من ذكر من السلاطين الذين حكموا العراق بعد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه، سواء في عهد سنجر أو من بعده إلى أن انتهت دولتهم في العراق سنة ٥٩٠هـ والحقبة الزمنية التي تولاها كل منهم، وإليك بيان ذلك:

أسماء سلاطين السلاجقة الذين تولوا الحكم في العراق وفترة كل منهم:

م	الاسم	تاريخ توليته الحكم	مدة الحكم
١	محمود بن محمد بن ملكشاه	٥١١-٥٢٥هـ / ١١١٧-١١٣٠م	١٤ سنة تقريباً
٢	داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه	٥٢٥-٥٢٦هـ / ١١٣٠-١١٣١م	سنة تقريباً
٣	طغرل بن محمد بن ملكشاه	٥٢٦-٥٢٩هـ / ١١٣١-١١٣٥م	٣ سنوات تقريباً
٤	مسعود بن محمد بن ملكشاه	٥٢٩-٥٤٧هـ / ١١٣٥-١١٥٢م	١٨ سنة تقريباً
٥	ملكشاه بن محمود بن محمد بن ملكشاه	٥٤٧-٥٤٧هـ / ١١٥٢-١١٥٢م	أربعة أشهر تقريباً

م	الاسم	تاريخ توليته الحكم	مدة الحكم
٦	محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه	٥٤٨-٥٥٤هـ/١١٥٣م	٧ سنوات تقريباً
٨	سليمان بن محمد بن ملكشاه	٥٥٥-٥٥٥هـ/١١٦٠م	٦ أشهر تقريباً
٩	أرسلان بن طغرل بن محمد	٥٥٦-٥٧١هـ/١١٦٠م	١٥ سنة تقريباً
١٠	طغرل بن أرسلان بن طغرل	٥٧١-٥٩٠هـ/١١٧٦م	١٩ سنة تقريباً

هؤلاء هم السلاطين الذين تولوا الحكم في العراق إلى أن انتهت دولة السلاجقة على أيدي الخوارزميين سنة ٥٩٠هـ.

أسباب سقوط الدولة السلجوقية:

من المعلوم لدينا جميعاً أن سنن الله تعالى لا تحابي أحداً، وهذا على مستوى الأفراد والجماعات والدول، فإذا التزم الفرد أو الدولة بما أنزل الله تعالى من شرائع، وبما احتوته هذه الشرائع من أوامر ونواهي، وصل إلى مستوى الرقى في جميع المجالات الدينية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية وغيرها، وذلك لأنه التزم بالمنهج الرباني الذي أنزله الذي يعلم ما يصلح الفرد والمجتمع، ولما كانت الدولة السلجوقية خاصة في فترتها الأولى التزمت بهذا المنهج الرباني، وتمسكت به، وعملت على تطبيقه في جميع المجالات، فقد ارتقت في كل نواحي الحياة، ولما تخلت عن المنهج الرباني، وبدأ الشقاق والتنازع حول العرش يعلو فوق مصلحة الإسلام والمسلمين، كان لا بد لهذه الدولة أن تصل إلى خط النهاية، وأن تسقط فهذه سنة الله تعالى في الكون.

ولقد تضافرت عدة عوامل على سقوط دولة السلاجقة منها :

- (١) «الصراع داخل البيت السلجوقي بين الأخوة والأعمام والأبناء والأحفاد.
- (٢) تدخل النساء في شؤون الحكم.
- (٣) إنكفاء نار الفتنة بين الحكام السلاجقة من قبل بعض الأمراء والوزراء والآتابك.
- (٤) ضعف الخلفاء العباسيين الذين تميزوا بالضعف أمام القوة العسكرية السلجوقية، فلم يتورعوا عن الاعتراف بشرعية كل من يجلس على عرش السلطنة السلجوقية والخطبة لكل منتصر قوي.
- (٥) عجز الدولة السلجوقية عن توحيد بلاد الشام ومصر والعراق تحت راية الخلافة العباسية.
- (٦) الانقسام الداخلي بين السلاجقة والذي وصل إلى المواجهة العسكرية المستمرة، وهذا ما أنهك قوة السلاجقة حتى انهارت سلطنتهم في العراق.
- (٧) المكر الباطني بالدولة السلجوقية وتمثل ذلك في حملة التصفيات والمحاولات المستمرة لاغتيال سلاطين السلاجقة وزعمائهم وقاداتهم.
- (٨) الغزو الصليبي القادم من وراء البحار وصراع الدولة السلجوقية مع جحافل الغزو الوحشية القادمة من أوروبا»^(١).
- (٩) وأهم الأسباب التي أدت إلى نهاية الدولة السلجوقية هو حرص الدول المتقدمة في كل زمان على إحداث الشقاق والخلاف بين الدول الإسلامية، فمثلا في العصر الحاضر إذا كانت إيران تمتلك السلاح النووي فمن أعظم المهام عند الدول الغربية هو القضاء عليها، وإذا نهضت مصر في مجال من المجالات تأرقت تلك الدول، وعزمت على زرع الفتنة بين أبنائها لإعاقة هذا التقدم، فشعار الغرب دائما «فرق تسد»، فعندما لاحظوا تقدم الدولة السلجوقية وخاصة

(١) انظر دولة السلاجقة ص ١٧٩.

في عصرها الأول عملوا على الوقيعة بين أبنائها، وذلك للقضاء عليهم كما يحدث الآن في كثير من الدول الإسلامية.

إلى غير ذلك من الأسباب التي أدت في النهاية إلى سقوط دولة السلاجقة.

«وجدت بالذکر أن الدولة السلجوقية بدأت سنة ٤٢٩ هـ وانتهت سنة ٥٩٠ هـ، أي استمرت ما يقرب من ١٧١ سنة، سيطرت خلالها على مساحات شاسعة من قارة آسيا، ونشرت الإسلام في بلاد لم يصلها الإسلام مثل آسيا الصغرى، وساهمت بدور كبير في ازدهار الحضارة الإسلامية، وتقدم الفكر الإسلامي»^(١).

وهكذا قامت الدولة السلجوقية وانتهت، وهذه سنة الله تعالى في الأرض.



(١) انظر د/عصام الدين عبد الرؤوف الفقى: الدول الإسلامية المستقلة في المشرق الإسلامي منذ مستهل العصر العباسي حتى الغزو المغولي (دراسة لدول آسيا الوسطى الكومنولث) ص ١٥٨، ط دار الفكر العربي القاهرة سنة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

الفصل الثاني

منهج الدولة السلجوقية

في حماية الدعوة الإسلامية والحفاظ عليها

الفصل الثاني

منهج الدولة السلجوقية في حماية الدعوة الإسلامية والحفاظ عليها

تمهيد:

تعريف المنهج لغة:

المنهج: الطريق الواضح، كالمنهج والمنهاج.....، وأنهج: وضح وأوضح^(١)، واستنهج الطريق: صار نهجاً، ونهجت الطريق أبنته، وأوضحته، يقال: اعمل على ما نهجته لك، ونهجت الطريق سلكته، وفلان يستنهج سبيل فلان أي يسلك مسلكه، والمنهج: الطريق المستقيم^(٢).

تعريف المنهج في الاصطلاح:

لقد عرف المنهج في الاصطلاح بتعريفات كثيرة منها:

- (١) الطريقة الواضحة التي يسلكها الداعية في دعوته ليميز بها، سواء سبق بذلك أم لم يسبق^(٣).
- (٢) مجموعة من القواعد العامة المصوغه من أجل الوصول إلى الحقيقة في العلم^(٤).
- (٣) فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، إما من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون بها جاهلين، أو من أجل البرهنة عليها للآخرين حين نكون

(١) انظر القاموس المحيط مادة (نهج) ص ٢٣٣.

(٢) انظر لسان العرب مادة (نهج) ٣٠٠/١٤.

(٣) انظر الجزيرة العربية ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٢١٥.

(٤) انظر د/عبد المنعم صبحي أبو شعيشع: منهج الدعوة ص ٤، ط الكليات الأزهرية الأولى سنة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، نقلاً عن د/محمد عبد الله الشرقاوي: مناهج البحث والتفكير العلمي ص ٦.

بها عارفين^(١).

من خلال ما سبق يتضح أن: هناك عدة تعريفات للمنهج، والواضح من خلال هذه التعريفات أنها كلها متقاربة في المعنى وليس بينها تفاوت كبير. والمنهج الذي أقصده في موضوع الكتاب هو الطريقة التي سار عليها السلاجقة في حماية الدعوة الإسلامية والحفاظ عليها، والتعريف الذي أميل إليه وأرتضيه أن المنهج هو النظام الواضح الذي يسير عليه الداعية في دعوته إلى الله عز وجل سواء سبق بذلك أم لم يسبق.



(١) انظر د/عبد المنعم صبحي أبو شعيشع: منهج الدعوة ص ٤.

المبحث الأول

منهج الدولة السلجوقية

فيما يتعلق بالخلافة العباسية وأثره في الدعوة

لقد ظهرت الدولة السلجوقية في وقت كانت تعاني فيه الخلافة العباسية من الضعف الشديد، نظراً لظروف هذه الفترة والتي تتمثل في ظهور دويلات كثيرة منها سنية مثل: السامانيين والغزنويين، وأخيراً السلاجقة، أو دول شيعية مثل: البويهيين، والتي كانت دائماً تحاول السيطرة على الخلافة العباسية، وإن كانت تتفاوت هذه السيطرة من دولة إلى أخرى، (ونظراً لأن الدولة السلجوقية اعتنقت الإسلام على المذهب السني وهو مذهب الخلافة العباسية، إما طمعاً في التقرب إليها وإما اعتقاداً بأفضليته على سائر المذاهب، وفي الحالتين كان لهذه الرابطة العقائدية أثرها في نفوسهم من حيث تخفيف ضغطهم على الخلفاء، واحترامهم لهم، وحذرهم من الاختلاف معهم.....، بهذا الوزع الديني الذي أخذ يستولى على نفوسهم، ويقوى في أعماقهم كلما مرت الأعوام قد أبدى سلاطين السلاجقة ولا سيما الأول منهم الطاعة والولاء مما لم يشهده خلفاء بنى العباس منذ عهد آل بويه الذين اعتنقوا التشيع وحسنت صلتهم مع الفاطميين بواسطته، وبهذا الدافع حاول هؤلاء السلاطين أن يظهروا أمام الخليفة بمظهر الفاتح القوى من جهة والمنفذ المطيع من جهة أخرى)^(١).

وتعد سنة ٤٣٢ هـ بداية الاتصال بين السلاجقة وخلفاء بنى العباس، ففي هذه السنة أنفذ السلاجقة إلى الخليفة القائم بأمر الله رسالة^(٢) يطلبون فيها اعتراف الخليفة

(١) انظر نظام الملك ص ٢٨٨، ٢٨٩.

(٢) وقد أوردت نص هذه الرسالة في الفصل الأول.

العباسي بقيام دولتهم^(١)، ولما وصلت رسالة السلاجقة إلى القائم بأمر الله سر بها كثيراً^(٢)، وأظهر الخليفة رغبته في التقرب إليهم، فأنفذ في سنة ٤٣٥ هـ قاضى القضاة أبا الحسن على بن محمد الماوردي إلى السلطان طغرلبيك السلجوقي ومعه رسالة تتضمن رغبة الخليفة في عقد الصلح بينه وبين الأمير البويهى أبى كالجبار، وتقبيح ما فعل أصحابه من فساد وتأمره بحسن معاملة الرعية^(٣).

ولما علم طغرلبيك أن رسول القائم بأمر الله في طريقه إليه خرج لاستقباله إجلالاً لرسالة الخليفة العباسي، وظل الماوردي في ضيافة طغرلبيك نحواً من سنة، ثم عاد إل بغداد^(٤).

كان لاعتراف الخليفة العباسي القائم بأمر الله بقيام دولة السلاجقة أثره في توثيق العلاقات بينه وبين طغرلبيك، فقد أخذت العلاقات بين الخليفة القائم بأمر الله وبين السلطان طغرلبيك تتوطد على مر الأيام فتبدلت الرسل والهدايا بينهما، فذكر ابن الأثير أن طغرلبيك أنفذ في سنة ٤٤٣ هـ رسالة إلى القائم بأمر الله يشكره على ما أنعم عليه به من الخلع والألقاب، كما أرسل إليه مع بعض رسله عشرة آلاف دينار عيناً وأعلاقاً نفيسة من الجواهر وخمسة آلاف دينار للخاصية، وألفى دينار لرئيس الرؤساء، وقد احتفى الخليفة العباسي برسول السلطان وأمر بإكرام وفادتهم^(٥).

على أن العلاقات بين طغرلبيك وبين الخليفة القائم بأمر الله التي اقتصررت في بادئ الأمر على تبادل الرسائل والهدايا، ما لبثت أن تطورت (حيث فكر الخليفة العباسي القائم بأمر الله في استدعاء الأتراك السلاجقة لحمايته، وضبط الأمور في العراق، وحماية المذهب السني مذهب الخلافة العباسية والسلاجقة، وكان السلطان

(١) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ١٦٦، ١٦٧.

(٢) المرجع السابق ص ١٦٨.

(٣) انظر المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٢٨٩/١٥.

(٤) انظر الكامل في التاريخ ٥٢٢/٩.

(٥) انظر تاريخ العراق والمشرق الإسلامي خلال العصر السلجوقي الأول ص ١١٦.

طغرلبيك ذكياً لماحاً، فلم تكن تلك الأخطار التي كانت تعاني منها الخلافة العباسية خافية عليه، فانتهاز الفرصة لمواصلة جهود السلاجقة لبسط نفوذهم على العراق^(١).

ورحب الخليفة العباسي بدخول طغرلبيك العراق، ويتجلى ذلك في الاستقبال الرائع الذي حظى به السلطان السلجوقي في حاضرة الخلافة، ذلك أن طغرلبيك حين وصل النهروان، أرسل إلى الخليفة العباسي يستأذنه في دخول بغداد، فأذن له، وخرج الوزير رئيس الرؤساء إلى لقائه في موكب عظيم من القضاة والنقباء والأشراف والشهود وأعيان الدولة، وصحبه أعيان الأمراء من عسكر الملك الرحيم، فلما علم طغرلبيك بمسيرهم لاستقباله أرسل إلى طريقهم الأمراء ووزيره أبا نصر الكندري، فلما وصل رئيس الرؤساء إلى السلطان أبلغه رسالة الخليفة، واستحلفه للخليفة والملك الرحيم وأمراء الأجناد، وسار طغرلبيك قاصداً بغداد فوصلها يوم الاثنين الخامس والعشرين من رمضان سنة ٤٤٧هـ^(٢).

وعلى هذه الشاكلة كان الاحترام متبادلاً بين الخليفة وآل سلجوق، لا يشوب صفوه كدر إلا في حالات نادرة حينما كانت تصطم الرغبة في السيادة والتوسع بالنفوذ، إذ كان الخلاف بين الجانبين من هذه الناحية مستمراً منذ نشأت الدولة السلجوقية، ويتجلى ذلك واضحاً في النزاع الذي قام بين طغرلبيك والخليفة القائم بأمر الله بسبب معارضته في إعطاء ابنته الأميرة العباسية إلى شيخ آل سلجوق، ولولا الضغط عليه من جهات متعددة لما وافق الخليفة على هذه الزيجة وإن كانت بشروط.

واستمرت هذه العلاقة هادئة رتيبة في عهد ألب أرسلان فلم يتقدم بطلب إلى دار الخلافة حتى وجد صداه يتردد في جوانبه قبولاً وتلبية، ولم يرغب الخليفة في أمر إلا وكان موضع عناية السلطان ألب أرسلان ورعاية وزيره^(٣).

(١) انظر السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري ص ٦٥.

(٢) انظر الكامل في التاريخ ٦١٠/٩.

(٣) انظر نظام الملك ص ٢٨٩.

ومن المواقف التي تدل على ذلك عندما أرسل إمبراطور الروم رسالة إلى الخليفة العباسي يطلب فيها أن يتوسط في عقد هدنة بينه وبين السلاجقة، ولما عرض القائم بأمر الله وساطته على السلطان ألب أرسلان بادر إلى قبولها، وأجاب دعوته إلى الصلح^(١)، غير أن الروم ما لبثوا أن نقضوا الهدنة وهاجموا بلاد السلاجقة، فاضطر ألب أرسلان إلى المسير لقتالهم، وأوقع بهم الهزيمة سنة ٤٦٣ هـ في موقعة ملازكرد^(٢)، وفي سنة ٤٦٤ هـ استجاب السلطان إلى طلب الخليفة العباسي بعزل شحنة بغداد آيتكين السليماني، وكان السلطان ووزيره نظام الملك قد أوفداه إلى بغداد، فقصده دار الخلافة وسأل الخليفة العفو عنه، فلم يجب إلى طلبه، واضطر السلطان إلى أن يرسل سعد الدولة كوهرائين بدلاً منه^(٣).

كذلك تبودلت بين السلطان السلجوقي ألب أرسلان وبين الخليفة العباسي الرسل والهدايا، وذلك تعبيراً عن توثيق العلاقات بينهما، كما أن السلطان أرسل إلى القائم بأمر الله يستطلع رأيه في جعل ولده ملكشاه ولي عهده، فوافق الخليفة على تعيينه، وأرسل وزيره عميد الدولة بن جهير إلى الرى يحمل للسلطان السلجوقي ولولده ملكشاه الخلع والعهد، وزيادة في توثيق العلاقة بينهما أمر الخليفة عميد الدولة أن يخطب ابنة السلطان لولى العهد المقتدى بأمر الله، فلما حضر عميد الدولة عند السلطان خطب ابنته، وعقد النكاح بظاهر نيسابور^(٤).

ظلت العلاقة بين السلطان ألب أرسلان والخليفة القائم بأمر الله هادئة، حتى توفي السلطان ألب أرسلان سنة ٤٦٥ هـ مقتولاً بيد أحد الثائرين، فخلفه في السلطنة ولي عهده ملكشاه^(٥)، ولما توطدت سلطنة ملكشاه بعث في سنة ٤٦٦ هـ إلى الخليفة القائم

(١) انظر المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٢٤/١٦، ١٢٥.

(٢) المرجع السابق ١٢٤/١٦، ١٢٥.

(٣) انظر الكامل في التاريخ ٧٠/١٠.

(٤) المرجع السابق ٧٠/١٠، ٧١.

(٥) انظر الكامل في التاريخ ٧٦/١٠، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٤٤، ٤٥.

بأمر الله العباسي يطلب تفويضاً لحكم البلاد، فجلس الخليفة العباسي جلوساً عاماً لهذه المناسبة، وحضر الاحتفال سعد الدولة كوهرائين رسولاً من قبل السلطان السلجوقي، حيث سلمه الخليفة عهد السلطان، وأمر وزيره فخر الدولة أن يقرأ أوله، وسلم إليه أيضاً اللواء بعد أن عقده الخليفة بيده^(١).

استمرت العلاقات بين الخليفة العباسي وبين السلطان السلجوقي يسودها الود إلى أن توفي الخليفة القائم بأمر الله في سنة ٤٦٧هـ، فبويع من بعده ابنه أبو القاسم عبد الله بن محمد بن القاسم بأمر الله الملقب بالمقتدى بأمر الله^(٢).

مرت العلاقات السلجوقية العباسية في عهد السلطان ملكشاه السلجوقي بمرحلتين: الأولى: تبودلت فيها الرسل والهدايا بين الخليفة العباسي وبين السلطان السلجوقي، واستمرت حتى سنة ٤٧١هـ، أما الثانية فقد تأزمت فيها العلاقات بين السلطان وبين الخليفة العباسي، ويرجع السبب في ذلك إلى تدخل ملكشاه في شئون الخلافة، فقد أنفذ رسالة إلى الخليفة المقتدى بأمر الله سنة ٤٧١هـ بطلب عزل فخر الدولة بن جهير من الوزارة، كما تضمنت عدم إنفاذ رسول من دار الخلافة إلى خراسان، وكان ذلك من تدبير الوزير السلجوقي نظام الملك لحقده على فخر الدولة وزير الخليفة المقتدى^(٣).

لم يستجب الخليفة العباسي إلى طلب السلطان ملكشاه فأنفذ إليه ملكشاه سعد الدولة كوهرائين شحنة بغداد وأمره بعزل فخر الدولة وزير المقتدى، فجاؤ كوهرائين إلى دار الخلافة مع فريق من الجند وطلب من الخليفة عزل وزيره فخر الدولة^(٤)، فأرسل المقتدى رسولاً إلى السلطان يشكو من تصرف الشحنة معه وتهديده إياه، فاعتدى أصحاب كوهرائين على رسول الخليفة ونهبوا ما كان معه، واستطاع كوهرائين بتهديده

(١) انظر الكامل في التاريخ ٩٠/١٠، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٤٧.

(٢) انظر الكامل في التاريخ ٩٤/١٠.

(٣) انظر تاريخ العراق والمشرق الإسلامي خلال العصر السلجوقي الأول ص ١٢٢، ١٢٣.

(٤) انظر المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٤٩٨/١٦.

ال خليفة أن يعزل فخر الدولة من الوزارة^(١).

أخذ المقتدى بأمر الله بعد أن ساءت علاقته بملكشاه ووزيره نظام الملك من جراء تدخلهما في شؤون الخلافة يتقرب إلى السلاجقة، فأوفد في سنة ٤٧٤هـ فخر الدولة بن جهير ليخطب له ابنة السلطان، وقد تمكن فخر الدولة بمعاونة الوزير السلجوقي من تحقيق رغبة الخليفة في مصاهرته للسلطان^(٢).

كان لهذه المصاهرة أثر كبير في تحسن العلاقات بين السلطان ملكشاه السلجوقي وبين الخليفة المقتدى بأمر الله العباسي، ففي سنة ٤٧٩هـ أرسل ملكشاه إلى الخليفة العباسي رسالة تتضمن الدعاء له لمواقفه تجاه المسلمين من رعاياه، وحرصه على صد الروم كما تضمنت الاعتذار عن تأخره، وأنه بسعادة الخدمة فتح حلب وأنطاكية وأطراف بلاد الروم المتاخمة لحدود الشام^(٣).

استمرت العلاقة بين السلطان ملكشاه والخليفة المقتدى بأمر الله بين شد وجذب إلى أن توفي السلطان سنة ٤٨٥هـ^(٤)، ونتيجة لضعف الخليفة العباسي لم يتردد في الاعتراف بسلطنة محمود بن ملكشاه بعدما أرسلت له ترکان خاتون زوجة ملكشاه في ذلك عقب وفاة السلطان سنة ٤٨٥هـ^(٥)، واستمر الحال بالخلفاء العباسيين على هذا الضعف تجاه السلاطين السلاجقة إلى أن تولى الخلافة المسترشد بالله العباسي سنة ٥١٢هـ^(٦)، فقد اتخذت العلاقات السلجوقية العباسية في عهده طابعاً جديداً، ويرجع السبب في ذلك إلى عزم الخليفة على التخلص من النفوذ السلجوقي الذي تطرق إليه الضعف والفساد بسبب المنازعات التي قامت بين السلاجقة حول السلطنة، وقد استغل

(١) المرجع السابق ١٦/١٩٨، ١٩٩، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٥١.

(٢) انظر الكامل في التاريخ ١٠/١٢٠.

(٣) انظر تاريخ العراق والمشرق الإسلامي خلال العصر السلجوقي الأول ص ١٢٤، ١٢٥.

(٤) انظر الكامل في التاريخ ١٠/٢١٠.

(٥) المرجع السابق ١٠/٢١٤.

(٦) المرجع السابق ١٠/٥٣٦.

الخليفة العباسي هذه المنازعات، وأخذ يتدخل في شئون السلطنة ويثير بعضهم ضد البعض الآخر، كما أخذ يتحين الفرص للإيقاع بهم جميعاً رغبة في الاستقلال بالعراق والاستئثار بالسلطنة.

أثر منهج الدولة السلجوقية فيما يتعلق بالخلافة العباسية في الدعوة:

لا شك أن الخلافة العباسية قبيل ظهور دولة السلاجقة وصلت إلى حالة يرثى لها، فالعالم الإسلامي عبارة عن دويلات صغيرة متنازعة، ومهمة الخلافة في ذلك الوقت هو الاعتراف بالدولة التي قامت على حساب دولة أخرى، ولا أدري هل كان هؤلاء الخلفاء العباسيون يشعرون بهذا الضعف أو أنهم يرون أن بقاءهم على ما هم فيه من سوء الحال هو خير من ابتعادهم؟ أم أن حب المنصب وما وراءه من دعة وترف يصل إلى حد قبول الذل^(١)، ولكن نجد أن الحال قد تغير عند دخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ هـ، فالسلاجقة ينظرون إلى الخليفة على أنه رأس الإسلام والمسلمين في العالم، ومن ثم يجب احترامه وتقديره، وازداد الأمر ارتباطاً بين آل سلجوق والخلفاء العباسيون بسبب المصاهرات التي حدثت بينهم، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه ما أثر هذا التغيير في العلاقة بين السلاجقة والخلافة العباسية على الدعوة الإسلامية؟

لا شك أن احترام وتقدير الخلافة أمر مهم وله تأثير على الإسلام وصورته أمام العالم، وإن كانت هذه الخلافة ضعيفة فوجودها أحسن بكثير من عدم وجودها، وما نحن فيه في العصر الحاضر (نتيجة لخلل في الحياة الإسلامية ينبغي أن يسد، نتيجة لفرغ ينبغي أن يملأ، الذي حدث أن المسلمين كانت لهم رابطة تربطهم، كانت لهم وحدة تجمعهم، كانت لهم قيادة مركزية تجسد وحدتهم، كان هناك شئ اسمه الخلافة، الخلافة معناها: وحدة إسلامية لها قيادة مركزية، ولكن هذه الرابطة فصمت، هذه القلعة هدمت، هذه المظلة هتكت، هذا الحصن حطم، لم يعد للمسلمين شئ يجمعهم،

(١) انظر أعييد التاريخ نفسه ص ١٤، ١٥.

لم يعد لهم قيادة تستطيع أن تستنفرهم في الأزمات، وتقول لهم: انفروا في سبيل الله، لم يعد هناك شئ يمكن أن يحكم بينهم في النزاعات، ويرد إليه الأمور المتنازع فيها^(١).

وتتضح الصورة أكثر عندما أقول إن اليهود في العصر العثماني عندما أرادوا أن يفكروا في تكوين دولة لهم في فلسطين، ووجدوا الخليفة العثماني عبد الحميد الثاني^(٢) واقفاً كحائط صد منيع ضد فكرتهم هذه، كان أول شئ فكروا فيه هو إسقاط هذه الخلافة العثمانية وإن كانت مريضة وإن كانت ضعيفة، إلا أن وجودها حال دون تكوين دولة يهودية على أرض فلسطين في ذلك الوقت، فوجود الخلافة هو حماية للدعوة الإسلامية، هو حماية للمقدسات الإسلامية، والسلاجقة حافظوا على وجود الخلافة فأكسبهم ذلك شرعية في جهادهم ضد البيزنطيين، وقبل ذلك أكسبهم شرعية في توحيد راية العالم الإسلامي تحت راية واحدة، مما كان له أثر كبير على انتشار الإسلام في ذلك الوقت وتوحيد راية المسلمين.



(١) انظر خطب الشيخ القرضاوى ١٧١/٣.

(٢) هو السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية، تولى عرش الدولة وهو في الرابعة والثلاثين من عمره، حيث كانت ولادته في ١٦ شعبان عام ١٢٥٨هـ - ١٨٤٢م، وللسلطان عبد الحميد خدمات جليلة للإسلام، من أهمها: موقفه من اليهود عندما أرادوا أن يفكروا في تكوين دولة لهم في فلسطين، فقام السلطان عبد الحميد بإرسال رسالة إلى هرتزل بواسطة صديقه نيولنسكي جاء فيها «انصح صديقك هرتزل ألا يتخذ خطوات جديدة حول هذا الموضوع؛ لأنني لا أستطيع أن أتنازل عن شبر واحد من الأراضي المقدسة، لأنها ليست ملكي بل هي ملك شعبي، وقد قاتل أسلافي من أجل هذه الأرض، ورووها بدمائهم، فليحتفظ اليهود بملايينهم، إذا مزقت دولتي فمن الممكن الحصول على فلسطين بدون مقابل، ولكن لزم أن يبدأ التمزيق أولاً في جنتنا، ولكن لا أوافق على تشريح جنتي وأنا على قيد الحياة».

انظر الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ص ٣٩٩ - ٤٤٦.

المبحث الثاني

منهج الدولة السلجوقية

فيما يتعلق بالخلافة الفاطمية وأثره في الدعوة

بينما كانت علاقة السلاجقة بالخلافة العباسية على قدر كبير من الولاء والتقدير بالنسبة للخلفاء العباسيين، كان الأمر مختلفاً تماماً بالنسبة لعلاقتهم بالخلفاء الفاطميين وأتباعهم، فقد اتسمت بالعداء الشديد الذي بلغ حداً كبيراً من التعصب. ظهرت الدولة السلجوقية في وقت كان الفاطميون يهتمون فيه اهتماماً كبيراً بنشر دعوتهم، على يد هبة الله الشيرازي، والذي قام بدور مهم في نشر الدعوة الفاطمية للخليفة المستنصر بالله الفاطمي ٤٢٧-٤٨٧هـ/١٠٣٥-١٠٩٤م في بلاد العراق وفارس، واستطاع جذب الملك الرحيم البويهى إلى دعوته^(١)، ونجحت جهود الخلفاء الفاطميين إلى حد كبير في نشر دعوتهم، حيث أقيمت الخطبة باسم الخليفة الفاطمي العزيز بالله في الموصل سنة ٣٨٢هـ على يد أميرها أبي الدرداء محمد بن المسيب بن رافع بن المقلد العقيلي^(٢)، كما تمكن الحاكم بأمر الله الفاطمي (٣٨٦-٤١١هـ) من استمالة الأمير قرواش بن المقلد أمير بني عقيل، فأقام الخطبة له بأعماله كلها وهي الموصل والأنبار والمدائن والكوفة وغيرها، وذلك في سنة ٤٠١هـ، ولكن الخليفة القادر بالله سارع إلى القضاء على هذه الحركة، وطلب من بهاء الدولة البويهى السير لقمعها، فأجبر الأمير العقيلي على التراجع وإعادة الخطبة للعباسيين^(٣)، كما استطاع الفاطميون أن يستميلوا كثيراً من أهل بغداد إلى دعوتهم، حتى تعصب الكثيرون منهم

(١) انظر السلاجقة تاريخهم السياسى والعسكرى ص ٦٥.

(٢) انظر سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٧٣.

(٣) انظر الكامل في التاريخ ٩/٢٢٣.

للخليفة الفاطمي، وكان الشيعة في بغداد يصيحون أثناء الفتنة التي حدثت بينهم وبين السنين في سنة ٣٩٨هـ قائلين (يا حاكم يا منصور)^(١)، وقد تأثر البويهيون إلى حد كبير بالمدّ الفاطمي في بلاد المشرق، فلما قبضوا على زمام السلطة في بغداد وضعف تبعاً لذلك مركز الخليفة فكروا في القضاء على الخلافة السنية وإقامة خلافة شيعية مكانها، وحاول معز الدولة ابن بويه (٣٣٤-٣٥٦هـ) إخراج هذه الفكرة إلى حيز العمل وذلك بنقل الخلافة العباسية إلى أحد العلويين، لكن خواصه حذروه من سخط الناس ومخالفتهم لأن عامتهم في الأقطار الإسلامية اعتادوا الدعوة العباسية وأطاعوا العباسيين طاعة لله ورسوله^(٢).

وممن تأثر بهذه الدعوة أيضاً أبو الحارث البساسيري، والذي رأى وجوب الانحياز إلى الفاطميين بعد أن ساءت علاقته بالخليفة العباسي، وأيقن من إعراضه عنه^(٣)، وكان ذلك سبباً في فتنة عظيمة عرفت في التاريخ الإسلامي باسم «فتنة البساسيري» سنة ٤٥٠هـ.

كان البساسيري مملوكاً تركياً للسلطان بهاء الدولة البويهى، ثم أخذ ينتقل في وظائف الدولة إلى أن عينه الخليفة القائم قائداً لحرسه، وقربه إليه حتى صار لا يقطع أمراً إلا بعد استشارته، وقد أثار ازدياد نفوذ البساسيري حقد الوزير أبى القاسم على بن مسلمة، فأخذ يكيد له ويفسد ما بينه وبين الخليفة حتى غضب عليه الخليفة القائم واضطر البساسيري إلى الهرب من بغداد والإقامة في مدينة الرحبة شمالاً على نهر الفرات، ولما دخل طغرلبيك بغداد، اتصل البساسيري بالخليفة الفاطمي في القاهرة، وطلب منه نجدة لفتح بغداد وطرد السلاجقة منها^(٤).

واستجاب الخليفة الفاطمي المستنصر لطلب البساسيري وأرسل إليه مدداً من

(١) انظر البداية والنهاية ١١/٣٣٨، ٣٣٩.

(٢) انظر سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٦٩.

(٣) المرجع السابق ص ١٨٦، ١٨٧.

(٤) انظر في التاريخ العباسي والفاطمي ص ١٨١، ١٨٢.

المال والثياب والأقواس والسيوف والرماح قال أبو المحاسن: (إن الذى وصل إلى البساسيرى من المستنصر من المال خمسمائة ألف دينار، ومن الثياب ما قيمته مثل ذلك، وخمسمائة فرس، وعشرة آلاف قوس، ومن السيوف ألوف، ومن الرماح والنشاب شئ كثير)^(١).

وكان هناك في هذه الفترة نزاع بين طغرلبيك وأخيه غير الشقيق إبراهيم ينال وكان ينال قد راسل البساسيرى، والمؤيد في الدين الشيرازى، للدخول في طاعة الفاطميين والدعاء لهم في مناطق نفوذهم، في همذان وبلاد الجبل وسنجار والموصل التي كان طغرلبيك قد نصبه أميراً عليها سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م، كانت ثورة إبراهيم ينال على أخيه طغرلبيك قد مهدت السبيل أمام البساسيرى لتحقيق أغراضه، فلما علم البساسيرى بخلو بغداد من الجند السلجوقى الذى خرج لمقاتلة إبراهيم ينال زحف إليها^(٢)، ومعه قریش بن بدران العقيلي في مائتى فارس، وكان وصوله إليها يوم الأحد ثامن ذى القعدة، ومعه أربعمائة غلام ونزل بمشرعة الزوايا وخطب البساسيرى بجامع المنصور للمستنصر خليفة مصر، وأمر بأن يؤذن بحى على خير العمل^(٣)، فأذن به في سائر نواحى بغداد وفى الجمعات والجماعات، وضربت للمستنصر السكة على الذهب والفضة، وحوصرت دار الخلافة، ثم إن الخليفة أخذ ذماماً من أمير العرب قریش ليمنعه وأهله ووزيره ابن المسلمة، فأمنه على ذلك كله، وأنزله في خيمة، فلامه البساسيرى على ذلك قائلاً له: قد علمت ما كان وقع الاتفاق عليه بينى وبينك، من أنك لا تبت برأى دونى، ولا أنا دونك، ومهما ملكنا بينى وبينك، وقبض البساسيرى على القاسم بن مسلمة^(٤)، ووبخه توبيخاً شديداً وضربه ضرباً مبرحاً، واعتقله مهاناً

(١) انظر النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٣/٥.

(٢) انظر السلاجقة تاريخهم السياسى والعسكرى ص ٧١.

(٣) انظر المختصر في أخبار البشر ١/٥٣٤.

(٤) كان مصير الوزير القاسم بن مسلمة القتل بعد الاعتقال والمهانة من قبل البساسيرى. انظر

الكامل في التاريخ ٦٤٤/٩.

عنده، ثم اتفق رأى البساسيري وقريش على أن يسيروا الخليفة إلى أمير حديثه عانه، وهو مهارش بن مجلى الندوى، فلما بلغ الخليفة ذلك ألح على قريش ألا يخرج من بغداد، فلم يفد ذلك شيئاً، وأخرج الخليفة في هودج إلى حديثه عانه، فكان عند مهارش حولاً كاملاً وليس معه أحد من أهله^(١)، وكان البساسيري قد أرغمه قبل مغادرته بغداد على كتابة عهد اعترف فيه بأنه لا حق لبني العباس ولا له في الخلافة مع وجود بني فاطمة الزهراء، ثم بعث بهذا العهد إلى القاهرة حيث ظل محفوظاً بقصر الخلافة حتى استولى صلاح الدين يوسف بن أيوب على محتوياته سنة ٥٦٧هـ، فأنفذه إلى الخليفة العباسي المستضى بالله في بغداد مع بعض التحف والهدايا على أثر وفاة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين بمصر، كذلك أرسل البساسيري إلى المستنصر بالله ثوب الخليفة القائم العباسي وعمامته وشبكاها الذي كان يجلس فيه وغير ذلك من الأموال والتحف^(٢).

ولقد كان من المنتظر أن يواصل المستنصر تدعيمه لثورة البساسيري بالمال والسلاح، ولكنه لم يفعل، ويرجع المؤرخون سبب ذلك إلى عدم ثقة المستنصر في البساسيري من جهة، وإلى الأزمة الاقتصادية السياسية الخطيرة التي حلت بمصر في ذلك الوقت وهي المعروفة في كتب التاريخ باسم الشدة العظمى، من جهة أخرى^(٣) ومن حديثه عانه كاتب الخليفة السلطان السلجوقي طغرلبيك الذي كان قد فرغ من القضاء على ثورة إبراهيم ينال، وجاء في كتاب الخليفة (بحق الله أدرك الإسلام فقد ساد العدو للعين)، وعلى الفورلبي طغرلبيك نجدة الخليفة^(٤)، وكتب إلى قريش بن بدران يأمره بأن يعيد الخليفة إلى وطنه وداره وتوعده إن لم يفعل ذلك، وبالفعل كتب قريش إلى مهارش بن مجلى يقول له: إن المصلحة تقتضى تسليم الخليفة إلى حتى

(١) انظر البداية والنهاية ٧٧/١٢، ٧٨.

(٢) انظر سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٠٢.

(٣) انظر في التاريخ العباسي والفاطمى ص ١٨٣.

(٤) انظر السلاجقة تاريخهم السياسى والعسكرى ص ٧٤.

أخذ لي ولك به أماناً، فامتتع عليه مهارش وقال قد غرني البساسيري ووعدني بأشياء لم أرها ولست بمرسله إليك أبداً، وله في عنقي أيمان كثيرة لا أغدرها، وكان مهارش رجلاً صالحاً فقال للخليفة إن المصلحة تقتضي أن نسير إلى بلد بدر بن مهلهل، وننظر ما يكون من أمر السلطان طغربك، فإن ظهر دخلنا بغداد وإن كانت الأخرى نظرنا لأنفسنا، فإني أخشى من البساسيري أن يأتينا فيحضرنا، فقال الخليفة: افعل ما فيه المصلحة، فسارا إلى أن وصلا إلى قلعة تل عكبرا، فتلقته رسل السلطان طغربك بالهدايا، وجاءت الأخبار بأن السلطان طغربك قد دخل بغداد^(١)، ولما وصل الخليفة إلى النهروان خرج طغربك لتلقيه واجتمع به واعتذر من تأخره بعصيان أخيه إبراهيم ينال وأنه قتله عقوبة لما جرى منه، وبوفاة أخيه داود بخراسان، ثم أرسل طغربك جيشاً خلف البساسيري، وهزم البساسيري وقتل وحمل رأسه إلى طغربك الذي ما لبث أن أرسلها إلى دار الخلافة فصلب قبالة الباب النبوي^(٢)، وهكذا انتهت فتنة البساسيري التي كادت تقضي على الخلافة العباسية.

وأقام أمير مكة محمد بن جعفر الدعوة لكل من الخليفة القائم بأمر الله والسلطان ألب أرسلان سنة ٤٦٢ هـ، وفي سنة ٤٦٣ هـ تمكن ألب أرسلان من بسط سلطان السلاجقة على حلب^(٣)، كما استطاع جيشه بقيادة ولده ملكشاه أن يستولي على بيت المقدس في نفس العام، ثم أرسل جيشه لضم مصر، فظل يتوغل في الأراضي المصرية حتى بلغ القاهرة وحاصرها، غير أنه لم يستطع فتحها لاستماتة الفاطميين في الدفاع عنها^(٤)، كما أصبحت دمشق سنة ٤٦٧ هـ تحت سيادة السلاجقة، وأبطل فيها الأذان بـ«حى على خير العمل»، وهو يعد من مظاهر المذهب الشيعي التي كانت سائدة إذ ذاك في الأراضي الخاضعة لنفوذ الفاطميين، كذلك حرص السلاجقة

(١) انظر البداية والنهاية ١٢/٨١، ٨٢.

(٢) انظر المختصر في أخبار البشر ١/٥٣٥، ٥٣٦.

(٣) انظر سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٠٨.

(٤) انظر سلاجقة إيران والعراق ص ٦٣.

على تعقب الإسماعيلية الذين قاموا بنشر الدعوة للفاطميين في بلاد الفرس، كما تعصبوا للمذهب السني، وبلغ من تعصبهم لهذا المذهب أن أقصوا غير السنين من وظائف الحكومة، ويؤيد هذا ما قام به نظام الملك وزير السلطان ملكشاه الذي فصل الحسن بن الصباح من ديوان السلاجقة بسبب اعتناقه المذهب الإسماعيلي واتصاله بدعاة الفاطميين^(١).

أثر موقف السلاجقة من الخلافة الفاطمية على الدعوة الإسلامية:

إنّ لانتصار السلاجقة على الفاطميين ودعاتهم في بلاد العراق وفارس آثار عدة منها:

- (١) أن فيه انتشار لمذهب أهل السنة والذي كانت تمثله حينذاك الخلافة العباسية والدولة السلجوقية.
- (٢) كان انتصار السلاجقة بداية لتكوين جبهة إسلامية قوية تضم مصر والشام على يد صلاح الدين الأيوبي، والتي استطاعت أن تقف في وجه الحملات الصليبية وتخرجها من بيت المقدس.



(١) انظر سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٠٨.

المبحث الثالث

منهج الدولة السلجوقية فيما يتعلق بالفرق الدينية وأثره في الدعوة

من أهم الفرق التي ظهرت في عهد السلاجقة، طائفة الإسماعيلية، وقبل الحديث عن منهج الدولة السلجوقية في التعامل مع الإسماعيليين لا بد من التعريف بالإسماعيليين.

أولاً: التعريف بالإسماعيليين وأهم الآراء التي يعتنقونها ومدى موافقتها للدين الإسلامي:

الإسماعيلية طائفة من الإمامية^(١)، وهم ينتسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وينفقون مع الاثنا عشرية في الأئمة إلى جعفر الصادق، ومن بعد جعفر الصادق ابنه موسى الكاظم، أما الإسماعيلية فيقولون أن الإمام بعد جعفر الصادق ابنه إسماعيل، وقد قالوا إن ذلك كان بنص من أبيه جعفر ولكنه مات قبله، ومع أنه مات قبله أعملوا النص على إقامته من بعده، وكان إعمال هذا النص، بأن تبقى الإمامة في عقبه، فإن إعمال النص الذي يقوله الإمام أولى من إهماله، ولا عجب في ذلك، فإنهم يعتبرون أقوال الإمام كنصوص الشرع تماماً، يجب إعمالها، ولا يسوغ إهمالها، وقد انتقلت عن طريق إسماعيل إلى ابنه محمد المكتوم وهذا أول الأئمة

(١) هم القائلون بإمامة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد النبي ﷺ نصاً ظاهراً وتعييناً صادقاً من غير تعريض

بالوصف، بل إشارة إليه بالعين، قالوا: وما كان في الدين والإسلام أمر أهم من تعيين الإمام حتى تكون مفارقتة الدنيا على فراغ قلب من أمر الأمة، فإنه إنما بعث لرفع الخلاف وتقرير الوفاق، فلا يجوز أن يفارق الأمة ويتركهم هملاً، يرى كل واحد منهم رأياً، ويسلك كل واحد منهم طريقاً لا يوافق في ذلك غيره، بل يجب أن يعين شخصاً هو المرجوع إليه، وينص على واحد هو الموثوق به والمعول عليه، وقد عين علياً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مواضع تعريضاً وفي مواضع تصريحاً.

المكتومين، أو المستورين، إذ هم يقررون أن الإمام يصح أن يكون مستوراً وتجب طاعته، ولا يمنع ذلك من إمامته، ومن بعد محمد المكتوم ابنه جعفر الصادق، وبعده ابنه محمد الحبيب، وبعده ابنه عبد الله المهدي الذي ظهر في شمال إفريقيا وملك المغرب، ثم كان من عقبه من أنشأ الدولة الفاطمية بمصر، وقد نشأ ذلك المذهب بالعراق كغيره من المذاهب الشيعية، واضطهد كما اضطهد غيره من المذاهب الشيعية، وقد فر المعتقدون له بتأثير الاضطهاد إلى فارس وخراسان وما وراء ذلك من الأقاليم الإسلامية كالهند والتركستان، وهناك خالط مذهبهم بعض آراء من عقائد الفرس القديمة، والأفكار الهندية، وتحت تأثير ذلك انحرف كثيرون منهم، فقام فيهم ذوو أهواء، ولذلك حمل اسم الإسماعيلية طوائف كثيرة، بعضهم لم يخرجوا عن دائرة الإسلام وبعضهم انحرفوا بما انتحلوا من نحل لا تتفق ما اشتملت عليه من المقرر الثابت من الأحكام الإسلامية^(١).

وقد ذكر الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه المذاهب الإسلامية الآراء التي يعتنقها المعتدلة منهم على ثلاث شعب:

«أولاهما: الفيض الإلهي من المعرفة الذي يفيض الله به على الأئمة، فيجعلهم بمقتضى إمامتهم فوق الناس قدراً، وفوق الناس علماً، فهم قد اختصوا بعلم ليس عند غيرهم، وأن عندهم علماً بالشريعة قد أوتوه فوق مدارك الناس.

والثانية: أن الإمام لا يلزم أن يكون ظاهراً معروفاً، بل يصح أن يكون خفياً مستوراً، ومع ذلك تجب طاعته، وأنه هو المهدي الذي يهدي الناس، وأنه يظهر في جيل من الأجيال، فإنه لا بد ظاهر وأنه لن تقوم القيامة حتى يظهر ويملا الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً.

الثالثة: أن الإمام ليس مسئولاً أمام أحد من الناس وليس لأحد من الناس أن

(١) انظر الإمام محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسية والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية ص ٥٢، ٥٣، ط دار الفكر العربي القاهرة سنة ١٩٩٦م.

يخطئه مهما يأت من أفعال، بل يجب عليهم أن يصدقوا أن كل ما يفعله خير لا شر فيه لأن عنده من العلم ما لا قبل لأحد بمعرفته، ومن هذا قرروا أن الأئمة معصومون، لا بمعنى أنهم لا يرتكبون الخطايا التي نعلمها، بل على معنى أن ما نسميه نحن خطايا قد يكون عندهم من العلم ما ينير السبيل لهم فيه، ويكون سائغاً لهم، وليس بسائغ لسائر الناس»^(١).

منهج الدولة السلجوقية فيما يتعلق بالإسماعيلية وأثره في الدعوة:

حرص الفاطميون على نشر دعوتهم الإسماعيلية^(٢) في أرجاء الدولة الإسلامية، ولقيت دعوتهم نجاحاً في فارس والعراق، رغم اضطهاد العباسيين والسلاجقة لأفراد تلك الطائفة، وازدياد نفوذ الإسماعيلية في عصر السلطان السلجوقي ملكشاه، حتى استولوا

(١) المرجع السابق ص ٥٤، ٥٥.

(٢) انقسمت الطائفة الإسماعيلية بعد وفاة المستنصر بالله الفاطمي في مصر عام ٤٨٧هـ/١٠٩٤م إلى فرقتين: النزارية التي اعتقد أتباعها بأحقية ابنه الأكبر نزار بالحكم، وقد فروا إلى الشرق بعد أن تعرضوا لحملة اضطهادات في مصر، وكان على رأسهم الحسن بن الصباح الذي أسس في إيران ما يعرف بالفرقة النزارية وغلب على أتباعه اسم الحشيشية أو الباطنية، والفرقة الثانية هي المستعلية التي اعترف أتباعها بإمامة الابن الثاني للمستنصر وهو المستعلى.

هذا وقد أطلق المؤرخون على الفرقة الأولى عدة تسميات منها:

الحشيشية أو الحشاشين: جاءت هذه التسمية إما نتيجة استعمال هؤلاء الحشيش الذي تزخر به الطبيعة الجبلية في تلك البلاد التي استقروا فيها، لصنع الأدوية، وإما لأنهم كانوا يتعاطون الحشيش المخدر.

السبعية: لأن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق هو الإمام السابع عندهم، ولتمييزهم عن طائفة الاثنى عشرية.

الإسماعيلية: لانتسابهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق.

الباطنية: لأنهم يقولون إن لكل ظاهر باطن، ولكل تنزيل تأويل، وقد جعلوا هذه النظرية عقيدة شاملة لكل أمور الحياة كما جرت المصنفات الشرقية على تسميتهم بالملاحدة.

انظر تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الوسطى هامش ص ١١٠، ١١١.

على أصبهان، ونشروا فيها دعوتهم في عهد زعيمهم أحمد بن عبد الملك بن عطاش^(١)، ومن تلاميذه الحسن بن الصباح^(٢)،^(١).

(١) زعيم باطنى من أهل أصبهان، اجتمع عليه الباطنية بأصبهان وألبسوه تاجاً، وجمعوا له أموالاً، وكان سبب فعلهم ذلك تقدم أبيه عبد الملك في مذهبهم، فإنه كان أديباً بليغاً، حسن الخط، سريع البديهة، عفيفاً، وكان ابنه أحمد هذا جاهلاً لا يعرف شيئاً، وقيل لابن الصباح، صاحب قلعة ألموت: لماذا تعظم ابن عطاش مع جهله؟ قال: لمكان أبيه، لأنه أستاذى، وصار لابن عطاش عدد كثير، وبأس شديد، واستقل أمره بالقلعة، فكان يرسل أصحابه لقطع الطريق، وأخذ الأموال، وقتل من قدروا على قتله، فقتلوا خلقاً كثيراً لا يمكن إحصاؤهم، ولم يزل أمره في ارتفاع، حتى تولى السلطان محمد بن ملكشاه السلطنة فأخذ على عاتقه محاربة الباطنية، وقد استطاع السلطان محمد الاستيلاء على قلعة أصفهان، وقتل ابن عطاش سنة ٥٠٠هـ. انظر ترجمته فى: الكامل فى التاريخ ١٠/٤٣٠-٤٣٤.

(٢) اختلف المؤرخون فى ميلاده كما اختلفوا فى نسبه، فقيل إنه الحسن بن على محمد بن جعفر الحسين بن الصباح الحميرى اليمنى، قدم أبوه من اليمن إلى الكوفة، ورحل منها إلى قم، ثم استوطن الرى التي ولد فيها الحسن، وقيل إنه يتظاهر بالانتساب إلى العرب والانتفاء إلى حمير اليمن، ولكن أهل خراسان وبخاصة سكان طوس ينفون ذلك ويقولون: عن أباه من فلاحى تلك الولاية، أخذ التشيع عن أبيه، حيث كان اتى عشرياً، لأن الدعوة التي قام بها ناصر خسرو المتوفى سنة ٤٨١هـ كانت قد انتشرت فى قهستان وطبرستان، فانقلب إسماعيلياً شيعياً، ثم أسس فرقة الباطنية أو الحشاشين التي اشتهرت فيما بعد باسمه تارة وبلقبه تارة أخرى، وبالطريقة التي شاعت فى تعاليمه الثالثة، إذ تلقى بعض العلوم على يد الشيخ ابن عطاش داعية الإسماعيلية فى العراق، وعلى يد أستاذه هذا حصل على إجازة الدعوة للمذهب بعد أن أخذ منه البيعة والعهد للإمام المستنصر بالله الفاطمى، حيث جعل مركز دعوته الرى، وفى سنة ٤٦٧هـ انتقل من الرى إلى أصبهان فبقى فيها قرابة ثلاث سنوات لعلها كانت هي الفترة التي اتصل فى أوائلها بالنظام، وتقرب فى أثنائها من السلطان ملكشاه، ثم اختلف مع وزيره فخرج من البلاد ساخطاً وعزم على السفر إلى مصر، ولما وصلها دخل على المستنصر صاحبها، فأكرمه، وأعطاه مالاً، وأمره أن يدعو الناس إلى إمامته، فقال له الحسن: فمن الإمام بعدك؟ فأشار إلى ابنه نزار، وعاد من مصر إلى الشام، والجزيرة، وديار بكر، والروم، ورجع إلى خراسان، ودخل كاشغر، وما وراء النهر، يطوف على قوم يضلهم، فلما رأى قلعة ألموت، واختير أهل تلك النواحي، أقام عندهم، وطمع فى إغوائهم، ودعاهم فى السر، وأظهر الزهد، ولبس المسح، فتبعه أكثرهم، والعلوي صاحب القلعة حسن الظن فيه، يجلس إليه يتبرك به، فلما أحكم الحسن أمره، دخل يوماً على العلوي بالقلعة، فقال له ابن الصباح: اخرج من هذه =

ويرجع السبب في رواج مذهب الإسماعيلية في بلاد فارس والعراق في عهد السلطان ملكشاه إلى أنه لم يكن للدولة أصحاب أخبار، وكان الرسم في أيام الديلم ومن قبلهم أنهم لا يخلون البلاد من أصحاب الأخبار والبريد، فلم تكن تخفى عنهم أخبار الباطنية، فلما تولى السلطان ألب أرسلان فاوضه وزيره نظام الملك في هذا الأمر فأجابته أنه لا حاجة بنا إلى صاحب خبر فإن الدنيا لا تخلو كل بلد فيها من أصدقاء لنا وأعداء، فإذا نقل إلينا صاحب الخبر خبراً، وكان له غرض أخرج الصديق في صورة العدو والعدو في صورة الصديق، ومن أجل ذلك أسقط السلطان هذا الرسم^(٢).

وأول ما عرف من أحوالهم في أيام السلطان ملكشاه أنه اجتمع منهم ثمانية عشر رجلاً، فصلوا صلاة العيد في ساوة^(٣)، فظن بهم الشحنة، فأخذهم وحبسهم، ثم سئل فيهم فأطلقهم، فهذا أول اجتماع كان لهم، ثم إنهم دعوا مؤذناً من أهل ساوة كان مقيماً بأصبهان، فلم يجبههم إلى دعوتهم، فخافوه أن ينم عليهم فقتلوه، فهو أول قتل لهم، فبلغ خبره إلى نظام الملك، فأمر بأخذ من يتهم بقتله، فوعدت التهمة على نجار اسمه طاهر، فقتل، ومثل به، وجروا برجله في الأسواق، فهو أول قتل منهم.....، ثم إنهم قتلوا نظام الملك، وهي أول فتكة مشهورة كانت لهم، وقالوا: قتل نجاراً فقتلناه به، وأول

= القلعة، فتبسم العلوي، وظنه يمزح، فأمر ابن الصباح بعض أصحابه بإخراج العلوي، فأخرجه إلى دامغان، وأعطاه ماله وملك القلعة، ولما بلغ الخبر إلى نظام الملك بعث عسكرياً إلى قلعة ألموت، فحصره فيها، وأخذوا عليه الطرق، فضاقت ذرعه بالحصر، فأرسل من قتل نظام الملك، فلما قتل رجع العسكر عنها.

انظر ترجمته في: الكامل في التاريخ ٣١٧/١٠، نظام الملك ص ٣١٢-٣١٤.

(١) انظر الدول المستقلة في المشرق الإسلامي ص ١٩١.

(٢) انظر تاريخ دولة آل سلجوق ص ٦٣.

(٣) ساوة: مدينة حصينة بين الري وهمدان، بينها وبين كل من همذان والري ثلاثون فرسخاً.

انظر معجم البلدان ١٧٩/٣.

موضع غلبوا عليه وتحصنوا به بلد عند قايين^(١)، كان متقدمه على مذهبهم، فاجتمعوا عنده، وقووا به.....، ثم قتل نظام الملك، ومات السلطان ملكشاه، فعظم أمرهم، واشتدت شوكتهم، وقويت أطماعهم^(٢).

واستولوا على عدة حصون منها قلعة أصبهان، وهذه القلعة لم تكن بناءً قديماً، وإنما بناها السلطان ملكشاه ودخل في حوزتهم أيضاً طبرس وبعض قهستان، وقلعة وسنكموه قرب أبهر والتي استولوا عليها سنة ٤٨٤هـ، ومنها قلعة خالنجان وهي على بعد خمسة فراسخ من أصبهان، وقلعة استوناوند وهي بين الري وآمل وغيرها من القلاع والحصون^(٣).

وكان جيش الإسماعيلية يمتاز بالحماسة والاستعداد للتضحية بالنفس في سبيل حماية الدعوة، فكثر بينهم الفدائيون الذي استعانوا بهم في نشر دعوتهم، واغتيال أعدائهم من القواد والأمراء والخلفاء والسلطين الذين كانوا يقفون حجر عثرة في طريقهم، مما أثار قلقاً شديداً في جميع أنحاء الدولة السلجوقية، فعاش الناس في خوف واضطراب يتوجسون خيفة من فدائيي الإسماعيلية^(٤).

منهج الدولة السلجوقية فيما يتعلق بالباطنية :

سلكت الدولة السلجوقية طريقاً واضحاً في تعاملها مع الباطنية، فبدأ السلطان ملكشاه بإرسال رسالة إلى الحسن بن الصباح بين له فيها أن ما هو فيه خروج عن الدين، وأنه لا بد وأن يرجع إلى حظيرة الإسلام، فأرسل إليه ابن الصباح رسالة بين له فيها أنه على دين الإسلام، وطعن فيها في خلفاء بنى العباس، واتهم فيها نظام الملك بإهدار الأموال، ولما لم تجدى هذه الرسائل نفعاً لجأت الدولة السلجوقية إلى محاربة الباطنية وأخذ السلطين السلاجقة على عاتقهم اقتلاع جذورهم، مما أدى إلى أن

(١) قايين: بلد قريب من طبرس بين نيسابور وأصبهان. المرجع السابق ٣٠١/٤.

(٢) انظر الكامل في التاريخ ٣١٣/١٠، ٣١٤.

(٣) انظر الكامل في التاريخ ٣١٥-٣١٩.

(٤) انظر سلاجقة إيران والعراق ص ٧٢، ٧٣.

يطلب الوزير نظام الملك من السلطان إعادة ديوان البريد على نحو ما كان معمولاً به من قبل أملاً في أن تصله أخبار هذه الطائفة كما أخذ يؤكد للسلطان ملكشاه أنه ليس عليه من فريضة أوجب من استئصال شأفة الإسماعيلية لتأمرهم ضد الدولة^(١)، وبدأت الحرب بين الحسن بن الصباح والسلطان السلجوقي بمعاونة وزيره نظام الملك فأرسل السلطان أحد قادته وهو ألتونتاش لمحاصرة قلعة ألموت، وكان صاحب إقطاعها، ولكن الحسن الصباح شجع أتباعه على الصمود مدعياً وصول رساله من المستنصر بالله الفاطمي تحته على ذلك، فلم يفلح ألتونتاش من دخولها^(٢).

واستقل أمر الحسن بن الصباح، فعجز الأمراء المحليين ومنهم سلطانهم عن قتاله وجموعه، فأنفذ إليه السلطان ملكشاه في أوائل سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م الأمير أرسلان تاش الذي تمكن من حصار القلعة، ولكنه هزم وغنم الإسماعيلية جيشه^(٣)، ولم تؤد حملات ملكشاه التي وجهها لإخماد حركاتهم إلى ضعف شأنهم بل ظلوا محتفظين بكيانهم حتى قضى عليهم المغول سنة ٦٥٤هـ^(٤).

وفى سنة ٤٩٤هـ عظم الخطب بأصبهان ونواحيها بالباطنية فقتل السلطان بركياروق منهم خلقاً كثيراً، وأبيحت ديارهم وأموالهم للعامة، وتؤدي فيهم إن كل من قدرتم عليه منهم فاقتلوه وخذوا ماله^(٥)، فقام أهل اصبهان بقتل من عندهم يقودهم في ذلك أبو القاسم مسعود بن محمد الخجندی الفقيه الشافعي، فجمع الجم الغفير بالأسلحة، وأمر بحفر أخاديد وأوقد فيها النيران، وجعل العامة يأتون بالباطنية أفواجاً ومنفردين، فيلقون في النار^(٦).... فقتلوا منهم خلقاً كثيراً^(١)، وكان الباطنيون قد ملكوا

(١) انظر تاريخ العراق والمشرق الإسلامي ص ١٥٢.

(٢) انظر السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري ص ١٠٥.

(٣) المرجع السابق ص ١٠٦.

(٤) انظر تاريخ العراق والمشرق الإسلامي ص ١٥٥.

(٥) انظر البداية والنهاية ١٢/١٥٩.

(٦) والحرق بالنار ليس من منهج الإسلام، حتى مع الأعداء في الحرب، فما بالنا نقوم يحملون اسم الإسلام.

كثيراً من القلاع بإقليم خوزستان وفارس، وقطعوا الطريق بتلك البلاد، فعزم أحد قواد السلاجقة ويدعى جاولى على الفتك بهم، فأظهر أنه يريد مفارقة بلاده والمسير إلى همدان، وكان بعض أصحابه قد عصى عليه وفارقوه، وقصدوا الباطنية وأظهروا أنهم معهم وعلى رأيهم فأقاموا عندهم حتى وثقوا بهم، فلما سار جاولى، قال بعض أصحابه ممن لهم الرأي: إننا نخرج إلى طريقه ونأخذه وما معه من أموال، فساروا إليه في ثلاثمائة من أعيانهم وصناديدهم، فلما التقوا صار من معهم من أصحاب جاولى عليهم، ووضعوا السيف فيهم فلم يفلت منهم سوى ثلاثة نفر، صعدوا إلى الجبل وهربوا، وغنم جاولى ما معهم من دواب، وسلاح، وغير ذلك^(١)، وكتب السلطان بركياروق إلى الخليفة العباسي يشير عليه باتباع الموجودين منهم في دار الخلافة، فأمر بالقبض على قوم يظن فيهم ذلك المذهب ولم يتجاسر أحد أن يشفع في أحد لئلا يظن ميله إلى ذلك المذهب^(٢).

في نفس السنة سار الأمير بزغش، وهو أكبر أمير مع السلطان سنجر، وجمع جموعاً كثيرة، وقواهم بالمال والسلاح، وسار إلى بلد الإسماعيلية، فنهبه، وخربه، وقتل فيهم فأكثر، وحصر طبس، وضيق عليها، وربما بالمنجنيق، فخرّب كثيراً من سورها، وضعف من بها، ولم يبق إلا أخذها، فأرسلوا إليها الرشا الكثيرة، واستنزله عما كان يريده منهم، فرحل عنهم وتركهم^(٣)، ولكنه عاود الكرة عليهم في سنة ٤٩٧ هـ وأكثر فيهم القتل والنهب والسبي، وفعل بهم الأفعال العظيمة، ثم إن أصحاب سنجر أشاروا عليه بأن يؤمنوا، ويشترط عليهم أنهم لا يبنون حصناً، ولا يشترون سلاحاً، ولا يدعون أحداً إلى عقائدهم، فسخط كثير من الناس هذا الأمان، وهذا الصلح، ونقموه على

(١) انظر الكامل في التاريخ ٣١٥/١٠.

(٢) انظر الكامل في التاريخ ٣١٩/١٠، ٣٢٠.

(٣) انظر المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٦٣/١٧.

(٤) انظر الكامل في التاريخ ٣٢٤/١٠.

سنجر^(١)، ولم يحترم الباطنية هذا العهد وهذا الأمان، ففي سنة ٤٩٨ هـ سار جمع كثير من الإسماعيلية من طريثيب^(٢) قرب مدينة بيهق، وأغاروا على تلك النواحي، وأكثروا القتل في أهلها، والنهب لأموالهم، والسبي لنسائهم، ومن جملة أفعالهم: أن قفل الحاج تجمع، هذه السنة مما وراء النهر وخراسان والهند، وغيرها من البلاد، فوصلوا إلى جوار الري، فأتاهم الباطنية وقت السحر، فوضعوا فيهم السيف، وقتلوه، وغنموا أموالهم ودوابهم، ولم يتركوا شيئاً، وقتلوا هذه السنة أبا جعفر بن المشاط، وهو من شيوخ الشافعية^(٣).

كل هذه الأفعال نبهت السلطان محمد بن ملكشاه الذي ما صفت له السلطنة، ولم يبق له منازع، لم يكن عنده أمر أهم من قصد الباطنية وحرهم، فرأى البداية بقلعة أصبهان التي بأيديهم، لأن الأذى بها أكثر، وهي متسلطة على سرير ملكه، فخرج بنفسه فحاصرهم في سادس شعبان، وكان قد عزم على الخروج أول رجب، فساء ذلك من يتعصب لهم من العسكر، فأرجفوا أن قلع أرسلان بن سليمان قد ورد بغداد وملكها، وافتعلوا في ذلك مكاتبات، ثم أظهروا أن خلافاً قد تجدد بخراسان، فتوقف السلطان لتحقيق الأمر، فلما ظهر بطلانه عزم على قتال الباطنية، وبعد حصار طويل استطاع السلطان محمد القضاء على الباطنية في هذه القلعة، ووقع ابن عطاش أسيراً وقتل وسلخ جلده، وقتل ولده وحمل رأسهما إلى بغداد، وألقت زوجته نفسها من رأس القلعة وكان معها جواهر نفيسة فهلكت وما معها^(٤).

ولم يتوقف السلطان محمد عند هذا الحد في قتال الباطنية بل أرسل الأمير

(١) المرجع السابق ٣٧٨/١٠.

(٢) طريثيب: ناحية وقرى كثيرة من أعمال نيسابور. انظر معجم البلدان ٣٣/٤.

(٣) انظر الكامل في التاريخ ٣٩٢/١٠، ٣٩٣.

(٤) انظر الكامل في التاريخ ٤٣١/١٠-٤٣٤.

شيركير^(١) على رأس جيش جرار إلى قلعة ألموت فحاصرها مدة^(٢) حصاراً شديداً وضيق كثيراً عليها، حتى أصبح من الميقن أن يستولى عليها، ولكن جاء الخبر بوفاة السلطان محمد، فلما بلغ الأمراء خبر وفاة السلطان استدعوا شيركير وأعادوه^(٣)، فوفاة السلطان محمد وعودة التتاحن بين أفراد البيت السلجوقي حول تقسيم مناطق النفوذ جعل الإسماعيلية يستعيدون قوتهم، ويواصلون نشاطهم^(٤).

وهكذا كان لكل سلطان من سلاطين السلاجقة جولات مع الباطنية، وكان منهج السلاجقة في التعامل مع هذه الفرقة واضحاً جلياً، مما كان له أثر كبير على الحد من نفوذهم ولم يتم القضاء عليهم بشكل نهائي إلا في سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م على يد المغول.



(١) هو أنوشكين شيركير صاحب آبه وساه. انظر راحة الصدور وآية السرور هامش ص ٢٤٧.

(٢) يذكر ابن الأثير أن مدة الحصار وصلت إلى ست سنوات متواصلة. انظر الكامل في التاريخ ٥٢٧/١٠، ٥٢٨.

(٣) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ٢٤٧، ٢٤٨.

(٤) انظر سلاجقة إيران والعراق ص ٩٩.

المبحث الرابع

منهج الدولة السلجوقية

فيما يتعلق بالمذاهب الفقهية وأثره في الدعوة

انتهجت الدولة السلجوقية منهجاً وسطاً فيما يتعلق بالمذاهب الفقهية الأربعة، فلم يرغموا أحداً على الالتزام بمذهب بعينه، وإن ساروا على المذهب الحنفي أو الشافعي، فلقد اعتنق السلاجقة الإسلام على المذهب السني الحنفي^(١)، ويرجع السبب في ذلك إلى أن السلاجقة قد نشأوا في ظلال دولة السامانيين الذين كانوا يعتقدون المذهب الحنفي كما يقول المقدسي^(٢) عن هؤلاء السامانيين (وميلهم إلى مذهب أبي حنيفة)، فكان هذا السبب، بالإضافة إلى أن المذهب الحنفي كان له رواج في تلك المنطقة بجانب مذهب الشافعي، وقد عبر الوزير نظام الملك عن هذا في الرسالة التي بعث بها إلى الوزير فخر الدولة بن جهير بشأن تجدد الفتنة بين الشافعية والحنابلة ببغداد سنة ٤٦٩ هـ فقال: (... وعندنا بخراسان وبلاد الترك، مع تباعد أقطارها واتساع أكوارها لا يعرف فيها سوى مذهب الإمامين الشافعي وأبي حنيفة)^(٣).

والسؤال الذي يطرح نفسه ما هو موقف الدولة السلجوقية من المذاهب الفقهية الأخرى؟

اعتنق السلاجقة مذهب أهل السنة والجماعة وأباحوا إتباع أي من المذاهب الفقهية الأربعة، حتى وإن ساروا في بعض عصورهم على المذهب الشافعي أو الحنفي^(٤).

(١) انظر أخبار الدولة السلجوقية ص ٢.

(٢) انظر أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص. ٣٢٣.

(٣) انظر الحياة العلمية في العصر السلجوقي ص ٥٣٦.

(٤) انظر أثر الحضارة السلجوقية في شرق العالم الإسلامي على الحضارتين الأيوبية والمملوكية

وتتضح الصورة أكثر في موقف الدولة السلجوقية من المذاهب الفقهية من موقف نظام الملك^(١) من الفتن التي حدثت بين الشافعية^(٢) والحنابلة^(٣)، وقبل عرض أحداث هذه الفتن أعرض موقف النظام من المذاهب الفقهية من خلال كلام الدكتور عبد الهادي محبوبية في حديثه عن نظام الملك فيقول: (ولم يكن نظام الملك يعترف في الواقع بغير مذهبين من مذاهب الإسلام هما الحنفى مذهب الخلفاء والسلاطين من آل سلجوق غالباً، ثم الشافعى مذهبه الذى نشأ عليه من الطفولة وأخذ يدافع عنه ويسعى لنشره بحماس بالغ بكل ما أوتى من قوة^(٤))، أما بقية المذاهب الأربعة فلم يكن موقفه منها عدائياً، وما نقله المؤرخون من تكيل السلاجقة بالشيعة والحنابلة في عهد نظام الملك، فإنما كان مرده إلى حفظ الأمن الذى أخل به أولئك وهؤلاء، وليس بتعصب

(١) هذا على اعتبار أن موقف نظام الملك يمثل وجهة نظر الدولة السلجوقية، لأنه كان في هذه الفترة مسيطراً على الأمور داخل الدولة.

(٢) نشأ تيار المدرسة الشافعية من خلال المدارس النظامية التي درس فيها أمثال أبو إسحاق الشيرازى وأبو عبد الله الطبرى، ومن أبرز علمائها الذين عاشوا واقع عصرهم واهتموا بمشكلاته إمام الحرمين أبو المعالى الجوينى، ومن تلاميذ الجوينى أبو حامد الغزالى والکيا الهراسى. انظر أيعيد التاريخ نفسه ص ٩٢.

(٣) كان للحنابلة دور بارز في التمسك بعقيدة السلف التي تلقوها عن العلماء السابقين وهى العقيدة التي دافع عنها الإمام أحمد رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى، وكانت لهم مدارس في بغداد، تربي فيها كثير من العلماء والوعاظ كالشيخ أبو الوفا بن عقيل والشيخ أبو الفرج بن الجوزى الإمام الحافظ الواعظ وكان لهم تأثير في رجوع الناس إلى الدين. انظر أيعيد التاريخ نفسه ص ٩٥، ٩٦.

(٤) يلاحظ أن مذهب نظام الملك الشافعى غير مذهب السلاطين السلاجقة الحنفى وفى هذا دلالة على حرية اعتناق المذاهب في الدولة السلجوقية إذ لو كان السلاطين السلاجقة متعصبين لمذهبهم إلى حد إرغام الغير على التمدد به لكان نظام الملك أول من غير مذهبه إلى المذهب الحنفى.

نظام الملك أو تدخل السلطان)^(١).

ويحسن بنا الإشارة إلى حادثتين وقعتا في عهد نظام الملك وكان لهما أثرهما الكبير على شهرته كما كان لهما دلالتهما على لباقتة وحسن تصرفه، ففي عام ٤٤٩ هـ كان أولى الحادثتين، وقد اهتزت له دنيا الشرق الإسلامي من نيسابور إلى بغداد، فقد أراد طغرليک عند تأسيسه عرش السلاجقة أن يظهر للملأ تعصبه الديني ضد المبتدعة، وكان حنفياً سنياً، فأمر بلعنهم على المنابر أيام الجمع واستغل هذا وزيره الكندري فقرن اسم الأشاعرة بأسماء أرباب البدع للتشفى والتسلى، لأنه كان معتزلياً حنفياً، وأبعد بعضهم عن المناصب وقرب الحنفية إليه، وكان من نتيجة ذلك أن خرج أبو القاسم القشيري وأبو المعالي الجويني قاصدين الحجاز معلنين استتكارهما على سوء الوضع والحجر على حرية العقائد، فما أن جاء نظام الملك إلى الحكم، حتى أعاد النازحين إلى أوطانهم وأدناهم إليه وجعل منهم أسنة صدق في الثناء عليه والدعاء، وعين لهم المساجد والمدارس، وعقد لهم الحلقات والمجالس^(٢).

وهذا الفعل من نظام الملك إن دل فإنما يدل على حسن تصرفه وقضائه على مبعث التفرقة وجمع الشمل وعدم التعصب لأى من المذاهب على حساب الآخر.

وأما الحادثة الثانية والتي تجلت فيها حكمة نظام الملك في التعامل مع أحداثها ففي سنة ٤٦٩ هـ ورد بغداد أبو نصر بن الأستاذ أبي القاسم القشيري، وجلس في المدرسة النظامية يعظ الناس، وجرى له مع الحنابلة فتن لأنه تكلم على مذهب الأشعري، ونصره، وكثر أتباعه والمتعصبون له، وقصد خصومه من الحنابلة ومن تبعهم، سوق المدرسة النظامية وقتلوا جماعة، وكان من المتعصبين للقشيري الشيخ أبو إسحاق، وشيخ الشيوخ، وغيرهما من الأعيان، وجرت بين الطائفتين أمور

(١) انظر نظام الملك ص ١٢١.

(٢) المرجع السابق ص ١٢٢، ١٢٣.

عظيمة^(١)، وكتب أبو الحسن محمد بن علي بن أبي الصقر الواسطي الفقيه الشافعي إلى نظام الملك يصف له الحال بأبيات:

يا نظام الملك قد حل ببغداد النظام	وابنك القاطن فيها مستهان مستضام
وبها أودى له قتلى غلام و غلام	والذي منهم تبقى سالماً فيه سهام
يا قوام الدين لم يبق ببغداد مقام	عظم الخطب وللحر ب اتصال ودوام
فمتى لم تحسم الداء أياديك الحسام	ويكف القوم في بغداد قتل وانتقام
فعلى مدرسة فيها ومن فيها السلام	واعتصام بحريم لك من بعد حرام

فلما سمع نظام الملك ما جرى من الفتن، وقصد مدرسته، والقتل بجوارها، مع أن ابنه مؤيد الملك فيها، عظم عليه، فأعاد كوهرائين إلى شحنكية العراق، وحمله رسالة إلى الخليفة المقتدي بأمر الله تتضمن الشكوى من بني جهير، وسأل عزل فخر الدولة من الوزارة^(٢).

وفى الرسالة التي بعث بها الشيخ أبي إسحاق الشيرازي بشأن هذه الفتنة ما يدل على عدم ميله إلى مذهب دون مذهب وإن كان متحمساً لمذهب الشافعي فيقول: (ورد كتابك بشرح أطلت فيه الخطاب وليس توجب سياسة السلطان وقضية العدالة إلى أن نميل في المذاهب إلى جهة دون جهة، ونحن بتأييد السنن أولى من تشييد الفتن ولم نتقدم ببناء هذه المدرسة^(٣) إلا لصيانة العلم والمصلحة لا للاختلاف وتفريق الكلمة....^(٤))، وفي هذه الرسالة ما يدل دلالة واضحة إلى عدم ميل نظام الملك إلى مذهب دون آخر وأن الهدف من بناء المدارس هو جمع الكلمة لا الاختلاف والتفرق،

(١) انظر الكامل في التاريخ ١٠٤/١٠، ١٠٥.

(٢) المرجع السابق ١٠٩/١٠، ١١٠.

(٣) يعني المدرسة النظامية ببغداد.

(٤) انظر المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٦/١٩٠.

واستمرت المعارك بين الحنابلة والشوافع خلال هذه الأعوام حتى سنة ٤٧٣ هـ حتى عقد زعماء الفرقتين صلح بمحضر الوزير فخر الدولة بن جهير^(١).

أثر منهج الدولة السلجوقية فيما يتعلق بالمذاهب الفقهية في الدعوة الإسلامية:

جاءت الدولة السلجوقية في وقت كان التعصب للعقيدة يعد مزية بين السلاطين والخلفاء والوزراء، ويؤكد ذلك ما رواه نظام الملك عن السلطان ملكشاه في قوله: (وا أسفاه ليت وزيرى لم يكن شافعيًا) وكان نظام الملك يخشى السلطان ويهابه لاعتقاده الشديد بمذهبه وجديته فيه وانتقاصه مذهب الشافعي^(٢)، وهذا ما يرفضه الإسلام، فالإسلام ينظر إلى اختلاف الأئمة في مسائل الفروع على أنه رحمة، والأئمة أنفسهم ساروا مع الدليل أينما كان فقد ورد عن الإمام مالك رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى قوله: إذا صح الحديث عندكم فاضربوا بقولى الحائط، وفى لفظ إذا صح الحديث فهو مذهبي^(٣)، وورد عن الأئمة الأربعة مثل هذا القول، ولكن ما تفيده الأحداث أن الدولة السلجوقية في سياستها العامة، وخاصة في عهد الوزير نظام الملك والذي كان بيده مقاليد الحكم في الدولة لثلاثين عاماً، أزلت أسباب الفتن المذهبية التي كانت تنشأ عادة بين الشافعية والحنابلة، حتى عقد صلح بين زعماء الطائفتين سنة ٤٧٣ هـ، مما كان له أثره على الدعوة الإسلامية، بالإضافة إلى إقبالهم على نشر العلم من خلال كثرة المدارس وتعيين خيرة العلماء والفقهاء للتدريس فيها، مع تشجيع الحوار الفكري من خلال المناظرات العلمية، ولقد كانت هذه الوسائل من الأسباب الهامة التي دفعت بالعلوم الفقهية إلى التطور في عصورهم، والذي ظهر بوجه خاص منذ أن وضع أبو حامد الغزالي مصنفه (إحياء علوم الدين) مع مؤلفاته الأخرى، الأمر الذي فتح الباب

(١) انظر نظام الملك ص ١٢٥.

(٢) انظر سياسة نامة ص ١٢٠.

(٣) انظر الجزيرة العربية ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٢٤٢.

للفقهاء أن يجددوا ويبتكروا في علوم الدين^(١)، مما كان له أثر كبير على رواج الدعوة وانتشارها في أرجاء العالم الإسلامي، والدولة السلجوقية في توجهاتها المذهبية أعطت قدوة للدول الإسلامية وللدعاة، فقد يخطب الداعية في مكان يحمل بين جنباته من هو مالكي أو شافعي أو حنفي أو حنبلي، وهو نفسه يتمذهب بمذهب من هذه المذاهب، فعليه ألا يزكي روح التعصب لمذهب دون آخر، لأن لهذا الأمر له خطر جلل على الدعوة، فكثير من الفتن التي حدثت وتحديث تكون بسبب التعصب الأعمى للمذاهب، ولنا في عصر السلاجقة قدوة وأسوة في هذا المجال.



(١) انظر أثر الحضارة السلجوقية في دول شرق العالم الإسلامي على الحضارتين الأيوبية والمملوكية بمصر ١/٢٤٢، ٢٤٢.

المبحث الخامس

منهج الدولة السلجوقية فيما يتعلق بأهل الذمة وأثره في الدعوة

تمهيد:

عندما نتكلم عن نظرة الإسلام إلى أهل الذمة، فإننا لا بد وأن نفرق بين أمرين: الأمر الأول: النظرة العقائدية: وأقصد بها نظرة الإسلام العقائدية لغير المسلمين، «فإن كل من لا يؤمن برسالة محمد ﷺ من وجهة نظر الإسلام كافر، فهذا مما أجمعت عليه الأمة على اختلاف مذاهبها وطوائفها، طوال العصور^(١).

هذه هي نظرة الإسلام لغير المسلمين من ناحية العقيدة، والأمر يختلف اختلافاً كلياً من ناحية المعاملات، وهذا هو موضوع حديثي.

ينقسم الناس في الدولة الإسلامية إلى فئتين رئيسيتين: المسلمون وغير المسلمين. ويقسم غير المسلمين إلى فئات وأصناف، فباعتبار الدين يقسمون إلى ثلاثة أقسام: أهل الكتاب، ومن له شبهة كتاب، ومن ليس له كتاب، فالقسم الأول: يشمل اليهود والنصارى وكل من اتخذ التوراة أو الإنجيل كتاباً له، أما القسم الثاني فهم المجوس، والقسم الثالث: هم كل من سوى القسمين السابقين من عبدة الأوثان وسائر الكفار.

وباعتبار العلاقة مع الدولة يقسم غير المسلمين إلى ثلاثة أقسام كذلك: المحاربين، والمستأمنين، وأهل الذمة، فالمحاربون: هم كل من حارب المسلمين أو انتسب إلى قوم يحاربون المسلمين سواء كانت المحاربة فعلية أم كانت متوقعة، أما المستأمنون: فهم الكفار والمحاربون أصلاً ولكنهم يطلبون الأمان من المسلمين

(١) انظر د/يوسف القرضاوى: موقف الإسلام العقدى من كفر اليهود والنصارى ص ٦، ٧، ط

مكتبة وهبة القاهرة، الأولى سنة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

فيدخلون دار الإسلام آمنين على أنفسهم ويستقرون تحت حكم المسلمين مدة محددة من الزمن، أما أهل الذمة: فهم غير المسلمين الذين دخلوا في ذمة الدولة الإسلامية بصفة مؤبدة مع التزامهم بمجموعة من الأحكام والشروط، فأصبحوا بذلك من أهل دار الإسلام وبصورة دائمة (١).

الأمر الثاني: نظرة الإسلام إلى أهل الذمة من ناحية المعاملات:

لا شك أن الإسلام قد أوصى بمعاملة أهل الذمة معاملة طيبة لعل هذه المعاملة تؤتى ثمارها المرجوه وهي هدايتهم ودخولهم في الإسلام، فبين القرآن الكريم أن إجارة المشركين جائزة حتى يسمعوا كلام الله، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ وَذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢)، وكذلك أوصى النبي ﷺ بالجار حتى لو كان غير مسلم، فعن ابن عمر يقال: قال رسول الله ﷺ: «ما زال جبريلُ يُوصيني بالجارِ حتى ظننتُ أنه سيُورثُهُ» (٣)، وبين النبي ﷺ أن: الجيران ثلاثة: فمنهم من له ثلاثة حقوق، و منهم من له حقان، ومنهم من له حق، فأما الذي له ثلاثة حقوق فالجار المسلم القريب له حق الجار و حق الإسلام و حق القرابة، وأما الذي له حقان فالجار المسلم له حق الجوار و حق الإسلام، وأما الذي له حق واحد فالجار الكافر له حق الجوار (٤).

فانظر كيف أثبت النبي ﷺ للمشرك حقاً بمجرد الجوار، فهذه هي نظرة الإسلام

(١) انظر د/يحيى أحمد عبد الهادي حسين: أهل الذمة في العراق في العصر العباسي (الفترة السلجوقية نموذجاً) ص ١١، ١٢، ط عالم الكتب الحديث أريد - الأردن، الأولى سنة ٢٠٠٤هـ/٢٠٠٤م.

(٢) سورة التوبة آية ٦.

(٣) الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ٢٢٣٩/٥، كتاب الأدب، باب الوصاء بالجار ح رقم ٥٦٦٩.

(٤) انظر الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي: شعب الإيمان، الشعبة ٦٧ ح رقم ٩٥٦٠، تحقيق/محمد السعيد بسيوني زغلول ط دار الكتب العلمية بيروت، الأولى ١٤١٠هـ.

لكل من يقيم في بلد مسلمة وهو من غير المسلمين، ولا شك أن هذه المعاملة لها أثر كبير في الدعوة الإسلامية فكم سمعنا من أحداث السيرة العطرة، وأحداث التاريخ الإسلامي أن كثيراً من أهل الذمة أسلموا بسبب المعاملة الحسنة من المسلمين، وحتى الجزية ^(١) التي فرضها عليهم ربنا جل وعلا في قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ ^(٢)، فقد بين

(١) الجزية: هي المال المقدر المأخوذ من الذمي، فهي ضريبة على الرؤوس يلتزم غير المسلم بأدائها إلى الدولة الإسلامية إذا ما دخل في الذمة أي صار ذمياً، وهي ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع، فمن الكتاب قول الله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [سورة التوبة آية ٢٩]، ومن السنة: أن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس «البحرين»، وأجمع السلمون على أخذ الجزية من غير المسلم، ويشترط لوجوب الجزية: العقل والبلوغ والذكورة، فلا تجب على النساء والصبيان والمجانين، كما يشترط لوجوبها السلامة من الزمانة والعمى والشيخوخة، فلا تجب على زمن ولا على أعمى ولا شيخ كبير ولا تجب على الراهب، وعند بعض الفقهاء تجب عليه مطلقاً، وعند آخرين تجب عليه إذا خالط الناس أو كان قادراً على العمل، وتجب الجزية في آخر كل سنة وتؤخذ في آخرها، وعند الحنفية تجب في أولها وتؤخذ في آخرها، ومقدارها ١٢ درهماً على الفقير المعتمل، و ٢٤ درهماً على المتوسط، و ٤٨ درهماً على الموسر، وعند بعض الفقهاء أنها غير مقدرة وإنما يقدرها الإمام حسب اجتهاده ورأيه، وتسقط الجزية بعد وجوبها إذا أسلم الذمي أو عجزت الدولة الإسلامية عن حماية الذميين، ولهذا رد «أبو عبيدة بن الجراح» الجزية إلى الذميين في بعض مدن الشام، عندما عجز الجيش الإسلامي عن حمايتهم، وفي صلح «خالد بن الوليد» مع «صلوياً بن نسطونا» صاحب «قس الناطف» في منطقة «الحيرة»: «فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا حتى نمنعكم».

انظر د/عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة ص ٢٦٣، ط مؤسسة الرسالة، بيروت.

(٢) سورة التوبة آية ٢٩.

الماوردي أنها تؤخذ منهما إما جزء على كفرهم لأخذها منهم صغاراً، وإما جزء على أماننا لهم لأخذها منهم رفقاً^(١)، ولا تجب إلا على الرجال الأحرار العقلاء، ولا تجب على إمراة ولا صبي ولا مجنون ولا عبد لأنهم أتباع وذراري^(٢).

هذه هي معاملة غير المسلمين في بلاد الإسلام، معاملة تنم عن احترام الآخر وتقديره وحمايته وتوقيره والخوف عليه.

حالة أهل الذمة في عهد الدولة السلجوقية :

انتشر أهل الذمة في كثير من نواحي الدولة الإسلامية، وقد تمتع اليهود والنصارى بكثير من ضروب التسامح الديني لأنهم في ذمة المسلمين، عليهم واجبات ولهم حقوق، فكانوا يؤدون الجزية ولهم حق الأمان، ولذلك مارسوا شعائرهم الدينية في أمن، وشاركوا المسلمين في وظائف الدولة، وفي ممارسة المهن الحرة، ولم يتدخل الخلفاء العباسيون ولا سلاطين السلاجقة في شئونهم الدينية^(٣).

وكثر اليهود في خراسان، وكانوا أكثر من النصارى، ومن الطبيعي أن يزداد عدد اليهود في المدن التي تقع على طرق التجارة، وكان يقيم في بلاد المشرق أعداداً كبيرة من المجوس، وعمولوا كأهل الذمة، يؤدون الجزية في مقابل التمتع بحقوق المواطنة، وأنزل عضد الدولة البويهى العقاب بكل من تعرض لهم بسوء في شيراز سنة ٣٦٩هـ^(٤).

استمر المجوس في عهد السلاجقة يعاملون معاملة طيبة أسوة بأصحاب الأديان الأخرى كاليهود والنصارى، كما ظلوا يتمتعون بحريتهم الدينية، ويمارسون شعائرهم في

(١) انظر الأحكام السلطانية ص ١٨١.

(٢) المرجع السابق ص ١٨٣.

(٣) انظر تاريخ العراق والمشرق الإسلامي خلال العصر السلجوقي الأول ص ٢٣٦.

(٤) انظر الدول المستقلة في المشرق الإسلامي ص ٢٧٥.

معابدهم ولم يحدث ما حال دون ذلك^(١).

مارس أهل الذمة جميع الأعمال التي تتناسب مع خبراتهم، فكان منهم الأطباء والمهندسون والفلكيون والتجار والصيافة والصيدلة، وتدرجوا في سلك الوظائف حتى وصلوا إلى أعلى المناصب في الدولة^(٢)، فقد استخدم نظام الملك أبو سعد بن سما اليهودي الذي كان وكيلاً للسلطان ولنظام الملك معاً، وكان لذلك اليهودي دور في عزل الوزير أبي شجاع سنة ٤٨٤هـ^(٣)، واستخدام نظام الملك لأفراد من أهل الذمة مخالف للسياسة التي قررها نفسه في كتابه سياست نامه حيث نهى عن إسناد الأعمال والمناصب إلى اليهود والنصارى والمجوس، كما نهى عن توليتهم شئون المسلمين^(٤).

وكان لأهل الذمة لباس خاص يتميزون به عن المسلمين عامة، فاليهود ارتدوا البراطيل الطويلة، على حين اتخذ النصارى البرانس أول الأمر ثم لبسوا القلانس الطويلة^(٥).

وفى سنة ٤٨٤هـ خرج توقيع الخليفة بإلزام أهل الذمة بلبس الغيار والزنار، والدرهم الرصاص المعلق في أعناقهم مكتوب عليه: نمي، وأن تلبس النساء مثل هذا الدرهم في حلوقةن عند دخول الحمام ليعرفن، وأن تلبس الخفاف فرداً أسود وفرداً أحمر، وجلجلاً في أرجلهن^(٦).

وبلغ من تسامح الخلفاء العباسيين وسلطين السلاجقة نحو أهل الذمة، أنهم كانوا يشاركون النصارى الاحتفال بأعيادهم وكانت هذه الأعياد على نوعين دينية كعيد رأس

(١) انظر تاريخ العراق والمشرق الإسلامي خلال العصر السلجوقي الأول ص ٢٣٩.

(٢) انظر الدول المستقلة في المشرق الإسلامي ص ٢٧٥.

(٣) انظر الكامل في التاريخ ١٠/١٨٦.

(٤) انظر أهل الذمة في العراق في العصر العباسي ص ٧٦.

(٥) انظر تاريخ العراق ص ٢٣٧.

(٦) انظر المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٦/٢٩٢.

السنة، وأعياد خاصة يحتفل بها البعض في الأديرة^(١) دون غيرها وكانت الأديرة منتشرة في كل أنحاء بغداد حتى كادت تخلو منها الحياة^(٢).

كذلك شارك الكثير من المسلمين النصارى الاحتفال في أعيادهم الدينية حتى أصبحت بعض الأعياد النصرانية أعياداً شعبية يشارك فيها الجميع، فدير الثعالب مثلاً له عيد لا يتخلف عنه أحد من النصارى والمسلمين ودير سمالو كان مكاناً لاجتماع النصارى في عيد الفصح^(٣).

وكان أهل الذمة يتمتعون بحرية تامة في ممارسة شعائرهم الدينية سواء في بيوتهم أو في دور العبادة عندهم، وتسمى دور العبادة عند النصارى: الدير والعمر والكنيسة والبيعة والصومعة والقلاية^(٤)،^(٥) وتسمى دار العبادة عند اليهود كنيسة أو كنيس، وقد تعرضت الأديرة والبيع للعديد من الفتن التي نتج عنها خراب بعض الأديرة، وكان النصارى يقومون بين الحين والآخر بأعمال بناء وصيانة وترميم لهذه الأديرة والكنائس، فالجاثليق يوحنا بن الطوغال قام بإصلاح ما تهدم على أيدي الأتراك البغداديين سنة ٤٤٦هـ/١٠٥٤م، وساهم الأغنياء من النصارى المقيمين بدار الروم في تغطية نفقات البناء، كما قام النصارى بإعادة بناء الهياكل والأديرة التي خربت أثناء فتنة البساسيري، وقام الجاثليق عبدا يشوع بن المقلّى (ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م)

(١) الدير: بيت يتعبد فيه الرهبان ولا يكاد يكون في المصر الأعظم، وإنما يكون في الصحارى ورؤوس الجبال، فإن كان في المصر كانت كنيسة أو بيعة، وربما فرق بينهما فجعلوا الكنيسة لليهود والبيعة للنصارى. انظر معجم البلدان ٤٩٥/٢، ويسمى الدير أحياناً بالعمر. المرجع السابق ١٥٤/٤.

(٢) انظر تاريخ العراق والمشرق الإسلامي ص ٢٣٨.

(٣) انظر أهل الذمة في العراق في العصر السلجوقي ص ١٨٥.

(٤) القلاية والصومعة فيبينها الراهب لينفرد فيها متعبداً وتكون مرتفعة كالمنارة ولا يكون لها باب بل فيها طاقة يتناول منها طعامه وشرابه وما يحتاج إليه. المرجع السابق ص ١٥٢.

(٥) المرجع السابق ص ١٥٢.

بتجديد المباني الخاصة وإعادة إعمارها مثل دار الروم وأنفق عليها مبالغ كبيرة، كما جدد الجائليق إيليا الثالث (ت ٥٨٦هـ/١٩٠م) بناء هيكل ماري الرسول بدير قنى وأعاد عمارة القلابة والبيعة بدار الروم بعد أن كان قد استولى عليها الخراب، إن هذه الأعمال من البناء والترميم تدل على عدم وجود قيود تمنع أهل الذمة من إعادة بناء ما تهدم من بيعة وكنائسهم^(١).

إن هذه الأعمال من بناء الكنائس وترميمها، وتولى أهل الذمة من اليهود والنصارى وغيرهم الوظائف المختلفة في الدولة السلجوقية، وتفق بعضهم في مهنة معينة حتى أن مهنة الطب في هذا العصر كادت أن تنحصر في أهل الذمة، وهذا كله إن دل فإنما يدل على تمتع أهل الذمة في العصر السلجوقي بحرية كاملة في ممارسة شعائرهم الدينية، والقيام بأعمالهم الدنيوية في المجالات المختلفة، ويدل أيضاً على التزام الدولة السلجوقية بمبادئ الإسلام في معاملتهم.

أثر منح الدولة السلجوقية فيما يتعلق بأهل الذمة في الدعوة الإسلامية:

لا شك أن معاملة الدولة السلجوقية لأهل الذمة كان له أثر كبير في الدعوة، فقد دخل كثير من اليهود والنصارى الإسلام، والأسباب التي ساعدت على دخولهم في الإسلام متعددة، منها:

(١) احتكاكهم بالمسلمين ومعايشتهم لهم، وساهم في ذلك دروس الوعظ التي كان يلقيها العلماء المسلمون، فقد أسلم على يد ابن الجوزي من خلال دروس الوعظ التي كان يلقيها حوالى ألف يهودى ونصرانى، كما أسلم على يد الشيخ عبد القادر الجبلى معظم اليهود والنصارى، كما دخلت أعداد أخرى في الإسلام على أيدي وعاظ آخرين، وممن أسلم بسبب مواعظ المسلمين ونصائحهم الطبيب يحيى بن عيسى بن جزلة، فقد درس المنطق على أحد شيوخ المعتزلة، وهو أبو على

(١) المرجع السابق ص ١٥٥، ١٥٦.

بن الوليد، فلم يزل ابن الوليد يحسن له الإسلام حتى اقتنع به وأعلن إسلامه. (٢) ما يحققه دخولهم في الإسلام من مكانة وطموح في الحياة العامة، أو طمعاً في المال، أو خلاف بينه وبين أهل طائفته^(١).

ولعل معظم هذه الأسباب كانت دنيوية، إلا أن الأعداد الكبيرة التي كانت تعتنق الإسلام من أهل الذمة على يد وعاظ المسلمين كانت لقناعتهم بالإسلام كدين سماوي يجب أن يتبع، وأن يسير المرء في ركابه، مما كان لهذا أثر كبير على رواج الدعوة الإسلامية.

ولم تقف معاملة الدولة السلجوقية مع أهل الذمة من المقيمين في الدولة بصورة دائمة فحسب، بل كان لسلطين السلاجقة من المواقف المختلفة مع المحاربين من غير المسلمين، ومن هذه المواقف موقف السلطان طغرلبيك من ملك الأبخاز، والذي كان قد وقع في أسر المسلمين، فأطلقه السلطان طغرلبيك من غير فداء، فعظم ذلك عنده وعند ملك الروم، والذي كان قد سعى في فك سراحه عن طريق ابن مروان، فكان من نتيجة ذلك أن أرسل إلى السلطان هدايا كثيرة، وعمروا مسجد القسطنطينية، وأقاموا فيه الصلاة والخطبة لطغرلبيك^(٢).

ومن المواقف أيضاً موقف السلطان ألب أرسلان من ملك الروم رومانوس والذي جاء بجيوش جرارة لهدم بلاد الإسلام فلما هزم ووقع في الأسر، عفا عنه السلطان ألب أرسلان، وكان من نتيجة هذا العفو أن يرسل إليه عساكر الروم في أي وقت يطلبها السلطان، وأن يطلق سراح كل أسير في بلاد الروم، هذا إلى جانب الفدية الكبيرة من المال^(٣).

(١) انظر أهل الذمة في العراق في العصر العباسي ص ١٩٠ - ١٩٣.

(٢) انظر الكامل في التاريخ ٥٥٦/٩، ٥٥٧.

(٣) انظر الكامل في التاريخ ٦٣/١٠.

وهذه المواقف إن دلت فإنما تدل على مدى تسامح السلاطين السلاجقة مع أهل
الذمة من اليهود والنصارى وغيرهم حتى المحاربين والذين عادوا الإسلام والمسلمين
مما كان له عظيم الأثر على الإسلام والمسلمين، وكان له أثر في الدعوة إذ دخل
عدد منهم في الإسلام، وهذا لم يكن ليحدث إن لم يكن هناك هذه المعاملة الحسنة من
جانب سلاطين السلاجقة.



الفصل الثالث

وسائل الدعوة الإسلامية
في عهد الدولة السلجوقية

الفصل الثالث

وسائل الدعوة الإسلامية في عهد الدولة السلجوقية

تمهيد: تعريف الوسيلة:

الوسيلة لغة: المنزلة عند الملك، والوسيلة: الدرجة، والوسيلة القرية، ووسل فلان إلى الله: إذا عمل عملاً تقرب به إليه.

والواسل: الراغب إلى الله، قال لبيد:

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم
بلى كل ذى لب إلى الله واسل^(١)

والوسيلة: ما يتقرب به إلى الغير، والجمع: الوكيل والوسائل.

والتوسيل والتوسل واحد، يقال: وسل فلان إلى ربه وسيلة بالتشديد، وتوسل إليه بوسيلة إذا تقرب إليه بعمل^(٢)، ووسل إلى الله تعالى توسيلاً: عمل عملاً تقرب به إليه^(٣).

وعلى هذا تكون الوسيلة في اللغة: ما يتوصل به إلى الغير، كما بدا من التعريفات السابقة المتقاربة في معناها.

تعريف الوسيلة اصطلاحاً:

الوسيلة بمفهومها الدعوى:

(١) مجموعة الطرق المحبوبة والمرغوب فيها لدى الدعاة للاتصال بالمدعويين والتأثير عليهم وتوجيههم^(٤).

(١) انظر لسان العرب مادة (وسل) ٣٠١/١٥

(٢) انظر مختار الصحاح مادة (وسل) ص ٣٨٥.

(٣) انظر القاموس المحيط مادة (وسل) ص ١٠٨٠.

(٤) انظر قسم الدعوة والثقافة الإسلامية بكلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة: دراسات في وسائل

تبليغ الدعوة الإسلامية ص ٤.

- (٢) ما يستعين به الداعي على تبليغ الدعوة إلى الله تعالى على نحو نافع مثمر^(١).
- (٣) هي التوصل إلى الشيء برغبة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢)،^(٣).

وبالنظر في هذه التعريفات نجد أن بينها تقارب كبير في المعنى وليس بينها تفاوت.

والوسيلة التي أقصدها في الكتاب: كل ما استطاع السلاجقة من خلاله نشر الدعوة الإسلامية سواء كانت مادية أو معنوية قولاً وعملاً، فالوسائل في عهد دولة السلاجقة تنوعت، فالجهاد كان وسيلة من هذه الوسائل وكان له دوره في نشر الدعوة الإسلامية، وكذلك المساجد والمدارس والقضاء وهكذا سائر الوسائل، وها هي أهم الوسائل الدعوية التي استخدمت في عهدهم.



(١) انظر أصول الدعوة ص ٤٤٧.

(٢) سورة المائدة آية ٣٥.

(٣) انظر د/على عبد الحليم محمود: منهج التربية عند الإخوان المسلمين ص ٦٩٧، ط دار الوفاء، المنصورة، بدون تاريخ.

المبحث الأول

الجهاد وأثره في الدعوة

وكيفية الاستفادة منه في العصر الحاضر

١ - تعريف الجهاد لغة واصطلاحاً:

تعريف الجهاد لغة:

الجُهد والجُهدُ: الطاقة، تقول: اجْهَد جَهْدَكَ، وقيل الجَهدُ: المشقة، والجُهدُ: الطاقة^(١)، وقيل هو من جهد جهداً في الأمر: جد وبذل وسعه، وأجهد عليه العدو جد في العداوة، والجهاد بالكسر القتال مع العدو، وجاهد العدو مجاهدة أي بالغ في قتال عدوه، وجاهد في سبيل الله، وفي الحديث: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا»^(٢)، والجهاد محاربة الأعداء، وهو المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل^(٣).

وعلى هذا فالجهاد لغة: بذل الجهد وهو الوسع والطاقة مأخوذة من الجهد بالضم، أو المبالغة في العمل مأخوذة من الجهد بالفتح^(٤).

تعريف الجهاد اصطلاحاً:

عرف الفقهاء الجهاد بتعريفات كثيرة، وجاء المعنى الذي دارت حوله هذه التعريفات واحداً فقد:

(١) انظر لسان العرب مادة (جهد) ٣٩٥/٢.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ١٠٢٥/٣، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والسير ح رقم ٢٦٣١.

(٣) انظر لسان العرب مادة (جهد) ٣٩٧/٢.

(٤) انظر الشيخ محمد متولى الشعراوي: الجهاد في الإسلام ص ٤١، ط مكتبة التراث الإسلامى.

- (١) عرفه الحنفية: بأنه بذل الوسع والطاقة بالقتال في سبيل الله عز وجل بالنفس والمال واللسان أو غير ذلك أو المبالغة في ذلك.
- (٢) عرفه المالكية: بأنه قتال مسلم كافراً غير ذي عهد لإعلاء كلمة الله أو حضوره له أو دخوله أرضه.
- (٣) عرفه الشافعية: بأنه القتال في سبيل الله.
- (٤) عرفه الحنابلة: بأنه قتال الكفار خاصة بخلاف المسلمين من البغاة وقطاع الطريق^(١).

والملاحظ من التعريفات السابقة أنها تدور حول معنى واحد هو القتال في سبيل الله تعالى سواء جاهد الإنسان الكفار بنفسه أو بماله أو بلسانه. وأما غايته فهو: إقامة المجتمع الإسلامي وتكوين الدولة الإسلامية الصحيحة^(٢).

٢ - فضل الجهاد وأهدافه :

الجهاد إعلاء لكلمة الله، وتمكين لهديته في الأرض، وتركيز للدين الحق، ومن ثم كان أفضل من تطوع الحج والعمرة، وأفضل من تطوع الصلاة والصوم، وهو مع ذلك ينتظم كل لون من ألوان العبادات، سواء منها ما كان من عبادات الظاهر أو الباطن، فإن فيه من عبادات الباطن: الزهد في الدنيا، ومفارقة الوطن، وهجرة الرغبات، حتى سماه الإسلام الرهبنة، فقد جاء في الحديث: «رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله»^(٣).

(١) انظر د/على عبده محمد على، د/محمد شكري الجميل العدوي: أحكام القضاء والجهاد في الفقه الإسلامي (دراسة مقارنة) ص ٢٤٤، ٢٤٥.

(٢) انظر د/محمد سعيد رمضان البويطي: فقه السيرة ص ١٣٤، ط مكتبة الدعوة الإسلامية، بدون.

(٣) انظر سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني: المعجم الكبير ١٥٧/٢، ح رقم ١٦٥١،

تحقيق /حمدي بن عبدالمجيد السلفي، ط مكتبة العلوم والحكم الموصل، الثانية سنة ١٤٠٤هـ

/١٩٨٣م، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي: صحيح ابن حبان بترتيب ابن

بليان ٧٦/٢، ح رقم ٣٦١، مؤسسة الرسالة بيروت الثانية ١٤١٤هـ /١٩٩٣م، تحقيق

/شعيب الأرنؤوط.

وفيه من التضحية بالنفس والمال وبيعهما لله ما هو ثمرة من ثمرات الحب والإيمان، واليقين والتوكل قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآنَ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْلُ الْعَظِيمُ﴾^(١).

وقد عظم الإسلام أمره، ونوه به في عامة السور المدنية، وذم التاركين له والمعرضين عنه، ووصفهم بالنفاق ومرض القلب^(٢).

ولما للجهاد من منزلة عظيمة، وفضل واسع، وثواب جزيل، جاءت آيات القرآن الكريم تبين فضله، ومنزلته، وجزاء من ضحى بنفسه في سبيل الله، وكذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ تبين منزلته، ومرغبة فيه، ومحذرة الناس من التقاعس عنه؛ لأن في ذلك الذل والهوان.

فمن الآيات القرآنية التي وردت في فضل الجهاد وأهميته :

قوله تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُأُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ

(١) سورة التوبة آية ١١١.

(٢) انظر السيد سابق: فقه السنة ص ٢٥، ط مكتبة التراث القاهرة.

(٣) سورة النساء آية ٧٤.

(٤) سورة النساء آية ٩٥، ٩٦.

مَنْ حَرَجَ مَلَّةً أَيْبَكُمْ بِإِزْهِيمٍ هُوَ سَمَّكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿١﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى بَيْعَةٍ تَنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١١﴾ تَوَمَّنْ يَا أَلَلَّهِ وَرَسُولِهِ يُكْفِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾.

وغير ذلك من الآيات القرآنية الكثيرة المتعددة والمتنوعة التي وردت في فضل الجهاد والترغيب فيه، مما لا يتسع المقام لذكرها، وما أوردته قصراً لا حصراً.

أما ما ورد في السنة النبوية المطهرة، فمنها على سبيل المثال لا الحصر:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الْجِهَادَ، قَالَ: لَا أَحِدُهُ، قَالَ: هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلَا تَقُومَ وَتَصُومَ وَلَا تَقُومَ؟ قَالَ: وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ» (١).

وعن سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَمَوْضِعُ سَوْطٍ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَالرُّوحَةُ يَرْوَحُهَا الْعَبْدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ الْعِدْوَةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا» (٢).

(١) سورة الحج آية ٧٨.

(٢) سورة الصف آية ١٠ - ١٣.

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ١٠٢٦/٣، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والسير ح رقم ٢٦٣٣.

(٤) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ١٠٥٩/٣، كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله ح رقم ٢٧٣٥.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَاللَّهِ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ، كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ، وَتَوَكَّلَ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ بِأَنْ يَتَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ سَالِمًا مَعَ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ بِغَزْوِ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ»^(٢).

وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي وردت في فضل الجهاد وأهميته، وهذا إن دل فإنما يدل دلالة قاطعة على أن للجهاد منزلة لا تدانيها منزلة، وفضله لا يعدله فضل، سواء في الظفر بالغنيمة أو إنالة الشرف بالاستشهاد في سبيل الله تعالى.

أهداف الجهاد:

للجهاد أهداف جليلة وعظيمة، تصب كلها في خير البشرية، لأن الجهاد حماية للإنسان من ظلم نفسه، وكذلك ظلم الآخرين له، وأهم أهداف الجهاد هي:

(١) إزالة عوائق الحرية العقلية، وحماية الشخصية الإنسانية من الانحدار في هوة الإسفاف، وإتاحة المجال لإبراز خصائصها الخيرة وتخليصها من شوائب الخرافة والوهم وعبادة المادة واستغلال المستضعفين.

(٢) رد الظلم والبغي والعدوان عن الدين والوطن والأهل والمال والولد، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾^(٣).

(٣) تأمين طريق الدعوة لدين الله تعالى . بأمر من الله . باعتبارها رسالة اجتماعية

(١) أخرجه الإمام البخارى ٣ / ١٠٢٧، كتاب الجهاد والسير، باب أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله ح رقم ٢٦٣٥، ومسلم في صحيحه ٣/١٤٩٨، كتاب الإمارة، باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى ح رقم ١٨٧٨.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ٣/١٥١٧، كتاب الإمارة، باب ذم من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو ح رقم ١٩١٠.

(٣) سورة الحج آية ٣٩.

إصلاحية، منقذة شاملة، تتطوى على مبادئ الحق والخير والعدل والمساواة والإخاء، وعبادة الله وحده.

(٤) نصره المظلومين المضطهدين من الشعوب، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يهاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنَ الْكُفْرِ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوا فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِثْقٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(١).

وأما القول بأن المسلمين حملوا السيف ليرغموا به الشعوب على الإسلام فتحويل، ويمكن إيراد شهادة المؤرخ الكبير «توينبي» بهذا الصدد فيقول: «من الميسور أن نسقط الدعوى التي شاعت بين جوانب العالم المسيحي غلواً في تجسيم أثر الإكراه في الدعوة الإسلامية، إذ لم يكن التخيير ببلاد الروم وفارس بين الإسلام والسيف، وإنما كان تخييراً بين الإسلام والجزية، وهي الخطة التي تستحق الثناء لاستنارتها حين اتبعت بعد ذلك في البلاد الإنجليزية على عهد «الملكة إليزابيث»^(٢).

ووسيلة الجهاد من أهم الوسائل التي يجب استخدامها في الدعوة إلى الله عز وجل لا سيما مع أقوام لا يصلح معهم غير الجهاد، فالقوة لا بد وأن تقابل بالقوة.

٣ - أنواع الجهاد:

الجهاد نوعان:

(١) جهاد دفاعي: ويقصد به حماية الدولة من أي عدوان خارجي.

(٢) جهاد هجومي: ويقصد به إزالة كل ما يقف عقبة في طريق الدعوة.

والسؤال الذي يطرح نفسه: هل قام السلاجقة بهذين النوعين من الجهاد أم لا؟

والحق أقول: أن دولة السلاجقة قامت بهذين النوعين من الجهاد، أما الجهاد

(١) سورة الأنفال آية ٧٢.

(٢) انظر د/شوقي أبو خليل: الإسلام في قصص الإتهام ص ٨٦، طبعة دار الفكر، دمشق، الطبعة

الرابعة سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

الدفاعى ففى عهد السلاجقة لم يجترأ غير المسلمين على مهاجمة ديار المسلمين، والتي كانوا قد استباحوها في عهد البويهيين، وهذا إن دل فإنما يدل على هببة الدولة السلجوقية والذي جعل الدولة البيزنطية في ذلك الوقت لا تفكر في أي هجوم على أراضي المسلمين، وعندما فكروا في سنة ٤٦٣ هـ ردهم السلاجقة على أعقابهم نادمين.

وأما الجهاد الهجومى: فلقد قامت به الدولة السلجوقية من أول يوم استقرت فيه الدولة، وأصبح لها كيان مستقل.

٤ - الجهاد عند السلاجقة :

لما كان للجهاد أهمية عظمى باعتباره وسيلة من وسائل الدعوة الإسلامية اهتم السلاطين السلاجقة بإحياء روح الجهاد، وأصبح الجهاد من أبرز وسائل الدعوة عندهم، ولقد اتجه السلاطين السلاجقة في فتوحاتهم إلى بلاد الروم وكان الباعث على التوسع الإسلامي في بلاد الروم ثلاثة أسباب: دينى واقتصادى وسياسى.

أما ما يتعلق بالباعث الدينى فقد وضع السلاجقة العظام^(١) نصب أعينهم هدفاً راحوا يعملون على تحقيقه ألا وهو نشر الإسلام في أوسع رقعة ممكنة وبخاصة بين جيرانهم النصارى، وأعنى بهم الأرمن والبيزنطيين، الأمر الذى يكسب حروبهم طابعاً جهادياً، كما يكسبهم عطف المسلمين جميعاً، وأن اقتربهم من حدود الكرج والبلاد الأرمينية والبيزنطية، هياً لهم الفرصة لأن يواصلوا حركة الجهاد المقدس الذى سبق أن قاموا به في الشرق، وقد حرص طغرلبيك في أن يجعل أتباعه من الأتراك دائماً تحت تصرفه، يوجههم في حملات مختلفة، ويفيد منهم في الجهاد ضد الكفار^(٢).

وفيما يتعلق بالباعث الاقتصادى :

فإن أول المشاكل التي واجهت الإمبراطورية السلجوقية كانت مشكلة التركمان، وإيجاد أراضي للأعداد المتزايدة منهم، ولقد اعتبر كل من طغرلبيك وألب أرسلان

(١) أعنى بهم سلاطين السلاجقة الأوائل وهم طغرلبيك وألب أرسلان وملكشاه.

(٢) انظر د/محمد سهيل طقوش: تاريخ سلاجقة الروم في أسيا الصغرى ص ٣٥، ٣٦.

وملكشاه التركمان من أشد العناصر خطورة على أمن الدولة وقانونها فوجهوهم إلى أراضي آسيا الصغرى، وبذلك أمنوا أولاً من اجتياحهم الأراضي الإسلامية، ثانياً: دعموا قواتهم ضد بيزنطة ففتح الأناضول وتتركة كانت نتيجة لتلك السياسة واستجابة لتلك الاحتياجات^(١)، ومما يؤكد ذلك ما رواه ابن الأثير في سبب غزو إبراهيم ينال أخى السلطان طغرلبيك للأراضي البيزنطية: أن خلقاً كثيرين من الغز مما وراء النهر قدموا عليه، فقال لهم: بلادى تضيق عن مقامكم والقيام بما تحتاجون إليه، والرأي أن تمضوا إلى غزو الروم، وتجاهدوا في سبيل الله وتغنموا، وأنا سائر على أتركم ومساعد لكم على أمركم ففعلوا^(٢).

أما فيما يتعلق بالباعث السياسي:

فقد كان لبلاد الأرمن أهمية سياسية وعسكرية في علاقة المسلمين ببيزنطية، وكانت الدول الإسلامية على مر العهود لا تفرط بهذه البلاد حتى انتزعتها الأسرة المقدونية من أيديهم في عهد الإمبراطور باسيل الأول (٢٥٣-٢٧٣هـ/٨٦٧-٨٨٦م)، فارتبطت أرمينية في عهد ملكها آشوط الأول من الأسرة البغرافية بنوع من التحالف والعلاقات الودية مع بيزنطية، وأضحت دولة حاجزة ضد المسلمين في الشرق، لكن هذه التبعية بقيت مزعزعة بسبب انقسام الأرمن فيما بينهم، وهكذا تناوب الطرفان الإسلامي والبيزنطى على البلاد إلى أن خضعت نهائياً للبيزنطيين في عهد باسيل الثاني (٣٦٥-٤١٦هـ/٩٧٦-١٠٢٥م) حيث تنازل حنا سمباد في عام (٤١٢هـ/١٠٢١م) للإمبراطور البيزنطى عن أملاكه بعد وفاته على أن تظل تحت حكمه أثناء حياته، وذلك نظراً لما تعرضت له بلاده من الغارات من قبل السلاجقة والأبخاز^(٣).

(١) انظر د/زبيدة عطا: الترك في آسيا الوسطى ص ٤٥، ط دار الفكر العربى.

(٢) انظر الكامل في التاريخ ٥٤٦/٩.

(٣) الأبخاز: اسم ناحية من جبل القبق المتصل بباب الأبواب، وهى جبال صعبة المسلك وعرة لا مجال للخيل فيها، تجاور بلاد اللان، يسكنها أمة من النصارى يقال لهم الكرج، وفيها تجمعوا ونزلوا إلى نواحي تقليس. انظر معجم البلدان ٦٤/١.

هذا فضلاً عن تهديد أخيه أشوت له، والحروب الداخلية التي شهدتها البلاد، وجرى على نهجه سنحاريب ملك فاسبوركان^(١)، بعد أن أدرك أنه ليس بوسعها أن يقاوم السلاجقة، وذلك مقابل الحصول على سيواس^(٢)، وعندئذ أدرك طغرلبيك أهمية السيطرة على أرمينية لكسر الطوق البيزنطي من أمام المسلمين تمهيداً للتوغل داخل الأراضي البيزنطية لمواصلة حركة الجهاد وإشباع رغبة أتباعه^(٣).

أولاً: فتوحات السلاجقة في آسيا الصغرى في عهد طغرلبيك:

قام السلاجقة في عهد السلطان طغرلبيك بغارتين كبيرتين على الأراضي البيزنطية، قاد الغارة الأولى إبراهيم ينال في عام ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م في حين قاد الثانية طغرلبيك نفسه في عام ٤٤٦ هـ/١٠٥٤ م، ونتيجة لتلك الغزوتين تهيأت الفرصة للمغربين القيام بخطوات مستقبلية بهدف الإستيطان^(٤)، ففي عام ٤٤٠ هـ قام إبراهيم ينال بغزو الروم، فوصلوا إلى ملاذكرد، وأرزن الروم، وقاليقلا^(٥)، وبلغوا طرابزون^(٦)، ولقيهم عسكر عظيم للروم والأبخاز يبلغون خمسين ألفاً، فاقتتلوا، واشتد القتال بينهم، وكانت بينهم عدة وقائع، تارة يظفر هؤلاء، وتارة هؤلاء، وكان آخر الأمر الظفر للمسلمين، فأكثروا القتل في الروم وهزمهم، وأسروا جماعة كثيرة من بطارتهم، وممن

(١) فاسبور كان: إحدى مقاطعات أرمينية. انظر تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى هامش ص ٣٧.

(٢) سيواس: هي سبسطية، ولاية تركية تقع في شمال بلاد الروم، تحدها شمالاً قسطنطينية وطرابزون، وشرقاً أرزن الروم ومعمورة العزيز، وجنوباً حلب وأدرنة وغرباً أنقرة وقسطنطينية. المرجع السابق هامش ص ٣٧.

(٣) انظر تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص ٣٦، ٣٧.

(٤) المرجع السابق ص ٣٨.

(٥) قاليقلا: بأرمينية العظمى من نواحي خلاط ثم من نواحي منازجرد. انظر معجم البلدان ٢٩٩/٤.

(٦) طرابزون: ميناء بأسيا الصغرى يقع على البحر الأسود. انظر تاريخ سلاجقة الروم بأسيا الصغرى هامش ص ٣٨.

أسر قاريط الأبخاز، فبذل في نفسه ثلاثمائة ألف دينار وهدايا بمائة ألف، فلم يجبه إلى ذلك، ولم يزل السلجوقية يجوسون تلك البلاد إلى أن بقى بينهم وبين القسطنطينية خمسة عشر يوماً^(١)، وفي سنة ٤٤١ هـ أرسل ملك الروم إلى شيخ الإسلام أبا عبد الله بن مروان يسأله أن يسعى في فداء ملك الأبخاز، فأرسل ابن مروان في المعنى إلى السلطان طغرلبيك فأطلقه بغير فداء، فعظم ذلك عنده وعند ملك الروم، وكان من نتيجة ذلك أن أرسلوا كثيراً من الهدايا وعمّروا مسجداً بالقسطنطينية، وأقاموا فيه الصلاة والخطبة لطغرلبيك^(٢).

وفي سنة ٤٤٦ هـ قام السلطان طغرلبيك بالحملة الكبيرة الثانية إلى داخل الأراضي البيزنطية عندما سمع بموت الإمبراطور قسطنطين ووصل إلى أرزن، ونهبت عساكره الأقاليم الواقعة بين هذه المدينة وبحيرة فان، ومن بينها مدينة باركيرو الواقعة على الطريق بين أرجيش وخوى في أذربيجان، ثم تقدم نحو مقاطعة باسين من أعمال أرزن، وحاصر مانزيكرت وضيق على سكانها، وأحرق جنود الحامية آلاته التي استعملها في الحصار، وقد قاد باسيلوس حاكم المدينة حركة المقاومة، ونجح في صد القوات السلجوقية، وانسحب طغرلبيك عائداً إلى أذربيجان، ودمر أثناء تراجعه ما صادفه من قرى ومزارع، وترك في المنطقة جماعة من أتباعه الرواد لمواصلة الغارة^(٣).

والواضح: أن غارات السلاجقة ظلت حتى وفاة طغرلبيك في عام ٤٥٥ هـ/١٠٦٣ م تستهدف غالباً السلب والنهب دون محاولة الاستقرار، إنما كانت خطوة تمهيدية استطلعت خلالها القوات السلجوقية أوضاع وطبيعة المنطقة^(٤).

(١) انظر الكامل في التاريخ ٥٤٦/٩.

(٢) المرجع السابق ٥٥٦/٩، ٥٥٧.

(٣) انظر تاريخ سلاجقة الروم في أسيا الصغرى ص ٣٩.

(٤) المرجع السابق ص ٤٠.

ثانياً: فتوحات السلاجقة في آسيا الصغرى في عهد السلطان ألب أرسلان:

تولى السلطان ألب أرسلان حكم السلاجقة بعد وفاة عمه طغرلبك سنة ٤٥٥هـ، وكان ألب أرسلان كعمه طغرلبك قائداً ماهراً مظفراً، كما كان وزيره نظام الملك رجلاً حكيماً، وسياسياً محنكاً، بعيد النظر ثاقب الفكر، فرجحا ألا تقتصر سيطرة السلاجقة على العالم الإسلامي في ذلك الوقت، بل يجب أن تتعداها إلى الأقاليم المسيحية المجاورة لإيران كبلاد الأرمن وبلاد الروم، لأن هذا سوف يكسب حروب السلاجقة صبغة دينية، ويعطيها طابع الجهاد في سبيل الله لنصرة دينه، ونشره في الأفاق، فترتفع راية الإسلام خفاقة في مختلف الأرجاء^(١)، فقام السلطان ألب أرسلان بحملة كبيرة ضد الأقاليم النصرانية المجاورة لدولته، وقاد جيشه نحو جنوب أذربيجان، ثم اتجه غرباً لفتح بلاد الكرج والمناطق المطلة على بلاد البيزنطيين، وكان سكان الكرج^(٢) يكثر من الغارة على أذربيجان فأصبحوا مصدر قلق لسكان المنطقة، وانضم إليه وهو في مدينة مرند في أذربيجان أحد أمراء التركمان ويدعى طغتكين، وكان دائم الغارة على تلك المنطقة، عارفاً بمسالكها، واجتاز الجيش السلجوقي نهر الرس^(٣)، في طريقه إلى بلاد الكرج، وفصل ألب أرسلان أثناء زحفه قوة عسكرية بقيادة ابنه ملكشاه ووزيره نظام الملك هاجمت حصوناً ومدناً بيزنطية منها حصن سرمارى^(٤)، ومدينة مريم نشين الحصينة،

(١) انظر سلاجقة إيران والعراق ص ٥١.

(٢) الكرج: جبل من الناس نصارى كانوا يسكنون في جبال العتق وبلد السرير فقويت شكوتهم حتى ملكوا مدينة تغليس ولهم ولاية تنسب إليهم وملك ولغة وشوكة وقوة وكثرة عدد. انظر تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى هامش ص ٣٦.

(٣) نهر الرس: نهر يخرج من قاليقلا ويمر بأران ثم نهر بورثان ثم يمر بالمجمع فيجتمع هو والكر وبيذهما مدينة البليقان ويمر الكر والرس جميعاً فيصبان في بحر جرجان. انظر معجم البلدان ٤٤/٣.

(٤) سرمارى: بضم أوله وسكون ثانية وبعد الألف راء، قلعة عظيمة وولاية واسعة بين تغليس وخالط. انظر معجم البلدان ٢١٥/٢.

وفتحها^(١)، ثم حدث أن استدعى ألب أرسلان إليه ابنه ووزيره، وفرح بما يسره الله من الفتح على يد ولده، وسار إلى سبيذ شهر، فجرى بين أهلها وبين المسلمين حروب شديدة استشهد فيها كثير من المسلمين، ثم إن الله تعالى يسر فتحها فملكها ألب أرسلان، ثم سار منها إلى مدينة أعال لآل وهي حصينة، عالية الأسوار، وقاتلهم أهلها، ثم إن الله منّ على المسلمين بالنصر، ثم سار منها إلى مدينة قارس وآنى، وكان بالقرب من الأخيرة ناحيتان يقال لهما سيل وردة ونورة، فخرج أهلها مذعنين بالإسلام وخربوا البيع، وبنوا المساجد، ولما استولى الجيش السلجوقي على مدينة آنى بعد قتال أهلها^(٢)، عين عليهم السلطان ألب أرسلان حاكماً من قبله، كما ترك بها حامية عسكرية كبيرة، وفي ذلك إشارة إلى بداية الاستقرار السلجوقي في الأملاك الأرمينية، ويبدو أن ملك الكرج هاله التوغل السلجوقي في عمق المناطق الأرمينية فهادن ألب أرسلان وصالحه على دفع الجزية وذلك في عام ٤٥٨هـ/١٠٦٥م، نتيجة لهذا التوغل السلجوقي أضحى الطريق مفتوحاً أمام السلاجقة للعبور إلى الأناضول بعد أن سيطروا على قلب أرمينية، فأغاروا على المناطق الحدودية، واستولوا على دروب الأمانوس في عام ٤٥٩هـ/١٠٦٦م، وهاجموا قيصرية^(٣)، حاضرة كبادوكيه في العام التالي، جرى ذلك ولم يبذل الإمبراطور البيزنطي جهداً كبيراً لمقاومة هذه الغارات، مما شجعهم على التوغل في عمق الأناضول فوصلوا إلى نيكسار^(٤)، وعمورية^(٥)، في عام ٤٦١هـ/١٠٦٨م وإلى قونية في العام التالي، وإلى خونية القريبة

(١) انظر سلاجقة الروم ص ٤١.

(٢) انظر الكامل في التاريخ ٣٩/١٠-٤١.

(٣) قيصرية: مدينة كبيرة عظيمة في بلاد الروم وهي كرسى ملك بنى سلجوق ملوك الروم أولاد قليج أرسلان. انظر معجم البلدان ٤/٤٢١.

(٤) نيكسار: إحدى مدن ولاية سيواسى تقع حالياً شمال شرق تركيا. انظر تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى هامش ص ٤٢.

(٥) عمورية: مدينة في بلاد الروم. المرجع السابق هامش ص ٤٢.

من ساحل بحر إيجه في عام ٤٦٣هـ/١٠٧١م^(١).

موقعة ملاذكرد سنة ٤٦٣هـ:

أثار ما حققه السلطان ألب أرسلان داخل الأراضي البيزنطية من فتوحات حفيظة الإمبراطور البيزنطي أرمانوس ديوجينيس الرابع (٤٦٠-٤٦٣هـ/١٠٦٨-١٠٧١م) الذي أصر على أن يقوم بحملة مضادة لمناهضة أعمال السلطان السلجوقي، ولوقف الفتح السلجوقي عند حده، فأقبل الإمبراطور البيزنطي في جيش كثيف إلى الشام وهاجم منبج^(٢)، ونهبها وقتل أهلها، ثم أغار على حلب^(٣)، وتمكن من التغلب على أميرها، الذي كان حينذاك يدين بالولاء للخليفة الفاطمي في مصر، وعلم ألب أرسلان بذلك، فأرسل جيشاً بقيادة ابنه ملكشاه لفتح هذه البلاد، وتحقيق هدف آخر من أهداف السلاجقة وهو القضاء على الخلافة الفاطمية في مصر والشام، فلما ترامت الأنباء إلى والي حلب بقرب وصول جيش السلاجقة وكان يدرك قوتهم، وشدة بأسهم، أيقن أنه لا طاقة له بهم، فأعلن انضمامه تحت لوائهم، وحذف اسم الفاطميين من الخطبة، وأحل محله اسم الخليفة العباسي القائم بأمر الله، واتقى بذلك خطر الغزو السلجوقي لبلادهم، وقد تمكن جيش ملكشاه من الاستيلاء على جزء كبير من بلاد الشام، كما استطاع أن يستولى على بيت المقدس في عام ٤٦٣هـ/١٠٧٠م، ثم حاصر دمشق غير أنه لم يتمكن من فتحها في ذلك الوقت^(٤)، وهكذا مهد الطريق أمام سقوط الشام من يد الفاطميين، واهتدى رومانوس الرابع إلى فكرة تضمن له الانتصار والقضاء على دولة ألب أرسلان خاصة بعد فشله في حلب ومنبج وبلاد الشام^(٥) فخرج في جيش

(١) انظر تاريخ سلاجقة الروم ص ٤١، ٤٢.

(٢) منبج: تقع بين حلب ونهر الفرات شمالي بلاد الشام. انظر السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري هامش ص ٨٥.

(٣) انظر السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري ص ٨٥.

(٤) انظر سلاجقة إيران والعراق ص ٥٤، ٥٥.

(٥) انظر السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري ص ٨٥.

كبير يقدر بمائتي ألف من الروم، والفرنج، والغرب، والروس، والبنجناك، والكرج، وغيرهم، من طوائف تلك البلاد، فجاءوا في تجمل كثير، وزى عظيم، وقصد بلاد الإسلام، فوصل إلى ملاذكرد من أعمال خلاط. فبلغ السلطان ألب أرسلان الخبر، وهو بمدينة خوي من أذربيجان، قد عاد من حلب، وسمع ما هو ملك الروم فيه من كثرة الجموع، فلم يتمكن من جمع العساكر لبعدها وقرب العدو، فسير الأتقال مع زوجته ونظام الملك إلى همدان، وسار هو فيمن عنده من العساكر، وهم خمسة عشر ألف فارس، وجد في السير، وقال لهم: إنني أقاتل محتسباً صابراً، فإن سلمت فنعمة من الله تعالى، وإن كانت الشهادة فإن ابني ملكشاه ولي عهدي^(١)، وأحس السلطان ألب أرسلان أنه أمام خطر داهم فأسرع بالهجوم على مقدمة جيش الروم، واستطاع أن يحرز نصراً، ولكنه لم يلبث أن أيقن أنه من الصعب على جيشه أن يقاتل جيشاً ضخماً كجيش الروم، وأدرك أن الصلح قد يكون خيراً له، وفضل أن يرجئ غزو الروم إلى فرصة أخرى بعد أن يستكمل استعداداته، فأرسل رسولاً إلى رومانوس يدعوه إلى الصلح، غير أن هذا الإمبراطور أشاح بوجهه في غطرسة وكبرياء، ولم يستمع إلى رسول السلاجقة فقد اغتر بجيشه الضخم قائلاً: إن الصلح لن يتم إلا بالري - عاصمة السلاجقة -، فانزعج السلطان لذلك، فقال له إمامه وفقهه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري، الحنفي: إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح، فالقهم يوم الجمعة، بعد الزوال في الساعة التي تكون الخطباء على المنابر، فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر، والدعاء مقرون بالإجابة، فلما كانت تلك الساعة صلى بهم، وبكى السلطان، فبكى الناس لبكائه، ودعا ودعوا معه^(٢)، وقال لهم: من أراد

(١) انظر الكامل في التاريخ ٦٥/١٠.

(٢) وهذا من أهم أسباب النصر الدعاء، فلقد دعا النبي ﷺ ربه في غزوة بدر وألح في الدعاء

فنزل النصر، فالإيمان بالله تعالى والتوكل عليه بأخذ الأسباب، والتي أرشدنا سبحانه وتعالى =

الانصراف فليصرف، فما هاهنا سلطان يأمر وينهى، وألقى القوس والنشاب، وأخذ السيف والدبوس، وعقد ذنب فرسه بيده، وفعل عسكره مثله، ولبس البياض، وتحنط، وقال: إن قتلت فهذا كفني^(١)، والتقى الجيشان في معركة فاصلة، انتهت بهزيمة ساحقة للجيش البيزنطي وأسر الإمبراطور البيزنطي بعد قتل وأسر العديد من جنوده^(٢).

عامل السلطان ألب أرسلان رومانوس معاملة طيبة وهو في الأسر^(٣)، قبل أن

= إليها في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَأَسْرَأَ إِلَيْكُمُ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [سورة الأنفال الآية ٦٠] مع طلب النصر منه، هي مجتمعه من أهم أسباب النصر، والسلطان ألب أرسلان أعطى درساً أنه مهما بلغت قوة العدو وجبروته فباستطاعتنا أن نلحق به الهزيمة، إذا تمسكنا بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وأخذنا بالأسباب على قدر استطاعتنا، وأيضاً درس حى في هذه المعركة أنه إذا صلح الراعى صلحت الرعية، فجنود ألب أرسلان أعطوا الخيار في الاستمرار أو الانصراف، فما انصرف منهم أحد لأنهم وجدوا أمامهم قائداً صالحاً، استعد لدخول المعركة والجهاد دفاعاً عن دينه، فتقدموا معه في ثبات وعزيمة، فنزل النصر من عند الله سبحانه وتعالى.

(١) انظر الكامل في التاريخ ٦٥/١٠، ٦٦.

(٢) انظر السلاجقة تاريخهم السياسى والعسكرى ص ٨٦.

(٣) تذكر جميع المصادر أن السلطان ألب أرسلان عامل أسيره رومانوس معاملة طيبة: فلما أسر الملك أمر بإحضاره، فلما أحضر ضربه السلطان ألب أرسلان ثلاث مقارع بيده وقال له: ألم أرسل إليك في الهدنة فأبيت؟ فقال: دعنى من التوبيخ، وافعل ما تريد، فقال السلطان: ما عزمت أن تفعل بي إن أسرتني؟ فقال: أفعل القبيح، قال له: فما تظن أننى أفعل بك؟ قال: إما أن تقتلني، وإما أن تشهرني في بلاد الإسلام، والأخرى بعيدة، وهي العفو، وقبول الأموال، واصطناعى نائباً عنك، قال: ما عزمت على غير هذا، ففداه بألف ألف دينار وخمس مائة ألف دينار، وأن يرسل إليه عساكر الروم أي وقت طلبها، وأن يطلق كل أسير في بلاد الروم، واستقر الأمر على ذلك، وأنزله في خيمة، وأرسل إليه عشرة آلاف دينار يتجهز بها، =

يطلق سراحه مقابل فدية باهظة، وعلى أن يؤدي جزية سنوية، ويوافق على عقد معاهدة تنظم العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين وفعلاً عقدت هذه الاتفاقية وجاء فيها:

- (١) إطلاق سراح الإمبراطور رومانوس لقاء فدية.
- (٢) تدفع الحكومة البيزنطية للحكومة السلجوقية جزية سنوية.
- (٣) إطلاق سراح كل الأسرى المسلمين في بلاد الروم.
- (٤) يمد الإمبراطور البيزنطي السلطان السلجوقي بالعساكر اللازمة عند الطلب^(١).

نتائج معركة ملاذكرد ٤٦٣هـ:

كان لمعركة ملاذكرد نتائج غيرت وجه المنطقة بأسرها في ذلك الوقت من أهمها:

(١) كانت موقعة ملاذكرد نقطة تحول في التاريخ الإسلامي بصفة عامة، وتاريخ غربي آسيا بصفة خاصة، لأنها يسرت القضاء على الروم في أكثر أجزاء آسيا الصغرى مما ساعد على القضاء على الدولة نفسها على أيدي الأتراك العثمانيين بعد ذلك^(٢).

(٢) مهدت الطريق أمام جيوش المسلمين للتوغل في بلاد آسيا الصغرى، واقتطاع هذه الأقاليم الآسيوية من ممتلكات الدولة البيزنطية لأول مرة، فقد وجه إليها ألب أرسلان ابن عمه سليمان ابن قتلмыш الذي استوطنها برجاله، وأقام هناك

= فأطلق له جماعة من البطارقة، وخلع عليه، فقال ملك الروم: أين جهة الخليفة؟ فُدل عليها، فقام وكشف رأسه وأوماً إلى الأرض بالخدمة، وهادنه السلطان خمسين سنة، وسيره إلى بلاده، وسير معه عسكرياً وأصلوه إلى مأمته، وشيعة السلطان فرسخاً.

انظر الكامل في التاريخ ٦٦/١٠، ٦٧، سير أعلام النبلاء ٤١٦/١٨.

(١) انظر تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص ٤٩.

(٢) انظر سلاجقة إيران والعراق ص ٥٧.

- دولة سلاجقة الروم^(١)، نسبة إلى بلاد الروم التي قامت فيها، وستكون هذه الدولة هي أطول الدويلات السلجوقية عمراً، إذ ستظل قائمة إلى أن يقضى عليها الأتراك العثمانيون في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي^(٢).
- (٣) القضاء على التحالف البيزنطي الفاطمي بعد اضطرار بيزنطة لمهادنة السلاجقة، وكان الفاطميون يمثلون حلفاً لهم أهميتهم في الشرق^(٣).
- (٤) غيرت هذه الموقعة الخريطة السياسية لآسيا الصغرى، وحولتها إلى الحضارة الإسلامية الخالصة، وأخذ سكانها يدخلون في الإسلام، ويتعلمون مبادئه، ويلتزمون بأحكامه في سلوكهم ومظاهر حياتهم، وتحولت لغتهم إلى اللغة الفارسية لغة الجنود الفاتحين، واللغة التركية لغة السلاطين الحاكمين، واللغة العربية لغة الإسلام دين رب العالمين^(٤).
- (٥) كانت هذه المعركة من أهم الأسباب التي أدت إلى قيام الحروب الصليبية سنة ١٠٩٦م، ذلك لأن أخبار هزيمة الروم وعدم تمكنهم من حشد جيش آخر لرد الخطر التركي، أثار مخاوف الدول الأوروبية، صحيح أن العلاقات بين روما والقسطنطينية كانت عدائية بسبب ما قام بين الكنيسة البيزنطية والرومانية من خلاف مذهبي انتهى بانفصال الكنيسة الشرقية في القسطنطينية عن الكنيسة

(١) سلاجقة الروم: سميت سلطنة السلاجقة في آسيا الصغرى بسلطنة سلاجقة الروم لأن البيزنطيين في العصور الوسطى الذين عرفهم العرب باسم الروم كانوا يسيطرون على هذه المنطقة، ولم تلبث أن سميت باسمهم، فظلت قروناً عديدة تعرف باسم بلاد الروم، ولما استقر السلاجقة فيها أطلق عليهم المؤرخون المسلمون اسم سلاجقة الروم، كما أطلقوا على الفروع الأخرى من السلاجقة اسم البلاد التي استقروا فيها. انظر تاريخ السلاجقة في بلاد الشام هامش ص ١٣٨.

(٢) انظر د/أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي ص ١٨٧، ط مؤسسة شباب الجامعة.

(٣) انظر الترك في آسيا الوسطى ص ٥٢.

(٤) انظر السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري ص ٨٧.

الغربية في روما سنة ١٠٥٤م أي قبل موقعة ملاذكرد بنحو ثمانية عشر عاماً، إلا أنه على الرغم من ذلك كان الغرب اللاتيني ينظر إلى الدولة البيزنطية على أنها الحصن الأمامي الذي يحمي المسيحية ضد الإسلام في الشرق، ومن ثم يجب على الغرب المسيحي أن يمد لها يد المساعدة، وقد اهتم البابوات في روما بأمر هذه المساعدة، نذكر منهم البابا جريجوري السابع (١٠٧٣-١٠٨٥م)، والبابا أوربان الثاني (١٠٨٨-١٠٩٩م) فأخذوا يحرضون ملوك أوروبا على مساعدة بيزنطة واتخذوا من هذه المسألة عاملاً مهماً لتحقيق أهدافهم الصليبية^(١).

دروس وعبر وفوائد:

تظهر مجموعة من الفوائد والدروس والعبر من معركة ملاذكرد منها:

- (١) أهمية الإخلاص لله والاستعداد للموت في سبيله واللجوء إليه في تحقيق انتصارات المسلمين في معاركهم الكبرى.
- (٢) دور العلماء في تثبيت القادة والجنود وتذكيرهم بالله واليوم الآخر، وأثر الوعظ والتذكير في شجاعة الجنود واندفاعهم، وخصوصاً عندما يكون العلماء في ميادين النزال وساحات المعارك.
- (٣) من أسباب النصر وجود القائد الخبير المحنك والجيش القوى المنظم.
- (٤) أهمية الصبر عند مواجهة الأعداء في المعارك، تلك الصفة الربانية التي أمر الله بها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢)، فالجيوش الإسلامية التي تتحلّى بهذه الصفة يحالفها النصر من الله تعالى^(٣).

(١) انظر في التاريخ العباسي والفاطمي ص ١٨٧، ١٨٨.

(٢) سورة آل عمران آية ٢٠٠.

(٣) انظر دولة السلاجقة للصلابي ص ٨٦.

فتوحات السلاجقة في آسيا الصغرى في عهد السلطان ملكشاه:

توفى السلطان ألب أرسلان سنة ١٠٧٢هـ/١٠٦٥م وخلفه ابنه ملكشاه الذي استمر على سياسة أبيه في التوسع في آسيا الصغرى، وتحقيقاً لهذا الهدف عين ملكشاه أحد أفراد البيت السلجوقي الأقوياء، وهو سليمان بن قتلش بن اسرائيل والياً على بلاد الروم، ومؤسساً لفرع جديد من فروع الدولة عرف في التاريخ باسم سلاجقة الروم، فتوجه سليمان في عام ١٠٧٧هـ/١٠٧٠م إلى بلاد الروم ووضع يده على ولايتي قونية وآق سرا^(١)، واتخذ قونية مقراً لفرع دولة السلاجقة في بلاد الروم، وبدأت بذلك مرحلة جديدة من مراحل الصراع بين الأتراك المسلمين والروم النصارى، انتهت بسقوط دولة الروم^(٢)، وسيطر المسلمون على المنطقة بعد ذلك، وقد تمكن سليمان في المدة من ١٠٧٧هـ/١٠٧٠م إلى ١٠٨٣هـ/١٠٧٦م من توطيد نفوذ السلاجقة في أكثر أجزاء بلاد الروم حتى وصل إلى كوتاهيه، فصارت بلاد الروم قلعة قوية من قلاع السلاجقة المسلمون في غربى آسيا، وأصبحت معولاً قوياً من معاول هدم دولة الروم التي ترزعت الحروب الصليبية^(٣)، كذلك استطاع سليمان بن قتلش من فتح أنطاكية سنة ٤٧٧هـ وكانت بيد الروم من سنة ٣٨٥هـ، ولما ملكها أرسل إلى السلطان ملكشاه يبشره بالفتح، وينسب هذا الفتح إليه لأنه من أهله، وممن يتولى طاعته، فأظهر ملكشاه البشارة به وهنأه الناس^(٤).

وقد زارها السلطان ملكشاه فصلى على الشاطئ وحمد الله على ما أنعم عليه مما تملكه من بحر المشرق إلى بحر المغرب، وهكذا بلغت الدولة السلجوقية في عهد

(١) فتحت هاتان الولايتان بعد انتصار السلاجقة في موقعة ملاذكرد، وكان فتحها في المدة بين

٤٦٣هـ/٤٦٨هـ. انظر إيران والعراق في العصر السلجوقي هامش ص ٧١.

(٢) كان سقوط دولة الروم بعد ذلك بأربعة قرون تقريباً أي في القرن التاسع الهجري والخامس عشر

الميلادى على أيدي العثمانيين. انظر إيران والعراق في العصر السلجوقي هامش ص ٧٢.

(٣) المرجع السابق ص ٧٢.

(٤) انظر الكامل في التاريخ ١٠/١٣٨، ١٣٩.

السلطان ملكشاه درجة كبيرة من النفوذ والازدهار والتوسع، فوصل نفوذ السلاجقة إلى حدود الصين والهند، وامتد من كاشغر شرقاً إلى أنطاكية على سواحل البحر الأبيض المتوسط غرباً، ومن بحيرة خوارزم شمالاً إلى حدود اليمن جنوباً، كما شمل إيران بأسرها وبلاد ما وراء النهر، وأسيا الصغرى والعراق والشام، وذكر اسمه في الخطبة ونقش على السكة في هذه الديار الشاسعة، ووصف الرواندي عهده بأنه (صار شباباً للدولة وربيعاً لأيام الملك وطرزاً لأبهي حله، وأصبحت الدولة السلجوقية مصدر رعب يهدد العالم المسيحي ويخيفه^(١)).

فتوحات السلاجقة بعد عهد السلطان ملكشاه:

بدأت الدولة السلجوقية تتفكك بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ، فكان عصر بركياروق مسرحاً للفتن والحروب الداخلية طمعاً في عرش السلطنة من ناحية، وفي منصب الوزارة من ناحية أخرى، مما أضعف السلاجقة وشجع أعداءهم على منازلتهم، وتربص الدوائر بهم^(٢)، ولم تحل سنة ٤٩٨هـ/١٠٩٦م حتى كانت دولة السلاجقة مقسمة إلى خمس ممالك متنافسة فيما بينها، وهي: سلطنة أصبهان (فارس) وعلى رأسها بركياروق بن ملكشاه الذي كانت له السيطرة على بغداد، ومملكة خراسان وما وراء النهر وعلى رأسها سنجر بن ملكشاه، ومملكة حلب وعلى رأسها رضوان بن تتش، ومملكة دمشق وعلى رأسها دقاق بن تتش، وأخيراً سلطنة سلاجقة الروم وعلى رأسها قلج بن أرسلان بن سليمان قتلمش، وهذا الضعف والانقسام في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي كان له أكبر الأثر بالنسبة للغرب الأوروبي، وشجعه على الإعداد لحملة صليبية كبيرة موجهة ضد المسلمين لاستقطاع الجزء الأكبر من ممتلكاتهم، وتكوين مملكة لاتينية تخدم مصالحهم، فكانت هذه الحملة المعروفة باسم الحملة

(١) انظر السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري ص ٩٨.

(٢) انظر سلاجقة إيران والعراق ص ١٠٨.

الصليبية الأولى^(١).

وهكذا انتهت حركة فتوحات الدولة السلجوقية، وبدأت فترة من الضعف والتشردم، حتى أدى ذلك إلى نهاية الدولة السلجوقية، ولا شك أن العصر الذهبي للدولة والذي انتهى بموت السلطان ملكشاه كان فيه روح الجهاد الكثير مما كان له أعظم الأثر في الدعوة الإسلامية وبفضله استطاعوا أن يكونوا دولة سلجوقية كبرى مترامية الأطراف لم يكن لها مثيل في العالم الإسلامي.

١- أثر جهاد الدولة السلجوقية في الدعوة الإسلامية :

لقد كان للجهاد الذي قامت به الدولة السلجوقية أثر بارز وفعال في خدمة الدعوة الإسلامية، من أثره:

١- إحياء روح الجهاد :

لم يتقدم الفتح الإسلامي في آسيا الصغرى طيلة العهد التي سبقت السلاجقة، واكتفى المسلمون من جانب والبيزنطيون من جانب آخر بغارات لم يقصد بها الإقامة بقدر ما يقصد بها التخويف أو الاستيلاء على الغنائم والأمتعة، ولكن السلاجقة دخلوا في آسيا الصغرى معارك كان يقصد بها القضاء على البيزنطيين في تلك البقاع وطرد سلطان الروم منها نهائياً، وقد نجح السلاجقة في ذلك فأوقعوا في سنة ٤٦٣هـ/١٠٧١م هزائم حاسمة بالجيوش البيزنطية، واستولوا في أثرها على معظم آسيا الصغرى التي لم يتح للعرب فتحها قط، وجعلوها مقراً لنزول الأتراك فيها^(٢)، مما يدل على قوة شوكتهم وحبهم للجهاد في سبيل الله لحماية الدعوة الإسلامية وتثبيت أركان الدولة.

(١) انظر د/أسيا سليمان نقلى: دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ضد الصليبيين

خلال الحركة الصليبية ص ٣٦، ط مكتبة العبيكان الرياض الأولى سنة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

(٢) انظر موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ١٠٠/٨.

٢ - نصرته الإسلام وتوفير العزة للمسلمين:

لقد أعادت معركة ملاذكرد للمسلمين عزهم المفقود، وأرجعت لهم الإنتصارات الكبيرة التي لم يسمع بها المسلمون منذ زمن بعيد، مع أن جيش الروم كان أضعاف جيش المسلمين^(١)، فهي لا تقل أهمية عن اليرموك ونتائجها، فإذا كانت هذه الأخيرة قررت مصير بلاد الشام، فإن الأولى قد قررت مصير آسيا الصغرى التي نجح الأتراك السلاجقة في فتحها والتوغل فيها، وكانت بذلك لبنة اجتمعت من بناء الدولة البيزنطية فمهدت لسقوطها، فعندما فقدت الإمبراطورية ولاياتها الغنية في آسيا الصغرى، أصبحت القسطنطينية رأساً حرم من الجسد الذي يسنده، وبذلك غدت آسيا الصغرى برمتها مكشوفة أمام السلاجقة^(٢).

كل هذا جعل الدولة الإسلامية مرهوبة الجانب من أعدائها، وأعاد للمسلمين العزة والكرامة، وكان انتصاراً للإسلام ودعائه.

٣ - انتعاش الحياة المادية:

كذلك أيضاً أضفى الجهاد على السلاجقة انتعاشاً مادياً عظيماً لظفرهم بالانتصار في مواقع متعددة، فيتحدث ابن الأثير عن الغنائم التي غنمها السلاجقة بعد غزو إبراهيم ينال بلاد الروم سنة ٤٤٠ هـ (واستولى المسلمون على تلك النواحي فنهبوها، وغنموا ما فيها، وسبوا أكثر من مائة ألف رأس، وأخذوا من الدواب والبعال والغنائم والأموال ما لا يقع عليه الإحصاء، وقيل إن الغنائم حملت على عشرة آلاف عجلة، وإن في جملة الغنيمة تسعة عشر ألف درع)^(٣)، وعندما تكلم عن الفدية التي فدا بها ملك الروم نفسه بعد موقعة ملاذكرد سنة ٤٦٣ هـ (ففداه بألف ألف دينار وخمس مائة

(١) انظر محمد العبدية: أعييد التاريخ نفسه: دراسة لأحوال العالم الإسلامي قبل صلاح الدين مقارنة مع تاريخنا المعاصر ص ٨٦، ٨٧، سلسلة تصدر عن مجلة البيان، الثالثة ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

(٢) انظر د/الصلاحي: دولة السلاجقة ص ٨٤، ٨٥.

(٣) انظر الكامل في التاريخ ٥٤٦/٩.

ألف دينار^(١).

وليس ثمة شك أن لهذه الغنائم أثراً عظيماً على انتعاش الحياة المادية، مما عاونهم على عدم الاشتغال بالسعى على معاشهم، وإنما كرسوا وقتهم للجهاد في سبيل الله.

وعلى ضوء ما ذكر، فلقد كان للجهاد في الدولة السلجوقية أعظم الأثر في الدعوة الإسلامية، وبفضله استطاعوا أن يكونوا دولة كبرى، مترامية الأطراف، لم يكن لها مثيل في العالم الإسلامي.



(١) المرجع السابق ٦٦/١٠.

المبحث الثاني

المساجد وأثرها في الدعوة إلى الله

وكيفية الاستفادة منها في العصر الحاضر

١ - تعريف المسجد لغة واصطلاحاً :

المسجد بكسر الجيم وفتحها معروف، قال الفراء: ما كان على فَعَلٍ يَفْعُلُ كدَخَلٍ يَدْخُلُ فالمَفْعُلُ منه بفتح العين اسماً كان أو مَصْدَراً تقول دخل مدخلاً وهذا مدخله، إلا أحرفاً من الأسماء أَلزَمَها كسر العين منها المسجد..... فجعلوا الكسر علامة للاسم، وربما فتحه بعض العرب في الاسم، وقد روى المَسْجِدَ والمَسْجِدَ والفتح فيه جائز، والمسجد: بفتح الجيم جبهة الرجل حيث يصيبه أثر السجود والآرابُ السبعة مساجد^(١).
والمسجد: مصلى الجماعة^(٢).

والمسجد في الاصطلاح: هو المكان الذي أعد للصلاة^(٣)، فأى مكان أعد للصلاة يسمى مسجداً.

٢ - أهمية المساجد في الإسلام:

تأتى أهمية المسجد في الإسلام من عظم الدور الذي تقوم به في بناء الفرد والمجتمع، فهي تبنى الإيمان، وتزرع اليقين، وتذكر بالله تعالى واليوم الآخر، وتصل المسلم بحقائق الإسلام، يتعلم في المسجد ما جهل، ويتذكر ما نسى، ويقوى ما ضعف

(١) انظر مختار الصحاح (مادة سجد) ص ١٦٥.

(٢) انظر مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز ص ٣٠٣، ط خاصة بالتربية والتعليم.

(٣) انظر الإمام الأكبر الشيخ / جاد الحق على جاد الحق: المسجد إنشاءً ورسالةً وتاريخاً ص ٧،

هدية مجلة الأزهر سنة ١٤١٦ هـ.

من أمر دينه^(١)، ومكانة المسجد في المجتمع الإسلامي تجعله مصدر التوجيه الروحي والمادى فهو ساحة للعبادة ومدرسة للعلم، وندوة للأدب، وقد ارتبطت بفريضة الصلاة وصفوفها أخلاق وتقاليد هي لباب الإسلام، لكن الناس لما أعياهم بناء النفوس على الأخلاق الجليلة استعاضوا عن ذلك ببناء المساجد السامقة، تضم مصليين أقزاماً، أما الأسلاف الكبار فقد انصرفوا عن زخرفة المساجد وتشيدها إلى تركية أنفسهم وتقويمها، فكانوا أمثلة صحيحة للإسلام^(٢).

ولما للمسجد من أهمية بالغة جعله الله عز وجل أول بيت وضع للناس قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا قَامَ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾^(٣).

فللمسجد أهمية عظمى في الإسلام، خاصة في العصور الأولى عصر النبوة، والصحابة والتابعين، فبعد هجرته ﷺ إلى أرض المدينة كان أول عمل قام به أن بنى مسجد قباء، قال تعالى: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾^(٤).

ويكفي المسجد أنه مكان تنزل فيه الرحمات والسكينة على المصلين، الذين يذكرون الله ويسبحونه، قال تعالى: ﴿ فِي يَوْمٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾^(٥).

(١) انظر د/يوسف القرضاوى: خطب القرضاوى ١/ ٢٣، ط مكتبة وهبة القاهرة الثالثة.

(٢) انظر الشيخ محمد الغزالي: فقه السيرة ص ١٩٢، ط دار البيان للتراث، الأولى القاهرة سنة

١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(٣) سورة آل عمران آية ٩٦، ٩٧.

(٤) سورة التوبة آية ١٠٨.

يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١﴾.

دور المسجد الدعوى:

إذا أردنا أن نتكلم عن دور المسجد الدعوى، فإننا لا بد وأن نعرف أولاً أن مهمة المسجد في الإسلام ليست متوقفة على أداء الصلوات الخمس فقط، فبناء المسجد كان أول عمل قام به رسول الله ﷺ، وفي هذا دلالات عظيمة من أهمها أن المساجد في حياة الأمة المحمدية هي أول شئ يجب أن تتعلق قلوب الأمة به عندما تفكر أن تبنى مجتمعاً جديداً، لأن المسجد هو المكان الذى يستمد منه المجتمع الطاقة الروحية التي تؤهله لأن يستمر في الحياة.

(ولم يكن المسجد موضعاً لأداء الصلوات فحسب، بل كان جامعة يتلقى فيها المسلمون تعاليم الإسلام وتوجيهاته، ومنتدى تلتقى وتتألف فيه العناصر القبلية المختلفة التي طالما نافرت بينها النزعات الجاهلية وحروبها، وقاعدة لإدارة جميع الشؤون وبث الانطلاقات، وبرلمان لعقد المجالس الاستشارية والتنفيذية، وكان مع هذا كله داراً يسكن فيها عدد كبير من فقراء المهاجرين اللاجئين الذين لم يكن لهم هناك دار ولا مال ولا أهل ولا بنون)^(١).

هكذا كانت مهمة المسجد الأول، ونريد لمساجدنا في العصر الحديث أن تؤدي دورها في بناء المجتمع المسلم كما كانت المساجد في عصر النبوة، والعصور المتعاقبة بعد ذلك تؤدي دورها، فإن إعداد فرد مسلم قادر على أداء مهمة الدعوة، مهمة شاقة لا يقدر عليها إلا رجال تعلموا في المساجد، لأن المسجد يعلمنا النظام، ويعلمنا الحرية، ويعلمنا الإخاء، ويعلمنا المساواة، كما أنه مركز لتعليم المجتمع كيف يعبد ربه، كيف يصوم، وكيف يصلى، وكيف يحج، وكيف يقرأ القرآن، وكيف يبني

(١) سورة النور آية ٣٦-٣٨.

(٢) انظر الشيخ صفى الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم ص ١٧٤، ط دار الوفاء للنشر والتوزيع القاهرة، السابعة عشر عام ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

أسرة قادرة على أداء مهمتها في الحياة نحو ربها ونيبها ودينها على أكمل وجه، (هذا هو المسجد، وهذه هي رسالة المسجد ينبغي أن نعرفها، ينبغي أن نرتبط بها، أن نعود أبناءنا أن يذهبوا إلى المساجد، ينبغي أن يكون لنا حظ من صلاة الجماعة في المساجد، فصلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بخمس وعشرين أو سبع وعشرين كما جاءت أحاديث النبي ﷺ)^(١).

٣ - جهود الدولة السلجوقية في تأسيس المساجد:

لما كان للمساجد هذا الدور البارز في نشر الدعوة الإسلامية وذيوعها، منذ عهد النبي ﷺ إلى أن تقوم الساعة، اهتمت الدولة السلجوقية بتشديد المساجد لا سيما سلاطين الدولة الأولى، فمما ورد أن السلطان طغرل بك كان حريصاً على بناء المساجد متعبداً متهجداً وكان يقول: أستحي من الله أن أبني داراً ولا أبني بجنبها مسجداً^(٢).

وكان السلطان ألب أرسلان يقول: آثارنا هذه تدل على علو هممتنا ووفور نعمتنا^(٣)، كما اهتم الوزراء ببناء المساجد، وكان للوزير السلجوقي نظام الملك الطوسي اهتمام كبير بالمنشآت المدنية، وخاصة دور العبادة فبنى كثيراً من المساجد في مختلف البلاد الخاضعة للسلاجقة، كما اهتم بعمارة الحرمين الشريفين بمكة المكرمة والمدينة المنورة، وأقام العديد من الرباطات^(٤) بالعراق وفارس للعباد والزهاد وأهل الصلاح والفقراء، ورتب لهم ما يحتاجون إليه من غذاء وكساء، ومن وزراء العهد السلجوقي الذين اهتموا بالمنشآت المدنية أيضاً الوزير فخر الدولة بن جهير^(٥) الذي

(١) انظر خطب القرضاوى ٣/٣٢.

(٢) انظر تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٦.

(٣) المرجع السابق ص ٤٥.

(٤) الرباطات: مواضع يقيم فيها الزهاد والفقراء للتعبد. انظر د/محمد مسفر الزهراني: نظام الوزارة في الدولة العباسية ٣٣٤هـ-٥٩٠هـ ص ١٦٦، ط مؤسسة الرسالة، الثالثة سنة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

(٥) الوزير أبو نصر بن جهير بن محمد بن جهير عميد الدولة أحد مشاهير الوزراء، وزر للقائم =

أصلح ما تخرب من جامع دار الخلافة، ووسع مساحته، وعمل له منبراً جديداً وأجرى إليه الماء من داره عن طريق قنوات تحت الأرض، وجعل له فوارات، وقد عاد عمله هذا بنفع كبير للناس، وامتد نشاط الوزير فخر الدولة بن جهير إلى مكة المكرمة، فعمل منبراً كبير الحجم للمسجد الحرام، لتقام عليه الخطبة لخلفاء بني العباس، ويروى أن هذا المنبر سرعان ما كسر ثم أحرق بعد أن أعيدت الخطبة بمكة للفاطميين^(١).

ولقد اهتم السلاجقة بزخرفة المساجد والجوامع كما اهتموا ببنائها (فلقد ارتقت الفنون في عصر السلاجقة ارتقاءً ملحوظاً، فازدهرت فنون النقش والتصوير والصناعة والمعمار، لأن السلاجقة كانوا يعشقون الفنون الجميلة ويرعونها)^(٢)، وعرفت العمارة السلجوقية النموذجين التقليديين من العمارة الدينية المخصصة للصلاة، وهما المسجد ذو المساحة الصغيرة كزاوية لإقامة الصلوات الخمس فحسب، والجوامع الكبيرة لإقامة جميع الصلوات بما فيها وضع المنبر لإقامة صلاة الجمعة، وبالتالي يمكن تقسيم التخطيط المعماري إلى طرازين كبيرين، يندرج تحتها تقسيمات معمارية أخرى، كانت تخضع لظروف كثيرة منها المساحة المتاحة والمناخ وظروف المكان والإنشاء، والطرازين هما:

(١) المساجد الجامعة الكبيرة: وقد تنوعت تخطيطاتها، فمنها التخطيط التقليدي المكون من أربعة أو ثلاثة أروقة تحيط بصحن أوسط سماوي مكشوف، أوله أروقة بدون صحن، أو يغطي الصحن بقبة ضخمة يتوسط قطبها فتحة للإضاءة والتهوية، وله مئذنة أو مئذنتين، وقد شيدت خشبية مستوية تحملها أيضاً أعمدة خشبية.

= ثم لولده المقتدى، ثم عزله السلطان ملكشاه، وولى ولده فخر الدولة ديار بكر وغيرها، مات بالموصل وهي البلدة التي ولد بها، توفي سنة ٤٨٣هـ.

انظر البداية والنهاية ١٢/١٣٦، ١٣٧.

(١) انظر نظام الوزارة في الدولة العباسية ص ١٩٧.

(٢) انظر سلاجقة إيران والعراق ص ١٩٢.

(٢) تخطيط المسجد الصغير أو مساجد الأحياء، ونظراً لأن مساحته صغيرة فقد يكون مربع التخطيط أو مستطيل، وسقف غالباً بقبة أو أحياناً بسقف مستوى، وله مئذنة، وقد يبني بالخشب، وقد تكون المساجد والجوامع مبانى مستقلة بذاتها أو ملحقة بمجموعات معمارية أخرى^(١).

٤ - دور المساجد في الدولة السلجوقية وأثارها على الدعوة وكيفية الاستفادة منها :

مما لا ريب فيه أن للمساجد دوراً عظيماً في نشر الدعوة الإسلامية وذيوعها، وذلك لأن المساجد عندهم لم تقتصر على العبادة فحسب، بل كان لها دور بارز في تعليم الناس أمور دينهم عن طريق إلقاء الخطب والمحاضرات، والندوات العلمية والدروس الدينية، فالمساجد عند السلاجقة كانت تعد للتعليم كما تعد لإقامة الشعائر، ويؤهل للتعليم بها كل من سبق تعليمه في الكتاب.

(فلم تكن هناك مراحل معينة للتعليم، بل كان التعليم يشتمل على مرحلة واحدة) تبتدئ بالكتاب، أو المؤدبين، ثم الانتقال إلى الحلقات في المساجد، والتي يقوم بالتدريس فيها شيخ متخصص في فرع من فروع العلم ويعقد مجلسه العلمى في وقت معين من اليوم، ويحيط به الطلبة، ولا يقبل الشيخ في حلقة إلا الطالب الذى يطمئن إليه، ويلمس فيه المقدرة العلمية والجدية على الانتظام في حلقة، ومن هناك كانت المساجد أشبه بالجامعات، تدرس فيها دراسات مختلفة، فهناك حلقة للفقه، وحلقة للتفسير، وحلقة للحديث، والطالب يرتبط بالحلقة التي تناسبه، والدولة لا تدخل في هذه الدراسة ما دامت لا تتعارض مع الدين وسياسة الدولة، وهذه الحلقات يدور معظمها حول علوم الدين واللغة، وإذا أخذ الطالب من شيخه العلم الذى يدرسه وأراد أن يستزيد

(١) انظر د/منى محمد بدر محمد بهجت: أثر الحضارة السلجوقية في دول شرق العالم الإسلامي على الحضارتين الأيوبية والمملوكية بمصر ١٨/٢، ط مكتبة زهراء الشرق القاهرة الأولى سنة ٢٠٠٢م.

من العلم، رحل إلى بلدة أخرى بها شيخ أكثر علماً^(١).

التدريس بالمساجد وأثره الدعوى:

لقد كان للتدريس في المساجد في ظل الدولة السلجوقية أثر بارز في التعليم (رغم المدارس التي انتشرت في مدن العراق في هذا العصر فلقد ظلت المساجد الجامعة والمساجد الأخرى^(٢) الأماكن الأساسية للدراسة والإملاء والوعظ والمناظرات العلمية، فقد كانت ملتقى العلماء وطلاب المعرفة)^(٣).

ونتيجة للدور الكبير الذي قامت به الدولة السلجوقية في بناء المساجد وإعدادها كمراكز للتعليم، فقد خرجت لنا المساجد علماء أجلاء يشبهون البحور المتفجرة من العلم، لأنهم تعلموا على أيدي كبار العلماء في الدولة السلجوقية ممن اختصوا بالتدريس في المساجد وإليك بعضهم:

من العلماء الذين درسوا بالمساجد في عهد السلاجقة:

(١) أبو بكر الخطيب أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي البغدادي (ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م)^(٤).

(١) انظر الدول الإسلامية المستقلة في المشرق الإسلامي ص ٢٩٦.

(٢) لقد كان هناك عدد كبير من المساجد في بغداد أحصى منها أحد الباحثين ما لا يقل عن ٥٧ مسجداً كانت جميعها مراكز للتعليم في هذا العصر. انظر د/مريزن سعيد مريزن: الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي هامش ص ٢٢٣، ط الأولى سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(٣) انظر الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ص ٢٢٣.

(٤) الخطيب البغدادي: أحد مشاهير الحفاظ، صاحب تاريخ بغداد وغيره من المصنفات العديدة المفيدة نحو ستين مصنفاً ويقال بل مائة مصنف، ولد سنة ٣٩١هـ، وقيل سنة ٣٩٢هـ، نشأ ببغداد وتفقّه على أبي طالب الطبري وغيره، وسمع الحديث الكثير، ورحل إلى البصرة وغيرها، وسُمي الخطيب لأنه كان يخطب بدرب ریحان، ورجع إلى بغداد، ولما وقعت فتنة البساسيري ببغداد خرج إلى الشام فأقام بدمشق بالمتدنة الشرقية من جامعها، وكان يقرأ على الناس الحديث، ثم عاد إلى بغداد فحدث بها، توفي سنة ٤٦٣هـ، وله ٧٢ سنة، وحمل نعشه =

- (٢) على عبيد الله المعروف بابن الزغوانى (ت ٥٢٧/هـ ١١٣٢م)^(١).
- (٣) محمد بن عبد الباقي: المعروف بقاضى المارستان (ت ٥٣٥/هـ ١١٤٠م)^(٢).
- (٤) أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقى البغدادي (ت ٥٤٠/هـ ١١٤٥م)^(٣).

= الشيخ أبو إسحاق الشيرازي.

انظر ترجمته فى: البداية والنهاية ١٠١/١٢-١٠٣، الكامل فى التاريخ ٦٨/١٠، العبر فى خبر من غبر ٣١٤/٢، ٣١٥، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ٨٩/٥، ٩٠.

(١) الإمام المشهور قرأ القراءات وسمع الحديث واشتغل بالفقه والنحو واللغة وله المصنفات الكثيرة فى الأصول والفروع وله يد فى الوعظ واجتمع الناس فى جنازته وكانت حافلة جداً، توفى سنة ٥٢٧هـ.

انظر ترجمته فى: البداية والنهاية ٢٠٥/١٢، العبر فى خبر من غبر ٤٣١/٢.

(٢) محمد بن عبد الباقي ابن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الربيع بن ثابت بن وهب بن مسجعة بن الحارث بن عبد الله بن كعب بن مالك الانصاري، سمع الحديث وتفرّد عن جماعة من المشايخ، وأملى الحديث فى جامع القصر، وكان مشاركاً فى علوم كثيرة، وقد أسر فى صغره فى أيدي الروم فأرادوه على أن يتكلم بكلمة الكفر فلم يفعل، وتعلم منهم خط الروم، وكان يقول من خدم المحابر خدمته المنابر، قال ابن الجوزي: بلغ من العمر ثلاثاً وتسعين سنة، لم تتغير حواسه ولا عقله، توفى ثانياً رجب سنة ٥٣٥هـ، وحضر جنازته الأعيان وغيرهم.

انظر ترجمته فى: البداية والنهاية ٣١٧/١٢، ٣١٨.

(٣) ولد فى ذي الحجة سنة ٤٦٥هـ، ونشأ بباب المراتب، وسمع الحديث الكثير من أبى القاسم ابن البسرى، حدث وقرأ على أبى زكريا، سبع عشرة سنة، فانتهى إليه علم اللغة فأقرأها، ودرس العربية فى النظامية بعد أبى زكريا مدة، فلما ولي المقتفي اختص بإمامة الخليفة، وكان المقتفي يقرأ عليه شيئاً من الكتب، وكان غزير الفضل متواضعاً فى ملبسه ورياسته، طويل الصمت لا يقول الشيء إلا بعد التحقيق والفكر الطويل، وكثيراً ما كان يقول: لا أدري، يقول ابن الجوزي: سمعت منه كثيراً من الحديث وغريب الحديث، وقرأت عليه كتابه المعرب وغيره من تصانيفه وقطعة من اللغة، وتوفى يوم الأحد منتصف محرم سنة ٥٤٠هـ.

انظر ترجمته فى: المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ٤٦/١٨، ٤٧، البداية والنهاية ٢٢٠/١٢.

(٥) هبة الله بن على بن محمد بن حمزة، أبو السعادات النحوى الشجرى (ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م)^(١).

(٦) إسماعيل بن موهوب ابن محمد بن أحمد الخضر أبو محمد الجوالقي (ت ٥٧٥هـ/١١٧٩م)^(٢).

وغير هؤلاء الكثير من العلماء الذين تولوا التدريس والخطابة بالمساجد، فقاموا بها أفضل قيام، فنهض العلم ونهضت الدعوة الإسلامية، وانتشرت وذاعت في ربوع البلاد.

كيفية الاستفادة من وسيلة المساجد:

للمسجد دور عظيم في الدعوة الإسلامية، وتوعية المسلمين بأمر دينهم، وهذا كله نابع من منزلة المسجد في الإسلام، (للمسجد منزلة أي منزلة في الإسلام، ولهذا كان في عهد النبي ﷺ مركز الدعوة، ودار الدولة، الدعوة تنطلق من المسجد، والدولة أيضاً كانت تتمثل في المسجد، كان النبي ﷺ يستقبل المندوبين والوفود والسفراء القادمين من البلاد الأخرى في المسجد، ويعلمهم في المسجد، وتنطلق

(١) هبة الله بن على بن محمد حمزة أبو السعادات بن الشجرى النحوى، ولد سنة ٤٥٠هـ، وسمع الحديث من أبي الحسن ابن الطيورى وابن نبهان وغيرهما، وقرأ على الشريف أبى المعمر يحيى بن محمد بن طباطبا النحوى، وامتد عمره، وانتقلت إليه رياسة النحاة، وكان يجلس يوم الجمعة بجامع المنصور مكان ثعلب ناحية الرباط يقرأ عليه، وناب في النقابة بالكرخ، ومتع بجوارجه وعقله وتوفى يوم الخميس العشرين من رمضان سنة ٥٤٢هـ، وأم الناس بالصلاة عليه أبو الحسن الغزنوى الواعظ، ثم دفن بداره بالكرخ.

انظر ترجمته فى: المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ١٨/٦١، ٦٢، البداية والنهاية ١٢/٢٢٣.

(٢) حجة الإسلام، أحد أئمة اللغة فى زمانه والمشار إليه من بين أقرانه بحسن الدين وقوة اليقين، وعلم اللغة والنحو، وصدق اللهجة وخلوص النية، وحسن السيرة فى حياته، سمع الحديث وسمع الأثر واتبع سبيله، توفى سنة ٥٧٥هـ.

انظر ترجمته فى: البداية والنهاية ١٢/٣٠٥.

الجيش من المسجد، وكان المسجد محور الحياة الإسلامية، ومحور النشاط الإسلامي كله^(١).

وهذه المنزلة هي التي جعلت للمسجد في حياة المسلمين الأوائل وعلى مر العصور قيمة عالية في النفوس، فهم ينظرون إليه نظرة إجلال لأنه المكان الذي يجمعهم بربهم في الصلوات الخمس، وهو المكان الذي يتعلمون فيه ما خفى عليهم من أمور دينهم وذلك على أيدي علماء جعلوا من المساجد جامعات تخرج أجيالاً من العلماء الأبرار الأذكياء.

وإنه من خلال نظرة سريعة للتاريخ فإننا نلمح رسالة المسجد في حياة الأمة، فهذا المسجد الحرام، كم خرج من علماء وفقهاء، ورجال فكر وأدب وبلاغة، وهذا المسجد النبوي الشريف، كم شهدت أروقه من مؤتمرات المسلمين وأنديتهم وقياداتهم، وهذا جامع المنصور، ومسجد قرطبة، والجامع الأموي، وجامع الزيتونة، والقرويين، وجامع الأزهر، كم حققت من أمجاد في حياة أمتنا حتى غدا من رجاله من استطاعوا أن يزرعوا في الصدور والقلوب قوة خارقة بنت مجدنا الإسلامي^(٢).

(١) انظر خطب القرضاوى ص ٢٥.

(٢) انظر عبد المعطى بهجت: رسالة المسجد ص ٤٣، ٤٤، ط دار الانتصار بالقاهرة، بدون تاريخ.

المبحث الثالث

القضاء وأثره الدعوى في الدولة السلجوقية

وكيفية الاستفادة منه في العصر الحاضر

١- تعريف القضاء في اللغة:

الحكم.....، ويقال قضي قضاءً فهو قاض، إذا حكم وفصل، وقضاء الشيء إحكامه وإمضاؤه والفرغ منه^(١).

تعريف القضاء في الإصطلاح:

هو الفصل بين الناس في الخصومات حسماً للتداعي، وقطعاً للتنازع، إلا أنه بالأحكام الشرعية المتلقاه من الكتاب والسنة^(٢).

أو هو قطع الخصومة، أو قول ملزم صدر عن ولاية عامة^(٣).

أهمية القضاء في المجتمع المسلم:

لل قضاء أهمية عظيمة في حياة المجتمعات الإسلامية والإنسانية، فالإنسان بطبيعته كائن اجتماعي لا يستطيع العيش منفرداً، فلا تستقيم حياته إلا إذا عاش في جماعة، وإذا كان الناس لا يستطيعون الحياة الكاملة إلا مجتمعين، فلا بد أن تحدث منازعات وخلافات حول الكثير من الأمور، لتعارض المصالح والرغبات، ولحب السيطرة، والاستيلاء على ما هو من حق الغير، وضمن النفوس بحقوق الآخرين، فإذا لم يوجد رئيس لهذه الجماعة يكون حاسماً للتنازع، وظلم الناس بعضهم لبعض،

(١) انظر لسان العرب مادة (قضى) ٢٠٩/١١.

(٢) انظر مقدمة ابن خلدون ص ١٨٤.

(٣) انظر محمود بن محمد بن عرنوس: القضاء في الإسلام ص ٩، ط المطبعة المصرية الأهلية الحديثة بالقاهرة.

ومؤدياً للحقوق إلى أصحابها، أدى ذلك إلى حدوث ضرر جسيم، قل أن يسلم منه أحد من أفراد الجماعة، ولذلك كان من الواجبات التي أوجبها الشرع بإجماع العلماء إقامة رئيس للدولة لكي يحقق العدل، ويمنع ظلم البعض للبعض، ويؤكد شرع الله، لأن طبائع البشر قد جبلت على التظالم، وقل من الناس من ينصف من نفسه، فلا بد من وجود سلطة قادرة قاهرة، لها السيادة على الجميع، تمنع المظالم وتقطع المنازعات التي هي مادة الفساد، وهذه السلطة تتمثل في رئيس الدولة^(١)، أو من ينوب عنه، ويقوم مقامه، فكان لا بد من وجود القاضي لرفع الظلم وإيصال الحقوق إلى أصحابها^(٢).

وهكذا يتبين لنا أهمية القضاء في حياة الناس ففيه رفع لراية العدل، وإنصاف للمظلوم، وتحقيق للأمن الاجتماعي بين المجتمع المسلم، وهذا ولا شك له تأثير دعوى وهذا ما سأبينه فيما يلي.

الدور الدعوى للقضاء في الإسلام:

إذا أردنا أن نتكلم عن دور القضاء الدعوى فإننا ننطلق من أن القضاء فيه إظهار للعدل، ونصرة للمظلوم، وإصلاح بين الناس، وكسر شوكة الظالم، وهذه الأمور من أهم مقاصد الشريعة الإسلامية التي دعت إليها ورغبت فيها، ولا شك أن تحقيق العدل بين الناس هو دعوة إلى الإسلام، لأن تحقيق العدل بين متخاصمين أحدهما مسلم والآخر غير مسلم، وإنصاف غير المسلم إذا كان المسلم ظالماً له، فيه

(١) لرئيس الدولة أن يحكم بنفسه كما كان يفعل النبي ﷺ، فهو أول قاض في الإسلام، فكان يحكم بين الناس بما أنزل الله وكان يستشير بعض الصحابة، ويجتهد في مسائل أخرى.... وبعد أن انتشرت الدعوة الإسلامية في أنحاء شبه الجزيرة العربية، أذن النبي ﷺ لبعض الصحابة بالقضاء بين الناس، وأقر للبعض الآخر بالفتوى، ومنهم معاذ بن جبل، وعلى بن أبي طالب قضاء اليمن، وعبد الله بن نوفل قاضي المدينة المنورة.

انظر السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري ص ٣٢٤.

(٢) انظر النظام القضائي في الفقه الإسلامي ص ١٦.

ترغيب لغير المسلم للدخول تحت مظلة هذا الدين الذي ينصفه على صاحب الديانة نفسه، ولذلك أمر الله تعالى المؤمنين أن يقيموا العدل ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدُوا وَإِن تَلَوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾^(١).

فكان الجميع أمام القضاء سواء لا فرق بين غنى وفقير أو قوى وضعيف، أو وزير وخفير، فالكل ينعم بقضاء عادل، وحسبهم إقامة العدالة المطلقة (فإقامة العدل في الجماعة الإسلامية من مقاصد الشريعة الإسلامية)^(٢).

والإسلام في مرحلة الأولى إنما كان من أسباب انتشاره هو العدل في القضاء بين الخصوم، وكم سرد لنا التاريخ الإسلامي قصص أناس دخلوا في الإسلام بسبب حكم عادل من قاض مسلم، قضى بالحق والعدل، فإذا أردنا لهذا الدين أن ينتشر وأن يعم خيره الدنيا، فلا بد أن نحقق العدل بين أفرادها.

٢ - حكم تعيين القضاة في الإسلام:

تعيين القاضي للفصل بين الناس، فرض قضت به الشريعة الإسلامية، فالإمام عليه أن يتولى أمر السلطة القضائية في التشريع الإسلامي، لكن لما تعذر عليه القيام به بنفسه أناب عنه غيره^(٣).

شروط القاضي في الإسلام:

لم يترك فقهاء المسلمين منصب القضاء هملًا دون أن يحددوا شروط من يتولى

(١) سورة النساء آية ١٣٥.

(٢) انظر الإمام محمد أبو زهرة: أصول الفقه ص ٣٢٨، ط دار الفكر العربي القاهرة ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، بتصرف.

(٣) انظر عطية مصطفى مشرفة: القضاء في الإسلام بوجه عام وفي العهد الإسلامي في مصر بوجه خاص إلى سنة ٣٥٨هـ ص ١٦٥، مطبعة الاعتماد الأولى.

هذا المنصب الرفيع وهي في مجملها:

الذكورة مع البلوغ، والإسلام، والعدالة، والحرية، والعلم بالأحكام الشرعية، وسلامة الحواس^(١).

والسؤال الذى يطرح نفسه هل الدولة السلجوقية التزمت بشروط القضاء في الإسلام؟

٣ - القضاء في الدولة السلجوقية :

اعتنى السلاجقة اعتناءً فائقاً بالقضاء وجعلوه وسيلة هامة من وسائل الدعوة الإسلامية.

ومما يدل على اعتناء السلاجقة بوسيلة القضاء أنه لا يعين قاضياً إلا إذا توافرت فيه الصفات التي تؤهله لذلك: (فكان القاضي يختار من أغزر الناس علماً، وأزهدهم نفساً، وأعفهم يداً، وأقلهم طمعاً، ويولون من تتوافر فيه هذه الصفات، ويعزلون من يظهر منه الظلم وعدم الإنصاف والفسق وخيانة واجبات الوظيفة)^(٢).

يقول نظام الملك: (ينبغي التعرف على أحوال قضاة المملكة واحداً واحداً، والإبقاء على العلماء والزهاد والأمناء منهم، وعزل كل من لا يتصف بهذه الصفات، وتعيين آخر صالح مكانه، ويجب أن يكون للقاضي راتب شهري يكفيه أمور معاشه حتى لا تكون به حاجة إلى الخيانة، إن هذا العمل هام ودقيق، لأن دماء المسلمين وأموالهم بيد القضاء)^(٣).

ولقد راعى سلاطين السلاجقة العظام تنفيذ أحكام القضاة حتى ولو على أنفسهم، وكان من رسومهم أنه إذا امتنع شخص ما، أو تأخر عن الحضور عن مجلس القضاء،

(١) انظر الأحكام السلطانية ص ٨٣-٨٤.

(٢) انظر الدول الإسلامية المستقلة في المشرق الإسلامي ص ٢٤٣.

(٣) انظر الخواجة نظام الملك الطوسى: سياست نامة أو سير الملوك ص ٦٨، ترجمة د/يوسف حسين بكار، ط دار القدس بيروت لبنان بدون تاريخ.

أحضره عنوة عن طريق وكلاء الدار السلطانية، حتى ولو كان من المزهوين بعظمته ووجاهته وحشمته، لأن ذلك يديم ممالكهم وسلطانهم سنوات طويلة^(١).

كما كان سلاطين السلاجقة العظام حريصين كل الحرص على أن تطبق أحكام الشريعة الإسلامية في القضاء وغيره، (فكان السلطان طغرلبيك حريصاً على إعلاء معالم الشرع والدين، غيوراً على مصالح الإسلام والمسلمين^(٢))، وكان السلطان ألب أرسلان مهيباً يمتاز بحسن السياسة والكياسة واليقظة والقدرة على التغلب على الأعداء والقضاء على الخصوم^(٣).

وكان السلطان ملكشاه يقف للمرأة والضعيف ولا يبرح إلا بعد إنصافهم^(٤)، ولقد جلس سلاطين السلاجقة العظام تأسيساً بخلفاء بنى العباس لقضاء المظالم^(٥)، مثلما فعل السلطان ألب أرسلان وملكشاه، كما أنابوا أيضاً عنهم من يقوم بهذه المهمة مثل الوزير نظام الملك الطوسي الذي كان يعقد يوماً للمظالم^(٦).

وغير ذلك من أمور كثيرة تبرهن على مدى الإعتناء بالقضاء وتحكيم الشرع الإسلامي في عهد الدولة السلجوقية، وكان فيما يستجد من قضايا بين الناس ثمة وظائف ملحقة بالقضاء لارتباطها به، منها:

وظيفة المحتسب:

الحسبة: هي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهي عن المنكر إذا أظهر فعله،

(١) انظر السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري ص ٣٣٧، ٣٣٨.

(٢) انظر راحة الصدور وآية السرور ص ١٦٠.

(٣) المرجع السابق ص ١٨٦.

(٤) انظر المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٣٠٩/١٦.

(٥) هو نوع من القضاء، يقوم به الخليفة أو السلطان أو من أنيب عنهما من كبار شخصيات الحكم

كالوزير أو أحد كبار الموظفين، ويعرفه الفقهاء بأنه (جلب المتظلمين إلى التناصف، وزجر

المتنازعين بين التجاحد). انظر السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري ص ٣٤٩.

(٦) المرجع السابق ص ٣٥٠.

قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١)، (٢).

مهمة المحتسب:

والمحتسب من الوظائف المهمة في الدولة السلجوقية، يقول نظام الملك: (وكذلك ينبغي تعيين محتسب في كل مدينة يضبط موازينها، ويحدد أسعارها، ويشرف على البيع والشراء، حتى تستقيم أمور الناس، ويحتاط لكل ما يجلب من الأطراف، ويبيع في الأسواق، ويمنع الغش والخيانة، ويقوم على القسط ليقسط الناس في الميزان، ويجب على السلطان ووكلائه شد أزره، حتى يستطيع أداء عمله، وبذلك يزول الفسق والغش والفجور، والمكلف بهذا العمل خادم تركي، شيخ وقور، لا يحابي أحداً، فيخشاه الخاص والعام، وتزداد قواعد الإسلام استحكاماً ورسوخاً) (٣).

ومن خلال ما سبق يتضح لنا أن القضاء في عهد السلاجقة كان وسيلة هامة من وسائل الدعوة إذ أنهم كانوا يطبقون أحكام الشريعة الإسلامية ويتحرون العدالة ورد المظالم إلى أهلها.

٤ - منصب قاضي القضاة في عهد السلاجقة:

كان رسول الله ﷺ يختار القاضي، وكذلك كان الخلفاء الراشدون بعده يعينون القضاة، وفي عهد الدولة الأموية فوض معظم الخلفاء أمراء الولايات في أمر اختيار القضاة، ثم لما قامت الدولة العباسية استرد أبو جعفر المنصور (٤) حق تعيين الخلفاء

(١) سورة آل عمران آية ١٠٤.

(٢) انظر أبي الحسن على بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية ص ٢٩٩، ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان الأولى سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(٣) انظر سياست نامه ص ٧١.

(٤) أبو جعفر المنصور (٩٥-١٥٨هـ=٧١٤-٧٧٥م): عبد الله بن محمد بن علي بن العباس، أبو جعفر المنصور، أول من عنى بالعلوم من ملوك العرب، كان عارفاً بالفقه والأدب، مقدماً =

للقضاة، فولى عبد الله بن لهيعة الحضرمي على مصر سنة ١٥٥هـ، فصار القاضي يعين من قبل الخليفة لا من قبل الوالي.

وفي عهد هارون الرشيد ^(١) استحدثت وظيفة قضائية هي وظيفة قاضي القضاة كان من اختصاص شاغلها تقليد من يصلح لمنصب القضاء في أنحاء البلاد التي تخضع للخلافة، وله أيضاً حق عزلة إذا أصبح مستحقاً للعزل، ومن حقه أن يتفقد أحوال القضاة، فينظر في أفضيتهم، ويراجع أحكامهم، ويتتبع أخبارهم وسيرتهم بين الناس، بل كان له الحق في نقض أحكامهم ^(٢).

وقد اتخذ سلاطين السلاجقة قاضي قضاة لهم يقيم معهم في حاضرة السلطنة السلجوقية، وذلك خلاف قاضي القضاة العباسي، وكان لا بد أن يكون سنياً وفق

= في الفلسفة والفلك، محباً للعلماء، ولى الخلافة سنة ١٣٦هـ، وهو باني مدينة «بغداد»، زاد في المسجد الحرام، وهو والد الخلفاء العباسيين، توفي بـ«بئر ميمون» من أرض «مكة» محرماً بالحج، ومدة خلافته ٢٢ عاماً، يؤخذ عليه قتله لـ«أبي مسلم الخراساني» سنة ١٣٧هـ.

انظر ترجمته في: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٨ / ٢١٩-٢٢٢، سير أعلام النبلاء ٧ / ٨٣-٨٩، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٢ / ٢٦٢، الأعلام ٤ / ١١٧.

(١) هارون الرشيد (١٤٩-١٩٣هـ = ٧٦٦-٨٠٩م): هارون بن محمد بن المنصور العباسي، أبو جعفر خامس خلفاء الدولة العباسية في العراق، وأشهرهم، ولد بالرى، لما كان أبوه أميراً عليها وعلى خراسان، ونشأ في دار الخلافة ببغداد، وبويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الهادي سنة ١٧٠هـ فقام بأعبائها، وازدهرت الدولة في أيامه، وكان عالماً بالأدب وأخبار العرب والحديث، والفقه، فصيحاً، شجاعاً كثير الغزوات، حازماً كريماً متواضعاً، يحج سنة ويغزو سنة، لم ير خليفة أجود منه، ولم يجتمع على باب خليفة ما اجتمع على باب من العلماء والشعراء والكتاب والندماء، وفي أيامه كملت الخلافة بكرمه وعدله وتواضعه وزيارته العلماء في ديارهم، وهو أول خليفة لعب بالكرة والصولجان، له وقائع كثيرة مع ملوك الروم، ولم تزل جزيتهم تحمل إليه من القسطنطينية طول حياته، ولايته ٢٣ سنة وشهران وأيام.

انظر ترجمته في: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٩ / ٢٣٠-٢٣١، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٢ / ٤٣٦، ٤٣٧، العبر في خبر من خبر ١ / ٢٤٣، الأعلام ٨ / ٦٢.

(٢) انظر النظام القضائي في الفقه الإسلامي ص ٤٧، ٤٨.

مذهبهم^(١).

ولقد تميز قاضى القضاة في عهد السلاجقة العظام وغيرهم بظاهرة جديدة، حيث سيطرت عائلة واحدة على منصب قاضى القضاة، وتوارثتها أباً عن جد بدءاً من ١٠٥٥هـ/١٠٥٥م حتى سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م، وهي العائلة الدامغانية، وإن تخلل هذه المرحلة فترات أقصى فيها الدامغانيون عن منصبهم إلا أنهم استطاعوا في كل مرة استعادته، الأمر الذى عجزت عن انجازه أية عائلة قضائية أخرى^(٢).

أشهر من تقلد منصب قاضى القضاة زمن السلاطين العظام:

(١) أبو عبد الله الدامغانى^(٣): رأس العائلة الدامغانية، وأول من تقلد منصب قاضى القضاة في العصر السلجوقي، فقد اختاره أبو منصور الشريف رئيس الحنابلة، وابن عم الخليفة القائم بأمر الله العباسي لخلافة الحسين بن ماکولا^(٤) الذى

(١) انظر السلاجقة تاريخهم السياسى والعسكرى ص ٣٢٦.

(٢) المرجع السابق ص ٣٢٨.

(٣) هو محمد بن على بن الحسين بن عبد الملك المعروف بأبى عبد الله الدامغانى: ولد بالدامغان في شهر ربيع الآخر سنة ٣٩٨هـ، وتفقّه ببلده، ثم قدم بغداد وتفقّه أيضاً بالصيمرى والقدرى، وسمع منهما الحديث، وبرع في الفقه، وخص بالفضل الوافر والتواضع الزائد، وارتفع وشيوخه أحياء، وانتهت إليه رئاسة المذهب في زمانه، وكان فصيح العبارة مليح الإشارة غزير العلم سهل الأخلاق معظماً عند الخلفاء والملوك، ولى قضاء القضاة ببغداد سنة ٤٤٧هـ، وصار رأس علماء عصره في كل مذهب، وحسنت سيرته في القضاء حتى أقام فيه ثلاثين سنة، ومات ليلة السبت الرابع والعشرين من شهر رجب سنة ٤٧٨هـ، وكانت جنازته عظيمة، نزع العلماء طياستهم ومشوا فيها.

انظر ترجمته فى: الكامل فى التاريخ ١٠/١٤٦، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ١٦/٢٤٩-٢٥٢، العبر فى خبر من غير ٢/٣٣٩، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ٥/١٢٠، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ٥/٣٤٣.

(٤) الحسين بن علي بن جعفر بن علکان بن محمد بن دلف بن أبى دلف العجلى، أبو عبد الله بن ماکولا، من أهل جرياذقان، ولد سنة ٣٦٨هـ، وولى القضاء بالبصرة من قبل =

توافقت وفاته مع دخول طغرلبيك بغداد سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م^(١).
 (٢) أبو بكر محمد بن أبي المظفر السمعاني الشافعي^(٢): الفقيه المحدث، ومن
 الوعاظ المبرزين ويلقب بتاج الإسلام، له علم بالتاريخ والأنساب، ونصب على
 منصة قاضى القضاة بعد وفاة أبي عبد الله الدامغانى مباشرة بناء على اختيار
 نظام الملك، حيث لم يرث أبو الحسن على بن عبد الملك^(٣)، منصب أبيه

= أبي الحسن بن أبي الشوارب، ثم استحضره القادر بالله فولاه قضاء القضاة في سنة ٤٢٠هـ،
 فلما ولي القائم أقره على ولايته إلى حين وفاته فمكث يتولى قضاء القضاة سبعاً وعشرين سنة
 وكان يقول: سمعت من أبي عبد الله بن مندة وكان ينتحل مذهب الشافعي ﷺ وكان يقول
 الشعر، وكان نزيهاً عفيفاً، توفي ابن ماکولا في شوال سنة ٤٤٧هـ، وصلى عليه أبو منصور
 بن يوسف.

انظر ترجمته فى: الكامل فى التاريخ ٦١٥/٩، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ٣٥١/١٥،
 ٣٥٢، البداية والنهاية ٦٧/١٢، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ٢٠١/٥، النجوم الزاهرة فى
 ملوك مصر والقاهرة ٥٩/٥.

(١) انظر السلاجقة تاريخهم السياسى والعسكرى ص ٣٢٩.

(٢) ولد سنة ٤٠٠هـ، وتفقّه ببلده، ثم حج فى سنة ٤١٧هـ فتفقّه على أبي الطيب الطبرى، وسمع
 الحديث وشهد عند ابن الدامغانى فقبله، ولازم مسجده خمساً وخمسين سنة، يقرئ الناس
 ويفقههم، وكان من أنزه الناس وأعفهم، لم يقبل من سلطان عطية، ولا من صاحب هدية، ولم
 يغير ملبسه ولا مأكله، ولم يأخذ على القضاء أجراً ولم يستتب أحداً، بل كان يباشر القضاة
 بنفسه، ولم يحاب مخلوقاً، وقد كان يضرب بعض المنكرين حيث لا بينة، إذا قامت عنده قرائن
 التهمة، حتى يقرؤا، توفي يوم الثلاثاء عاشر شعبان سنة ٤٨٨هـ عن ٨٨ سنة، ودفن بالقرب
 من ابن شريح.

انظر الكامل فى التاريخ ٢٥٣/١٠، البداية والنهاية ١٥١/١٠، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم
 ٢٧/١٧، العبر فى خبر من غير ٣٥٩/٢.

(٣) تولى أبو الحسن على بن عبد الملك منصب قاضى القضاة بعد وفاة أبو بكر محمد بن أبي
 المظفر سنة ٤٨٨هـ، وظلت الأسرة الدامغانية متريعة على منصب قاضى القضاة حتى سنة
 ٦٣٠هـ. انظر الكامل فى التاريخ ٢٥٣/١٠، السلاجقة تاريخهم السياسى والعسكرى ص ٣٣٥.

الدامغانى فوراً، على الرغم من أنه دفع مبالغ طائلة لهذا الغرض، وتم اختياره فيما بعد^(١).

وهناك من القضاة الذين تولوا القضاء في نواحي ومدن الدولة السلجوقية (وكان لاتساع الدولة أثره في أن يصبح لكل مدينة وإقليم قاض يعين من قبل قاضى القضاة في بغداد أو أصبهان أو الرى أو مرو أو غيرها من حواضر السلاجقة)^(٢).

٥ - نماذج من القضاة في الدولة السلجوقية:

تولى القضاء في الدولة السلجوقية كثير من العلماء والفقهاء، الذين شهد لهم بالعدالة والنزاهة، وحسن التصرف، ومنهم على سبيل المثال:

(١) محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن أحمد بن الفراء، أبو يعلى (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٦م)^(٣).

(٢) أحمد بن محمد بن أحمد، أبو الحسن السمنانى القاضى: حمو قاضى القضاة أبى عبد الله الدامغانى (ت ٤٦٦هـ/١٠٧٣م)^(٤).

(١) المرجع السابق ص ٣٣٤.

(٢) المرجع السابق ص ٣٣٥.

(٣) ولد في محرم سنة ثمانين، وسمع الحديث الكثير، وحدث عن أبى القاسم بن حبابه، وأول ما سمع من أبى الطيب بن علي بن معروف البزاز، وعلي بن عمر الحربى، وأملى الحديث، وكان من سادات الثقات، وشهد عند قاضى القضاة أبى عبد الله بن ماکولا، والدامغانى، فقبلا شهادته، وكان إماماً في الفقه، له التصانيف الحسان الكثيرة في مذهب أحمد، ودرس وأفتى سنين، وانتهى إليه المذهب، وانتشرت تصانيفه وأصحابه، وجمع الإمامة، والفقه، والصدق، وحسن الخلق، والتعبد، والتقشف، والخشوع، وحسن السمات، والصمت، عما لا يعني وإتباع السلف، توفى في ليلة الاثنين وقت العشاء، ودفن يوم الاثنين لعشرين من رمضان سنة ٤٥٨هـ، وهو ابن ٧٨ سنة.

انظر ترجمته فى: المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ٩٨/١٦، ٩٩.

(٤) ولد في شعبان سنة ٣٨٤هـ بسمنان، وقدم بغداد، وسمع بها من أبى أحمد الفرضى، =

(٣) محمد بن عبيد الله بن أحمد بن محمد بن أبي الرعد الحنفي أبو نصر (ت ٤٦٦هـ/١٠٧٣م)^(١): قاضى عكبرا.

(٤) محمد بن محمد بن عبد الله، أبو عبد الله بن أبي الحسن البيضاوى (ت ٤٧٠هـ/١٠٧٧م)^(٢).

وغير هؤلاء كثير.

هذه نبذة وجيزة عن بعض القضاة الذين تولوا القضاء في العصر السلجوقي، ومما تجدر الإشارة إليه أنهم كانوا جميعاً علماء أفاضلاً عرفوا بالورع والتقوى ودقة الأحكام، وهذا وإن دل على شئ فإنما يدل على الحرص المتناهي لتطبيق الشريعة الإسلامية، وإتقان أحكامها، وهذا من أسمى مقاصد الدعوة الإسلامية.

٦- أثر وسيلة القضاء في الدعوة:

وسيلة القضاء تعتبر من أجل وأعظم وسائل الدعوة الإسلامية، وخاصة في العصر السلجوقي، لأن بالقضاء العادل تسترد الحقوق، وينصف المظلوم، وتكسر شوكة الظالم، وهذه الأمور من أهم مقاصد الشريعة الإسلامية (إقامة العدل في

= وأبي عمر بن مهدي وغيرهما، قال ابن الجوزي: روي عنه أسيافنا وكان ثقة، صاهره أبو عبد الله الدامغانى على ابنته، وولاه نيابة القضاء، فقلد قطعة من السواد، وقضاء باب الطاق، وكان نبياً من ذوي الهيئات، وكان أشعرياً، توفى يوم الاثنين تاسع عشر جمادى الأولى سنة ٤٦٦هـ، ودفن بداره بنهر القلائين، وجلس قاضى القضاة للعزاء به، ثم نقل إلى الخيزرانية. انظر ترجمته فى: المرجع السابق ١٥٧/١٦، ١٥٨.

(١) سمع أبا أحمد الفرضى، وأبا عمر بن مهدي، توفى يوم الجمعة ثالث ربيع الآخر سنة ٤٦٦هـ. انظر المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ١٥٩/١٦.

(٢) حدث بشئ يسير عن أبى القاسم عمر بن الحسين الخفاف، وكان فقيهاً على مذهب الشافعى، تولى القضاء بربيع الكرج (ببغداد)، توفى فى ربيع الأول سنة ٤٧٠هـ، ودفن إلى جانب أبيه فى مقبرة باب حرب.

انظر ترجمته فى: المرجع السابق ١٩٧/١٦.

الجماعة الإسلامية من مقاصد الشريعة الإسلامية^(١).

وبه تتم دعائم السعادة التي يسعى إليها البشر، لأن فيها اطمئناناً على الحقوق، وبعثاً للهدوء والسكينة، وإنقاذاً للبشرية من ظلمات الجهل والبغى والعدوان^(٢)، قال تعالى: ﴿فَلْيَذَلِكُمْ فَأَنعُ وَأَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَأَكْمُرُ أَعْمَلِكُمْ لَأَحْجَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾^(٣).

وحسبنا أن القضاء لا يفرق بين غنى وفقير، ولا قوى وضعيف، ولا حاكم ومحكوم، وفي ذلك تحقيق للمساواة التي دعا إليها الإسلام، والتي تجعل غير المسلم ينظر باحترام إلى الدين الذي يحمل بين تعاليمه هذه المفاهيم الكريمة، وهذا كله يصب في خدمة الدعوة الإسلامية.

كيفية الاستفادة من وسيلة القضاء في العصر الحاضر:

إذا أرادت الأمة الإسلامية في العصر الحاضر أن تحقق وسيلة القضاء غايتها في نشر العدل بين الناس، ومن ثم انتشار الإسلام بين العالمين، فيجب أن تتوافر في القاضي الصفات التي تؤهله لتولى هذا المنصب الرفيع، وأن تستفيد الأمة في حاضرها من ماضيها، فلقد كان القضاة يختارون من العلماء الثقات الذين لهم باع طويل في مجال العلم والمعرفة، فضلاً عن اتصافهم بصفات الخشية والورع والتقوى، ومن أجل توافر هذه الصفات فيهم نجد أن بعضهم لخطورة هذا المنصب كانوا يرفضونه خوفاً من الله تعالى، ومن السؤال بين يديه يوم القيامة، ولما يعلمون من أن ميزان العدل لو تحقق لساد الخير بين الناس كافة، ولما يعلمون أيضاً من أن الظلم

(١) انظر الإمام محمد أبو زهرة: أصول الفقه ص ٣٤٢، ط دار الفكر العربي بدون تاريخ، بتصريف.

(٢) انظر الإمام الأكبر محمد شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة ص ٤٤٤، ط دار الشروق.

(٣) سورة الشورى آية ١٥.

سبب هلاك الأمم، قال تعالى: ﴿وَذَلِكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكَ لَهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾^(١).

فإذا تحققت في القاضي تلك الصفات الحميدة، لحققت وسيلة القضاء غايتها في نشر العدل بين الناس، ولأصبح القضاء وسيلة هامة من وسائل الدعوة الإسلامية.



المبحث الرابع

الخطابة وأثرها الدعوى وكيفية الاستفادة منها في العصر الحاضر

١- تعريف الخطابة لغة واصطلاحاً:

تعريف الخطابة في اللغة:

الخَطْبُ: الشأن أو الأمر صغر أو عظم،.....، يقال ما خطبك؟ أي ما أمرك؟ وتقول: هذا خطب جليل، وخطب يسير^(١)، وخطب الخاطب على المنبر خطابة، بالفتح، وخطبة بالضم^(٢): هو الكلام بين متكلم وسماع^(٣).

تعريف الخطابة في الإصطلاح:

عرفت الخطابة في الإصطلاح بتعريفات كثيرة منها:

- (١) صفة راسخة في نفس المتكلم، يقتدر بها على التصرف في فنون القول لمحاولة التأثير في نفوس السامعين، وحملهم على ما يراد منهم في ترغيبهم وإقناعهم^(٤).
 - (٢) فن مشافهة الجمهور وإقناعهم واستمالتهم^(٥).
 - (٣) فن مخاطبة الجماهير بطريقة إقائية، تشتمل على الإقناع والإستمالة^(٦).
- من خلال ما سبق يتضح أن هناك عدة تعريفات للخطابة، والواضح أن التعريف

(١) انظر لسان العرب مادة (خطب) ١٣٤/٤.

(٢) انظر القاموس المحيط مادة (خطب) ص ١٠٨.

(٣) انظر المصباح المنير ص ١٠٦.

(٤) انظر الإمام محمد أبو زهرة: الخطابة أصولها تاريخها في أزهى عصورها عند العرب ص ١٩، ط دار الفكر العربي القاهرة، بدون.

(٥) انظر أحمد الحوفى: فن الخطابة ص ٩، ط مكتبة نهضة مصر الطبعة الثانية.

(٦) انظر د.بدير محمد بدير: عوامل نجاح الخطيب ص ٢٥.

الأول يتناول الخطابة من حيث أنها ملكة يتصف بها المتكلم، وهذه الملكة صفة راسخة في نفس المتكلم، ويحاول من خلالها التأثير في السامعين.

أما التعريف الثاني والثالث فيتناول الخطابة كفن من فنون القول، يحاول به الخطيب استمالة من أمامة من المستمعين.

أركان الخطابة:

للخطابة ثلاثة أركان هي:

(١) الخطيب (٢) الخطبة (٣) المستمع.

وهذه الأركان الثلاثة هي أركان أي خطبة سواء كانت دينية أم اجتماعية أو سياسية أم قضائية أو عسكرية^(١).

فائدتها: للخطابة فوائد كثيرة وثمرات جمة تفوق الحصر أهمها ما يلي:

أنها تتهدى إلى الحق الذي يراد اعتناقه، والعمل به، والسعي في إحياءه في دنيا الناس أكثر من غيرها، لأنها تسلك من المناهج والمقومات التي تعين على ذلك ما لا يسلكه غيرها من الفنون والعلوم.

وهي التي تقض المشاكل، وتقطع الخصومات، وتهدي النفوس الشائرة، وتثير حماسة ذوى النفوس الفاترة، وترفع الحق، وتخفض الباطل، وتقيم العدل، وترد المظالم، وهي صوت المظلومين وهي لسان الهداية^(٢).

من أجل هذا فالخطابة قديماً وحديثاً وسيلة من أعظم وسائل الدعوة الإسلامية، والتي بها يستطيع الدعي أن يأخذ بأيدي الناس من طريق الضلال إلى طريق الهدى والرشاد، ولذا عنى بها السلاجقة، واستخدموها استخداماً جيداً لأجل رفع ونشر الدعوة الإسلامية، وإليك بيان ذلك:

(١) انظر د/مصطفى مراد: روضة الخطباء وكيف تكون خطيباً ناجحاً ص ١٣، ط دار الفجر

للتراث القاهرة، الأولى ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

(٢) انظر عوامل نجاح الخطيب ص ٣٨.

٢ - الخطابة في عهد السلاجقة :

اهتم السلاجقة اهتماماً كبيراً بالخطابة، لا سيما الخطابة الدينية، وذلك باعتبارها وسيلة من وسائل الدعوة الإسلامية، كذلك اهتم السلاجقة بمن يتولون أمر الخطابة فكانوا يختارون من العلماء الذين يتصفون بالعلم والفقه والورع والتقوى، وذلك لمعرفة أصحاب الأمر في الدولة السلجوقية بخطورة دور الخطيب في يقظة الأمة من سباتها، وقدرته على حل مشاكلها، والأخذ بأيدي من تحت ناظريه من الخلق إلى طريق ربهم جلا وعلا.

ولم تقف الخطابة في العصر السلجوقي على الخطابة الدينية فحسب، بل كانت هناك خطب سياسية وعسكرية وقضائية واجتماعية، فلقد قام السلطان ألب أرسلان خطيباً في جنوده في موقعة ملاذكرد سنة ٤٦٣ هـ حاثاً إياهم على التضحية من أجل رفع راية الإسلام، وقام السلطان ملكشاه خطيباً عندما تولى أمر السلطنة، وقام غيرهم من سلاطين السلاجقة بالخطابة في المواقف المختلفة من أجل الوصول إلى غرض ما عن طريق الخطابة.

نموذج من الخطابة في العصر السلجوقي :

لقد كان للخطابة في العصر السلجوقي رونق وشموخ، لأن العلماء الذين تولوا أمر الخطابة كانوا على علم وزهد وورع وتقوى وخوف من الله عز وجل، فنطقوا بكلمة الحق ولم يخافوا في الله لومة لائم، (لأنهم يعلمون أنه لا دواء للقلوب العليلة إلا الخطب الدينية، فليس أجدر منها في مخاطبة القلوب، واستمالة الوجدان، وليس أجدر منها في مخاطبة العقل لمن يسير وراء عقله لأنها تستعمل الأدلة البرهانية، والأدلة الظنية، فبها تنهذب النفوس، وتنتبه العقول من غفلتها، وتستيقظ من رقدتها، وتستتير البصائر بنور الطاعة بعد أن أظلمتها المعاصي)^(١).

(١) انظر روضة الخطباء وكيف تكون خطيباً ناجحاً ص ١٤.

وهناك من النماذج للخطابة الدينية الكثير، فعلى سبيل المثال:

عندما دخل نظام الملك وزير السلطان ملكشاه إلى بغداد سنة ٤٨٠ هـ ذهب يوم الجمعة إلى جامع المهدي لأداء صلاة الجمعة، فقام أبو سعد بن أبي عمارة^(١)، فخطب خطبة بليغة، وجه فيها الكلام إلى الوزير ووعظه موعظة شديدة بكى من شدتها الوزير نظام الملك فقال: الحمد لله ولي الإنعام، وصلى الله على من هو للأنبياء ختام، وعلى آله سرج الظلام، وعلى أصحابه الغر الكرام، والسلام على صدر الإسلام، ورضي الإمام، زينه الله بالتقوى، وختم عمله بالحسنى، وجمع له بين خير الآخرة والدنيا، معلوم يا صدر الإسلام إن أحاد الرعية من الأعيان مخيرون في القاصد والوافد إن شاءوا وصلوه، وإن شاءوا قطعوه، فأما من توشح بولائه وترشح لآلائه فليس مخيراً في القاصد والوافد، لأن من هو على الحقيقة أمير فهو في الحقيقة أجير، قد باع نفسه وأخذ ثمنه، فلم يبق من نهاره ما يتصرف فيه على اختياره، ولا له أن يصلي نفلًا ولا يدخل معتكفًا دون التبتل لتدبيرهم، والنظر في أمورهم، لأن ذلك فضل وهذا فرض لازم، وأنت يا صدر الإسلام وإن كنت وزير الدولة، فأنت أجير الأمة استأجرك جلال الدولة بالأجرة الوافرة لتتوب عنه في الدنيا والآخرة، فأما في الدنيا ففي مصالح المسلمين، وأما في الآخرة فلتجيب عند رب العالمين، فإنه سيقفه بين يديه ويقول له: ملكتك البلاد وقلدتك أزمة العباد فما صنعت في إقامة البذل وإفاضة العدل؟ فلعله يقول: يا رب اخترت من دولتي شجاعاً عاقلاً حازماً وسميته قوام الدين نظام الملك وها هو قائم في جملة الولاة، وبسطت يده في السوط والسيف والقلم،

(١) المعمر بن علي بن المعمر، أبو سعد بن أبي عمارة الواعظ ولد سنة تسع وعشرين وأربعمائة، وسمع ابن غيلان والخلال والجوهري وغيرهم، وكان يعظ وجمهور وعظه حكايات السلف، وكان له خاطر حاد وذهن بغدادى وتماجن، وكان يحاضر المستظهر بالله، قال يوماً في وعظه: أهون ما عنده أن يجعل لك أبواب الوصي توابيت. توفى سنة ٥٠٦ هـ.

انظر ترجمته فى: المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ١٧/١٣٠-١٣٢، البداية والنهاية

ومكنته من الدينار والدرهم، فأسأله يا رب ماذا صنع في عبادك وبلادك؟ أفتحسن أن تقول في الجواب: نعم تقلدت أمور العباد وملكت أزمة العباد، فبثت النوال وأعطيت الأفضال، حتى إنني أقربت من لقائك، ودنوت من تلقائك، اتخذت الأبواب والنواب والحجاب والحجاب ليصدوا عني القاصد ويردوا عني الوافد، فاعمر قبرك كما عمرت قصرك، وانتهاز الفرصة ما دام الدهر يقل أمرك، فلا تعتذر فما ثم من يقبل عذرك، وهذا ملك الهند وهو عابد صنم ذهب سمعه فدخل عليه أهل مملكته يعزونه في سمعه، فقال: ما حزني لذهاب هذه الجارحة من بدني ولكن لصوت المظلوم كيف لا أسمع فأغيثه، ثم قال: إن كان قد ذهب سمعي فما ذهب بصري، فليؤمر كل ذي ظلامه أن يلبس الأحمر حتى إذا رأيته عرفته فأنصفته، وهذا أنو شروان قال له رسول ملك الروم: لقد أقدرت عدوك عليك بتسهيل الوصول إليك، فقال: إنما أجلس هذا المجلس لأكشف ظلامه وأقضي حاجة، وأنت يا صدر الإسلام أحق بهذه المأثرة، وأولى بهذه المعدلة، وأحرى من أعد جواباً لتلك المسألة، فإنه الله الذي تكاد السموات يتفطرن منه في موقف ما فيه إلا خاشع أو خاضع أو مقنع، ينخلع فيه القلب، ويحكم فيه الرب، ويعظم الكرب، ويشيب الصغير، ويعزل الملك والوزير: ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾^(١)، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْإِبَادِ﴾^(٢)، وقد استجلبت لك الدعاء وخلدت لك الثناء مع براءتي من التهمة، فليس لي في الأرض ضيعة ولا قرية ولا بيني وبين أحد حكومة ولا بي بحمد الله فقر ولا فاقة.

فلما سمع نظام الملك هذه الموعظة بكى بكاءً طويلاً وأمر له بمائة دينار فلم يأخذها، وقال: أنا في ضيافة أمير المؤمنين ومن يكون في ضيافته يقبح أن يأخذ

(١) سورة الفجر آية ٢٣.

(٢) سورة آل عمران آية ٣٠.

عطاء غيره، فقال له: فضها على الفقراء، فقال: الفقراء على بابك أكثر منهم على بابي، ولم يأخذ شيئاً^(١).

هكذا كانت الخطابة في عهد الدولة السلجوقية تشتمل على وعظ الأمراء وفيها إيقاظاً للنفوس من خلال التذكير بيوم النشور، وفيها تنبيه لأولى الأمر على مسؤولياتهم في الدنيا قبل السؤال يوم القيامة يوم لا يغنى حاكم عن محكوم، ولا محكوم عن حاكم.

٣- أشهر من تولوا الخطابة في الدولة السلجوقية:

- (١) أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي أبو بكر الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٠م^(٢): وسمى الخطيب لأنه كان يخطب بدرج ریحان^(٣).
- (٢) المعمر بن علي بن المعمر، أبو سعد بن أبي عمارة المتوفى سنة ٥٠٦هـ/١١١٢م^(٤): كان يعظ وجمهور وعظه حكايات السلف^(٥).
- (٣) صاعد بن منصور بن إسماعيل بن صاعد، أبو العلاء الخطيب النيسابوري المتوفى سنة ٥٠٦هـ/١١١٢م: ولي الخطابة بعد أبيه والتدريس والتذكير، وكان الإمام الجويني يثني عليه^(٦).
- (٤) أبو المظفر الخجندی المتوفى سنة ٤٩٦هـ/١١٠٢م^(٧).

(١) انظر المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٣٠/١٧-١٣٢.

(٢) سبقت ترجمته ص ١٦٣.

(٣) انظر البداية والنهاية ١٠١/١٢.

(٤) سبقت ترجمته ص ١٨٢.

(٥) انظر المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٣٠/١٧.

(٦) انظر البداية والنهاية ١٧٥/١٢.

(٧) تولى الوعظ بمدينة الري، وكان فقيهاً شافعيًا مدرساً، قتله رافضى في الفتنة، وكان عالماً فاضلاً، كان نظام الملك يزوره ويعظمه.

انظر ترجمته في: البداية والنهاية ١٦٣/١٢.

- (٥) عبد الله بن علي بن أحمد بن عبد الله، أبو محمد سبط بن أبي منصور المتوفى سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م^(١).
- (٦) عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك بن طلحة أبو القاسم القشيري المتوفى سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م^(٢).
- (٧) أبو الفرج بن الجوزي: عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م^(٣): وقد كان ابن الجوزي في زمانه واعظ الآفاق،

(١) قرأ القراءات وصنف فيها، وسمع الحديث الكثير، واقتنى الكتب الحسنة، وأم الناس في مسجده نيفاً وخمسين سنة، وعلم خلقاً القرآن، قال ابن الجوزي: ما سمعت أحداً أحسن قراءة منه، وحضر جنازته خلق كثير.

انظر ترجمته في: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٥١/١٨، ٥٢، البداية والنهاية ٢٢٢/١٢، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٢١٠/٦، ٢١١، الكامل في التاريخ ١١٨/١١.

(٢) ولد سنة ست وسبعين وثلاثمئة، توفي أبوه وهو طفل فنشأ وقرأ الادب والعربية، وكان يهوى مخالطة أهل الدنيا، فحضر عند الشيخ أبي علي الدقاق فجدبه عن ذلك، وأخذ الفقه عن أبي بكر بن محمد الطوسي، وأخذ الكلام عن أبي بكر بن فورك وصنف الكثير وصار رأساً في الأشاعرة، وصنف التفسير، وخرج إلى الحج في صحبة إمام الحرمين وأبي بكر البيهقي، فسمع معهما الحديث ببغداد والحجاز ثم أملى الحديث، وكان يعظ الناس، توفي في رجب سنة ٤٦٥هـ بنيسابور.

انظر ترجمته في: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٤٨/١٦، ١٤٩، البداية والنهاية ١٠٧/١٢، الكامل في التاريخ ٨٨/١٠.

(٣) صاحب التصانيف الكثيرة الشهيرة في أنواع العلم من التفسير والحديث والفقه والزهد والوعظ والأخبار والتاريخ والطب وغير ذلك، ولد سنة عشر وخمسائه أو قبلها، وسمع من علي بن عبد الواحد الدينوري، وابن الحصين، وأبو عبد الله البارع، وتتمة سبع وثمانين نفساً، ووعظ من صغره، وفاق فيه الأقران، ونظم الشعر المليح، وكتب بخطه ما لا يوصف، ورأى من القبول والاحترام ما لا مزيد عليه، وحكى غير مرة أن مجلسه قدر بمئة ألف، وحضر مجلسه الخليفة المستضى مرات من وراء الستر، توفي في ثالث عشر رمضان سنة ٥٩٧هـ.

انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء ٣٦٥/٢١-٣٨٤، العبر في خبر من غير =

وقد بدأ الوعظ في سن مبكرة مما يدل على ذاكرة واعية، وبديهية حاضرة، وذكاء حاد، ونبوغ مبكر، لأن وعظه في هذه السن كان له أثره، وكان يحضر مجلس وعظه الكثيرون يسمعون له، ويتأثرون به^(١).

وغير هؤلاء الكثير من العلماء الذين تولوا الخطابة في مختلف مساجد بلاد خراسان والعراق، وغيرهما من البلاد التي تقع تحت حكم الدولة السلجوقية.

٤ - أثر الخطابة في الدعوة في الدولة السلجوقية:

لا شك أن الخطابة وسيلة هامة من وسائل الدعوة الإسلامية، «فالخطابة كانت ولا تزال وستظل هي السر الرئيسي الذي تعبر منه كلمة المبلغين عن الله تعالى، سبيلها إلى النفس البشرية على اختلاف منارها العلمية وقدراتها الفردية، وقضاياها البيئية ومشكلاتها الإجتماعية والسياسية، وفضلاً عن هذا كله كرامتها العقديّة»^(٢)، ولهذا كان للخطابة في ظل دولة السلاجقة أثر طيب وعظيم في الدعوة، إذ بها نشطت الدعوة، وانتشرت في الآفاق، والتف الناس حول العلماء ينهلون من علمهم، ويقتبسون من هديهم، والخطيب إن وضع الله له القبول يفتح به ما لا تقدر عليه الجيوش.

فها هو ابن الجوزي وهو من الخطباء الذين عاشوا في العراق في ظل دولة السلاجقة يحكى عن نفسه وعن مدى تأثيره في الناس فيقول: وضع الله لى القبول في قلوب الخلق فوق الحد، وأوقع كلامى في نفوسهم، فلا يرتابون بصحته، وقد أسلم على يدى نحو مائتين من أهل الزمة، ولقد تاب في مجالسى أكثر من مائة ألف، وقد

= ١١٨/٣، ١١٩، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٥٧/٦، ١٥٨، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ١٤٠/٣-١٤٢، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٥٣٧/٦-٥٤٠، الكامل في التاريخ ٢٧٦/١٠، الأعلام ٣١٦/٣، ٣١٧.

(١) انظر المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٧/١.

(٢) انظر د/عبد الناصر أحمد حسيب: لسان الدعوة بين الإعداد والإنطلاق ص ١٧٠، ط الثانية.

قطعت أكثر من عشرين ألف سالف مما يتعاناه الجهال^(١).

فقد كان إقناع الناس وجذبهم للدعوة عبر الخطابة دلالة واضحة على إخلاص الخطباء الذين عاشوا في ظل الدولة السلجوقية، ففتح الله عليهم، وفتح بهم قلوباً غلفاً وآذاناً صماً، وأعيناً عمياً، وهذا من أعظم الآثار التي عادت بها الخطابة على الدعوة الإسلامية في الدولة السلجوقية.

كيفية الاستفادة من وسيلة الخطابة في العصر الحاضر:

الخطابة كانت ولا تزال هي لسان الدعوة النابض، وما زال يوم الجمعة بالنسبة لكل المسلمين في ربوع الأرض يوم عيد، لأن فيه تتجدد الإيمانيات، ويتلقى المسلم جرعة جديدة من الثقافة الدينية، هذا هو المفترض ولكن إذا نظرنا إلى حال خطبائنا لوجدنا حالاً تدنى فيه مستوى الخطيب العلمي إلى درجة تنذر بالخطر إلا من رحم الله من الخطباء الذين حملوا على عاتقهم عبء الدعوة، ونظروا إليها كرسالة وليست وظيفة تؤدي، وبمجرد نزوله من على المنبر انفصل عن مجتمعه، وكأنه في مجتمع آخر، وسبب ذلك عدة أمور من بينها: اشتغال الخطيب بمصدر رزق ثانٍ ليكفيه، وعدم اهتمام أولى الأمر بالخطيب من نواحي كثيرة منها المادية والاجتماعية والثقافية، وتتضح أهمية دور الخطابة عندما أقول بأن الرجل المسلم الأمي في القرية وفي المدينة مصدر معرفته الرئيسي بدينه هو خطيب المسجد، فإذا تلقى هذا المسلم الدين بصورة صحيحة أصبح فعالاً في مجتمعه، وإذا لم يتلقى شيئاً جديداً أصبح كالتائه في بحر من الظلمات، فلا بد وأن نهتم اهتماماً كبيراً بالخطيب، وأن نهتم أيضاً بالكليات التي تخرج هؤلاء الطلاب، وأن يعرف الطالب المهمة التي أنيطت به في المستقبل، إذا كنا نريد لأمتنا أن تتعلم أمور دينها، وأن ترتقى وأن تتقدم، لأن الخطيب هو الذي يستطيع أن يصل إلى كل بيت، وكل فرد، وكل صغير، وكل كبير، مما يعود بعد ذلك بالنفع على الإسلام والمسلمين.

(١) انظر المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٧/١، ١٨.

المبحث الخامس

المدارس النظامية وأثرها في الدعوة إلى الله وكيفية الاستفادة منها في العصر الحاضر

١ - نبذة تاريخية عن المدارس الأهلية قبل النظامية :

تعد المدارس النظامية التي أسسها الوزير نظام الملك الطوسي أول مدارس علمية منظمة في الإسلام^(١).

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هل الوزير نظام الملك هو أول من بنى المدارس في الإسلام؟

اختلف المؤرخون وأهل العلم حول بداية نشأة المدرسة الإسلامية، فمنهم من قال: أنها ظهرت في عهد نظام الملك الذي أنشأ المدرسة النظامية سنة ٤٥٩هـ، ومنهم من قال: إنها كانت قد ظهرت قبل ذلك بكثير، ولكن بالرجوع إلى المصادر والكتب المتخصصة نجد أن المدرسة في أول ظهور لها كان في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجري، وهذه المدرسة هي مدرسة الإمام أبي حفص الفقيه البخاري ١٥٠هـ - ٢٧٠هـ، ويبدو من نسبتها إلى مؤسسها أنها قد أسست أثناء حياته، وأبو حفص البخاري من الفقهاء الذي تزعموا الحركة الفكرية في مدينة بخاري، ثم نشطت حركة إنشاء المدارس في بلاد المشرق بعد هذا التاريخ^(٢)، فقد تم إنشاء المدرسة البيهقية بنيسابور، والمدرسة السعدية بنيسابور أيضاً بناها الأمير نصر بن سبكتكين أخو السلطان محمود لما كان والياً بنيسابور ومدرسة ثالثة بنيسابور بناها أبو سعد إسماعيل بن علي بن المثنى الإستراباذي الواعظ الصوفي شيخ الخطيب ومدرسة

(١) انظر نظام الوزارة في الدولة العباسية ص ١٩٠.

(٢) انظر دولة السلاجقة ص ٢٩٩.

رابعة بنيسابور أيضا بنيت للأستاذ أبي إسحاق الإسفرايني^(١).

هذا إلى جانب العديد من المدارس التي بنيت قبل إنشاء نظام الملك المدارس النظامية (وجاء النظام فوجد أمامه هذه النماذج العديدة من المدارس، ورأى الفاطميين قد سبقوه إلى تشييد الأزهر والاعتماد عليه في دعوتهم ودراسة مذهبهم فكانت هذه مصادر إichاء وتحفيز للقيام بإنشاء مجموعة من المدارس وليست مدرسة واحدة لتشارك المجاهدين في حربهم ضد المبتدعين بنفس السلاح)^(٢).

ولكن ما الذى ميز المدارس النظامية عن غيرها من المدارس؟ لعل من الأمور التي اختلفت بها النظاميات عن غيرها:

(١) يعد نظام الملك أول من قدر المعاليم (المرتبات) للطلبة، ولم تكن المدارس التي أنشئت قبل ذلك تقدر لطلبتها المعاليم^(٣).

(٢) انفصال المدارس النظامية في بنائها عن المسجد والجامع^(٤)، ففي بداية ظهور المدارس كانت ملحقة بالمساجد، فقد أُلحقت بـ«المسجد الجامع» بـ«غزنة» «مدرسة فيحاء» يقال إنها تشتمل من الأرض إلى السقوف على كتب الأولين والآخرين التي نقلها السلطان محمود من البلاد المفتوحة، وكان العلماء والطلاب يقصدون هذه المدرسة للدرس والتدريس، وتجرى عليهم الأرزاق

(١) انظر الإمام تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافي السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٣١٤/٤، ط دار إحياء الكتب العربية، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، محمود محمد الطناحى.

(٢) انظر د/عبد الهادى محمد رضا محبوبة: نظام الملك (الحسن بن على بن إسحاق الطوسى ٤٠٨-٤٨٥هـ) كبير الوزراء في الأمة الإسلامية دراسة تاريخية في سيرته وأهم أعماله خلال استيزاره ص ٣٦٥، ط الدار المصرية اللبنانية القاهرة الأولى سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

(٣) انظر الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقى ص ٢٥٥.

(٤) انظر نظام الملك ص ٣٦٦.

الوافرة^(١).

(٣) إشراف الحكومة في العصر السلجوقي على إنشاء المدارس النظامية، وكذلك توظيف معظم الطلبة الممتازين من متخرجيها^(٢).

هذه هي بعض الأمور التي تميزت بها المدارس النظامية عن غيرها من المدارس التي أنشئت قبلها.

٢ - دوافع إنشاء المدارس النظامية :

لم تقتصر دوافع إنشاء المدارس النظامية على سبب واحد، بل كانت هناك جملة أسباب مجتمعة دفعت نظام الملك إلى الاقتناع بالفكرة والإسراع إلى إنشاء هذه المدارس في بغداد والمشرق الإسلامي^(٣)، ولعل أهم هذه الأسباب:

١ - مقاومة انتشار المذهب الباطني :

(لقد تسربت الباطنية في سوريا وفارس والعراق وأخذت انفصالات الطامعين في الحكم تظهر هنا وهناك، فطاف ناصر خسرو^(٤)، ومن بعده حسن الصباح يدعوان للمذهب الباطني الإسماعيلي، وقام إبراهيم ينال ثم البساسيري في الموصل وبغداد

(١) انظر أبي نصر العتبي: تاريخ اليميني على هامش شرح اليميني المسمى بالفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبي ٢/٢٩٩، ٣٠٠، طبعة المكتبة الوهبية القاهرة سنة ١٣٨٦هـ.

(٢) انظر نظام الملك ص ٣٦٦.

(٣) انظر الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ص ٢٥٦.

(٤) ناصر خسرو: ولد في «قياديان» عام ٣٩٤هـ، من أسرة متوسطة الحال، تتقف ثقافة واسعة، والتحق بخدمة الغزنويين، فنشأ نشأة سنية، ثم انتقل ليشغل منصب كبير في الدولة السلجوقية، ولما قام برحلته المدونة في كتابه «سفر نامة» كان أميناً في كتابته، إذا رأى شيئاً رأى العين نص عليه نصاً، وإذا سمع عن شئ رواه، وجعل العهدة على رايه.

انظر ناصر خسرو علوى: سفر نامة ترجمة د/يحيى الخشاب، طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الألف كتاب الثاني، القاهرة سنة ١٩٩٣م، مقدمة د/يحيى الخشاب ص ٤٠-١٥.

بثورتين عنيفتين كادتتا تقضيان على الخلفاء والسلاجقة جميعاً، وكان لدار الحكمة والأزهر اللذين أسسهما الفاطميون في القرن العاشر الهجري بالقاهرة الفضل الأكبر في بث مبادئ التشيع الإسماعيلي ونشر الحكم الفاطمي، ولم يكن إيقاف حركة الباطنية بالأمر الهين، لأنها تغلغت في البلاد الإسلامية وبخاصة إقليم خراسان فإنه كان موطن المغذين لها بالأراء الفلسفية والبراهين المنطقية إن لم يكن من المؤسسين لها، لذلك فقد زود دعائها بأنواع من العلم كثيرة وعميقة واتخذ هؤلاء وسيلتهم الإقناع والحجة عن طريق الحوار والمناقشة^(١).

وقد أدرك نظام الملك أن استخدام القوة والعنف لا يجدي نفعاً في ذلك، فالحجة لا تفرع إلا بالحجة، والعقل لا يقبل له مناظراً إلا العقل، لأن السيف لا يستطيع أن يمحو الفكرة الفاسدة، بل ربما أدى إلى حصول ردود فعل معاكسة.

لقد أدرك نظام الملك هذه الحقائق، وتبين له أن ليس إلا أن يواجه خصومه من السبيل الذي سلوكه، ويفسد عليهم خطتهم بتخريج جماعات مسلمة مثقفة ثقافة عالية، ومزوده بسلاح العلم والإيمان معاً، لذلك فإنه ما كاد يتسلم منصبه في الوزارة حتى شرع في تأسيس مدارسه النظامية في أمهات المدن وحواضر الأمصار ليحقق هذا الهدف النبيل، وقد عهد بمناصب التدريس في مدارسه هذه إلى علماء فحول ممن كانت لهم مقدرتهم العلمية، ومكانتهم الفكرية في حواضرهم، حتى يستطيعوا التأثير على العامة، وحتى يتمكنوا من تخريج رجال مسلحين بسلاح العلم والإيمان معاً أمام الدعوة الباطنية^(٢).

٢ - تنظيم العملية التعليمية وإيجاد بديل للتعليم في المساجد:

لما كان التعليم في المساجد، وانعقاد حلقات الدرس طوال اليوم، وما يجري في الحلقات من مناقشات ومحاضرات، قد تزجج المصلين والعاكفين، والمتفرغين لقراءة

(١) انظر نظام الملك ص ٣٥٣، ٣٥٤.

(٢) انظر الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ص ٢٥٨.

القرآن الكريم، لذلك أسس الوزير نظام الملك المدرسة النظامية في بغداد وفي نيسابور، وعلى غرار النظامية أسست المدارس في المشرق الإسلامي في بلخ وأصفهان، وهذه المدارس تقوم بمهمة التعليم العالي، بمعنى أن الطالب الذي يسمح له بدخولها قد نال حظاً من العلم، وقد خصصت حجرات في هذه المدارس لإقامة الطلاب، ولهذه المدارس وقف ينفق منه على احتياجات المدرسة، ورواتب الأساتذة والوعاظ وأمين المكتبة والعمال والأثاث والنظافة وطعام الطلاب والأساتذة والفراشين والطباخين، وكانت تدرس في هذه المدارس علوم الفقه والحديث والتفسير والنحو واللغة والأدب والصرف، وكل نظامية بها مكتبة كبيرة يشرف عليها خازن الكتب، وهو المشرف على المكتبة، وتضم المدرسة معلمين ينقسمون إلى ثلاث فئات، فئة المدرسين وفئة المعيدون الذين يعيدون إلقاء وشرح الدروس للطلاب، وفئة ثالثة بمثابة الوعاظ، ويأتي في مقدمة هذه الفئات الشيخ وهو الأستاذ، ويرتدى عمامة سوداء وقباء أسود ويجلس على كرسي مرتفع وحوله الطلاب، وكان هناك حرص شديد على حسن اختيار أساتذة النظامية، لذلك تخرج منها علماء أجلاء، ونبغ أساتذتها في فروع العلم^(١).

ولعل ما يؤيد هذا الكلام ما أورده القزويني في سبب إنشاء النظاميات: (أن السلطان ألب أرسلان دخل مدينة نيسابور، فاجتاز على باب مسجد فرأى جمعاً من الفقهاء على باب ذلك المسجد في ثياب رثة، لا خدموا للسلطان ولا دعوا له، فسأل السلطان نظام الملك عنهم فقال: هؤلاء طلبة العلم وهم أشرف الناس نفساً، لا حظ لهم من الدنيا، ويشهد زيهم على فقرهم، فأحس بأن قلب السلطان لان لهم، فعند ذلك قال: لو أذن السلطان بنيت لهم موضعاً وأجريت لهم رزقاً ليشغلوا بطلب العلم ودعاء دولة السلطان، فأذن له، فأمر نظام الملك ببناء المدارس في جميع مملكة السلطان)^(٢).

(١) انظر الدول الإسلامية المستقلة في المشرق الإسلامي ص ٢٩٦، ٢٩٧.

(٢) انظر زكريا بن محمد بن محمود القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص ٤١٢، ط دار صادر بيروت، بدون تاريخ.

٣ - ولعل من الأسباب المهمة التي دعت نظام الملك إلى إنشاء المدارس هو: نشر علوم الشريعة وتصحيح العقيدة ومناقشة مسائل الخلاف بأساليب المنطق التي اقتصر استعمالها قبل ذلك على الشيعة^(١).

هذه هي بعض الأسباب التي دعت نظام الملك إلى إنشاء المدارس النظامية.

٣ - الأماكن التي أنشئت بها المدارس النظامية وأشهر من تولى التدريس بها:

يعتبر الوزير السلجوقي نظام الملك رائد حركة إنشاء وتعميم المدارس في كافة الأمصار الإسلامية^(٢)، ولم يكتف بإنشاء المدارس في المدن الرئيسية بل امتد نشاطه العلمي إلى القرى والمدن النائية^(٣)، يقول السبكي في ترجمته لنظام الملك: (وبنى مدرسة ببغداد ومدرسة ببلخ ومدرسة بنيسابور ومدرسة بهراة ومدرسة بأصبهان ومدرسة بالبصرة ومدرسة بمرود بأمل طبرستان ومدرسة بالموصل، ويقال إن له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة)^(٤).

(وكان منهج التعليم الذي يسير بمقتضاه الأساتذة في المدارس النظامية شاملاً لمجموعة العلوم الإسلامية المعروفة كالقرآن والحديث ثم أصول الفقه والفقه على المذهب الشافعي، وعلم الكلام على رأي الأشعري، ثم مجموعة اللغة العربية كالنحو والصرف والبلاغة والعروض، وكان تسلسل المنهج وتطبيقه تربوياً سليماً إلى حد كبير)^(٥)، كذلك حرص الوزير نظام الملك على جذب خيرة العلماء للتدريس في هذه النظاميات حتى تؤدي رسالتها على أعظم ما يكون، وتكون في نفس الوقت أماكن العلماء المسلمين من كافة الأقطار، فعندما شيد نظامية بغداد اختار لها أعظم علماء

(١) انظر الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ص ٢٥٨.

(٢) انظر أثر الحضارة السلجوقية في دول شرق العالم الإسلامي على الحضارتين الأيوبية والمملوكية بمصر ١/١٢٩.

(٣) انظر نظام الوزارة في الدولة العباسية ص ١٩١.

(٤) انظر طبقات الشافعية الكبرى ٤/٣١٣، ٣١٤.

(٥) انظر نظام الملك ص ٣٥٩، ٣٦٠.

عصره مثل الإسفراييني والجويني إمام الحرمين، وحجة الإسلام الغزالي..... ولكي يضمن نظام الملك للمدارس النظامية أداء رسالتها فقد رصدت عليها الأوقاف العديدة^(١)، فقد أوقف نظام الملك على المدرسة النظامية ببغداد أسواقاً وضياعاً وحمامات ومخازن ودكاكين لتكون مصدر دخل ثابت لها^(٢).

وهكذا فقد اهتم الوزير نظام الملك بكل ما يتعلق بالمدارس النظامية من اختيار لمدرسيها ومن النواحي المادية المتعلقة بها حتى تؤدي رسالتها على أكمل وجه، (وقد ساعدت هذه المدارس على نشر الثقافة والعلم، وأمدت أجهزة الدولة بالعناصر المتعلمة المثقفة، والتي كان لانضمامها إلى جهاز الدولة آثاره البعيدة على دقة التنظيم، كما أن هذه المدارس قد أمدت المدارس التي أنشئت فيما بعد بعناصر مؤهلة من العلماء والأساتذة الكبار، قدم بعضهم من بلاد الأندلس والمغرب حيث تلقوا علومهم في المدارس النظامية، ثم رجعوا إلى بلادهم للتدريس في المساجد والمدارس التي ظهرت هناك، أضف إلى ذلك أنه قد ظهر من بين أساتذة النظاميات رجال فكر عظماء أثروا المكتبة الإسلامية بعدد كبير من المؤلفات في علوم الشريعة واللغة والأدب والتاريخ والمنطق والجدل)^(٣).

أشهر من تولى التدريس بالمدارس النظامية :

اهتم الوزير نظام الملك بالأساتذة الذين يدرسون بالمدارس النظامية اهتماماً كبيراً (وكان اختيار الأساتذة للتعليم في النظاميات يجرى وفق تقاليد تشبه أرقى الجامعات الحديثة، فقد كان النظام يختبر معلوماتهم خلال المناظرات التي كان يعقدها في المناسبات المختلفة، ويلقى عليهم أسئلة كان قد فكر وأعدّها، فإذا لمس في أحدهم علماً وذكاء وجهه إلى المسلك الذي يريده، فالذين يكونون أهلاً للتعليم عينهم أساتذة

(١) انظر أثر الحضارة السلجوقية ١/١٣٠.

(٢) انظر نظام الوزارة في الدولة العباسية ص ١٦٠.

(٣) انظر الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ص ٢٦٢.

في الحال، وأسس لهم مدرسة وكتبة أو يوفدهم إلى ولاية سكانها جهلاء^(١)، وقد تولى التدريس بالنظاميات علماء أجلاء كانوا على درجة كبيرة من العلم والمعرفة وإليك بعضهم:

- (١) إبراهيم بن علي يوسف الفيروز أبادي (أبو إسحاق الشيرازي) (ت ٤٧٦هـ/١٠٨٣م): صاحب «التنبيه»، و«المهذب في الفقه»، و«النكت في الخلاف»، و«اللمع وشرحه»، و«التبصرة في أصول الفقه»، و«الملخص»، و«المعونة في الجدل»، و«طبقات الفقهاء»، و«نصح أهل العلم»، وغير ذلك؛ بنى له الوزير نظام الملك المدرسة النظامية ببغداد، فتولى التدريس بها بعد تمنع شديد، في يوم السبت، مستهل ذي الحجة سنة ٤٥٩هـ^(٢).
- (٢) عبد الملك بن عبد الله بن يوسف، أبو المعالي الجويني، الملقب بإمام الحرمين

(١) انظر نظام الملك ص ٣٥٦.

(٢) ولد الشيخ بفيروز أباد وهي بليدة بفارس سنة ٣٩٣هـ ونشأ بها، ثم دخل شيراز وقرأ الفقه على أبي عبد الله البيضاوي وعلى ابن رامين صاحبي أبي القاسم الداركي، ثم دخل البصرة وقرأ الفقه بها على الخريزي، ثم دخل بغداد في سنة ٤١٥هـ، وقرأ على القاضي أبي الطيب الطبري، ولازمه واشتهر به، وصار أعظم أصحابه، ومعيد درسه، وقرأ الأصول على أبي حاتم القزويني، وقرأ الفقه على الزجاجي، وما برح يجهد حتى صار أنظر أهل زمانه، وفارس ميدانه، والمقدم على أقرانه، وانتشر صيته في البلدان ورحل إليه في كل مكان، وروى عن الخطيب، وأبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي، وأبو الحسن بن عبد السلام، وأبو القاسم بن السمرقندي، وأبو البدر الكرخي، وغيرهم، وكان أبو بكر الشاشي يقول الشيخ الشيرازي حجة الله على أئمة العصر، وقال أبو الحسن الماوردي صاحب الحاوي: وقد اجتمع بالشيخ وسمع كلامه في مسألة ما رأيت كأبي إسحاق لو رآه الشافعي لتجمل به، وقال الموفق الحنفي: أبو إسحاق إمام المؤمنين في الفقهاء، وكان عميد الدولة بن جهير: يقول هو وحيد عصره وفريد دهره مستجاب الدعوة، توفي ليلة الأربعاء في ٢١ من جمادى الآخرة سنة ٤٧٦هـ، ودفن بمقبرة باب حرب.

انظر ترجمته في طبقات الشافعية الكبرى ٢١٥/٤-٢٥٦.

(ت ٤٧٨هـ/١٠٨٥م)^(١).

(٣) على بن أبي يعلى بن زيد، الشيخ أبو القاسم الدبوسي (ت ٤٨٠هـ/١٠٨٧م)^(٢).

(٤) عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب بن عبد الواحد، أبو محمد الشيرازي الفارسي (ت ٥٠٠هـ/١١٠٧م)^(٣).

(١) من أهل نيسابور، وجوين قرية من قرى نيسابور، ولد سنة ٤١٩هـ، وتفقّه في صباه على والده وله دون العشرين سنة، فأقعدته مكانه للتدريس فأقام التدريس، وسمع الحديث الكثير في البلاد، وفي بغداد من أبي محمد الجوهري، وروى عنه زاهر بن طاهر الشحامي، وخرج إلى الحجاز فأقام بمكة أربع سنين، وعاد إلى نيسابور فجلس للتدريس ثلاثين سنة، وقد سلم إليه التدريس، وكان يحضر درسه كل يوم نحو ثلاثمائة، وتخرج به جماعة من الأكابر، حتى درسوا في حياته، وصرف أكثر عنايته في آخر عمره إلى تصنيف الكتاب الذي سماه: نهاية المطلب في دراية المذهب، وكان الشيخ أبو إسحاق يقول له: أنت إمام الأئمة، وكان الجويني قد بالغ في الكلام، وصنف الكتب الكثيرة فيه، ثم رأى أن مذهب السلف أولى، فروى عنه أبو جعفر الحافظ أنه قال: ركبت البحر الأعظم، وغصت في الذي نهى عنه أهل الإسلام كل ذلك في طلب الحق، وكنت أهرب في سالف الدهر من التقليد، والآن فقد رجعت عن الكل إلى كلمة الحق، عليكم بدين العجائز، فإن لم يدركني الحق بلطف بره وإلا فالويل لابن الجويني، توفي ليلة الأربعاء ٢٥ من ربيع الآخر سنة ٤٧٨هـ، عن ٥٩ سنة، ونقل في ليلته إلى البلد، ودفن في داره، ثم نقل بعد سنين إلى مقبرة الحسين فدفن إلى جانب والده، وكان أصحابه المقتبسون من علمه نحو أربعمائة يطوفون في البلد وينوحون عليه.

انظر في ترجمته: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٦/٢٤٤-٢٤٧.

(٢) من أهل دبوسية، وهي بلدة بين بخارى وسمرقند، كان إماماً عالمياً، أقدمه الوزير نظام الملك إلى بغداد للتدريس في مدرسته النظامية، وكان عارفاً بالفقه والجدل والمناظرة، ومات ببغداد في شعبان سنة ٤٨٢هـ.

انظر في ترجمته: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٥/١٢٧.

(٣) سمع الحديث الكثير وتفقّه، ولاة نظام الملك التدريس بمدرسته ببغداد سنة ٤٨٣هـ، فبقي بها مدة يدرس ويملى الحديث، توفي في رمضان سنة ٥٠٠هـ.

انظر ترجمته في: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٧/١٠٤.

(٥) علي بن محمد بن علي بن عماد الدين، أبو الحسن الطبري، ويعرف بالكنية الهراسي (ت ٥٠٤هـ/١١٠م)^(١).

(٦) محمد بن محمد بن محمد أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ/١١١م)^(٢).

(١) أحد الفقهاء الكبار، من رؤوس الشافعية، ولد سنة ٤٥٠هـ، واشتغل على إمام الحرمين، وكان هو والغزالي أكبر التلامذة، وقد ولي كل منهما تدريس النظامية ببغداد، وقد كان أبو الحسن هذا فصيحاً جهوراً الصوت جميلاً، وكان يكرر لعن إبليس على كل مرقاة من مراقي النظامية بنيسابور سبع مرات، وكانت المراقبي سبعين مرقاة، وقد سمع الحديث الكثير، وناظر وأفتى ودرس، وكان من أكابر الفضلاء وسادات الفقهاء، وله كتاب يرد فيه على ما انفرد به الإمام أحمد بن حنبل في مجلد، وله غيره من المصنفات، وقد اتهم في وقت بأنه يمالئ الباطنية، فنزع منه التدريس ثم شهد جماعة من العلماء ببراءته من ذلك منهم ابن عقيل، فأعيد إليه، توفي في يوم الخميس مستهل محرم سنة ٥٠٤هـ، عن ٥٤ سنة ودفن إلى جانب الشيخ أبي إسحاق الشيرازي.

انظر ترجمته في: البداية والنهاية ١٢/١٧٢، ١٧٣.

(٢) ولد سنة خمسين وأربعمائة، وتفقّه على أبي المعالي الجويني، وبرع في النظر في مدة قريبة، وقاوم الأقران وتفقّه وتوّحد، وصنف الكتب الحسان في الأصول والفروع التي انفرد بحسن وضعها وترتيبها وتحقيق الكلام فيها، ووقع له القبول من نظام الملك، فرسم له التدريس بمدرسته ببغداد، فدخل بغداد في سنة أربع وثمانين ودرس بها وحضره الأئمة الكبار كابن عقيل وأبي الخطاب، ثم إنه ترك التدريس والرياسة، ولبس الخام الغليظ، ولازم الصوم، وكان لا يأكل إلا من أجرة النسخ، وحج وعاد ثم رحل إلى الشام، وأقام ببيت المقدس ودمشق مدة يطوف المشاهد، وأخذ في تصنيف كتاب الإحياء في القدس، ثم أتمه بدمشق إلا أنه وضعه على مذهب الصوفية، وترك فيه قانون الفقه، ثم عاد إلى وطنه مشتغلاً بتعبده، فلما صارت الوزارة إلى فخر الملك أحضره وسمع كلامه وألزمه بالخروج إلى نيسابور، فخرج ودرس، ثم عاد إلى وطنه واتخذ في جواره مدرسة ورباطاً للصوفية، وبنى داراً حسنة، وغرس فيها بستاناً، وتشاغل بحفظ القرآن وسمع الصحاح، توفي أبو حامد يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة ٥٠٥هـ، بطوس، ودفن وسأله قبيل الموت بعض أصحابه: أوص، فقال: عليك بالإخلاص، فلم يزل يكررها حتى مات.

انظر المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٧/١٢٤، ١٢٧.

(٧) محمد بن أحمد بن الحسين الشاشي، أبو بكر (ت ٥٠٧/١١١٣م)^(١).
وغير هؤلاء الكثير وما ذكرته فعلى سبيل القصر لا الحصر، فهذه نبذة وجيزة
لبعض العلماء الذين تولوا التدريس بالمدارس النظامية في العصر السلجوقي، ومما
تجدر الإشارة إليه أنه كانوا جميعاً علماءً أفاضلاً عرفوا بالورع والتقوى والإخلاص،
فخرجوا لنا علماء تولوا التدريس فيما بعد بالمدارس النظامية في أنحاء المشرق
الإسلامي ونشروا العلوم الإسلامية في أرجاء المعمورة.

٤ - أثر وسيلة المدارس النظامية في الدعوة الإسلامية :

كان لوسيلة المدارس النظامية في العصر السلجوقي أعظم الأثر، وذلك لأن العلم
والثقافة الإسلامية انتشرت بين الناس، والتعلم والقراءة هما أول نداء نادى به الحق
تبارك وتعالى لنبيه ﷺ قال تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(٢).

والحق أن إنشاء نظام الملك للمدارس النظامية وانتشارها في المشرق الإسلامي قد
حقق الغرض من إنشائها، وأثمر نتائج إيجابية حققت أهداف نظام الملك والقائمين
على السلطة في الدفاع عن الشريعة والعقيدة ومواجهة الباطنية باستخدام سلاح
العلم^(٣).

وأدت كذلك المدارس النظامية رسالتها من تخريج العلماء على المذهب السني

(١) أحد أئمة الشافعية في زمانه، ولد في المحرم سنة سبع وعشرين وأربعمائة، وسمع الحديث على
أبي يعلى بن الفراء، وأبي بكر الخطيب، وأبي إسحاق الشيرازي، وتلقاه عليه وعلى غيره، وقرأ
الشامل على مصنفه ابن الصباغ، واختصره في كتابه الذي جمعه للمستظهر بالله، وسماه حلية
العلماء بمعرفة مذاهب الفقهاء، ويعرف بالمستظهرى، وقد درس بالنظامية ببغداد ثم عزل عنها،
توفي سحر يوم السبت السادس عشر من شوال سنة ٥٠٧هـ، ودفن إلى جانب أبي إسحاق
الشيرازي بباب إبرز.

انظر في ترجمته: البداية والنهاية ١٢/١٧٧، ١٧٨.

(٢) سورة العلق آية ١.

(٣) انظر الحياة العلمية في المشرق الإسلامي ص ٢٦٢.

وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١﴾.

٢ - الاهتمام بطلاب العلم:

إذا كان الاهتمام بالعلم والعلماء هو السبيل الأول للإرتقاء بالمدارس، وجعلها وسيلة من وسائل الدعوة، فلا يقل عن ذلك أهمية الاهتمام بالطالب الذي يتلقى العلم، الاهتمام به علمياً، ومادياً، ونفسياً، وأدبياً، ورياضياً، ولا ننسى أنه معلم المستقبل فالاهتمام به يضمن للدولة الإسلامية أن ترتقى في المستقبل، فالحفاظ على تقدم الأمم يأتي من الاهتمام بحاضرها، ولنا في الدولة السلجوقية أسوة، فقد اهتم نظام الملك اهتماماً كبيراً بالطلاب فوفر لهم السكن والمأكل والمشرب، بل كان يعينهم بالمال، فأنت المدارس في عصره وفي العصور التالية الأهداف التي أنشئت من أجلها.

٣ - الاهتمام بمناهج التعليم:

كذلك من أهم المحاور الرئيسية للاهتمام بالمدارس وجعلها وسيلة من وسائل الدعوة، هو الاهتمام بمناهج التعليم، ويتمثل ذلك في مراعاة التقدم العلمي والذي يسير بخطى سريعة في العصر الحاضر، وتقديم المعلومة للطالب في أسلوب مبسط يتفق وعقليته، وكذلك الارتقاء بمستوى الطالب تدريجياً من خلال مناهج دراسية متكاملة على مدار سنوات الدراسة، حتى يتخرج الطالب من كل مرحلة وقد اكتسب أداة التعلم، وأصبح بعد ذلك عضواً فاعلاً يؤثر ويتأثر بكل ما يدور حوله من أحداث، وما يستجد من وقائع.

٤ - الاهتمام بأماكن التعليم:

إن الاهتمام بالمكان الذي يتلقى فيه الطالب العلم، عامل مهم جداً له أهميته في تحصيل الطلاب للمادة التي تلقى عليهم، وفي استعدادهم لتلقيها، فيجب على الدول الإسلامية أن تراعى النظم الحديثة في بناء المدارس والمعاهد والجامعات، وأن تهتم بالمساحات الخضراء فيها، وكذلك ملاعب الرياضة بها، حتى تخرج لنا جيلاً متكاملًا

(١) سورة آل عمران آية ١١٠.

من الناحية التربوية، والنفسية، والعقلية، والرياضية، لأن هذا هو الجيل الذى سيتحمل عبء الدعوة إلى الله تعالى في المستقبل.

٥ - الاهتمام بصحة العلماء والتلاميذ :

لا يخفى علينا أن الجسم العليل لا يقدم شيئاً يذكر في بناء أمة، أراد الله تعالى لها أن تكون خير أمة أخرجت للناس، لذلك لا بد أن يكون من أهم أولويات الدول الإسلامية في العصر الحديث، أن تهتم بصحة العلماء والتلاميذ وأسراهم من خلال البطاقات الصحية، ويسبق ذلك أن تهتم بالمستشفيات التي تتلقى المرضى.

وبعد هذا العرض يبق سؤال: ما الجديد الذى أضافته الدولة السلجوقية للعلم والعلماء؟

إن الجديد الذى أضافته الدولة السلجوقية للعلم والعلماء، أنها أعطت للدول الإسلامية في العصر الحديث، نموذجاً ناجحاً لكيفية إدارة العملية التعليمية، من حيث إنشاء المباني والذى أقيم على أحدث ما وصل إليه فن المعمار في العصر السلجوقى من حيث اختيار أفضل عناصر التدريس لمراحل التعليم المختلفة في هذه المدارس، ومن حيث إيجاد سكن ملائم للمغتربين الذين يتلقون العلم في هذه المدارس، وأكبر إضافة أنها رفعت من قدر العلماء فكان سلاطين الدولة السلجوقية يجلون العلماء أيما إجلال.



المبحث السادس

الرحلات العلمية وأثرها الدعوى وكيفية الاستفادة منها في العصر الحاضر

١ - ترغيب الشريعة الإسلامية في الرحلات العلمية :

تميز علماء المسلمين في العصور الأولى برحلاتهم العلمية، وكانت هذه الرحلات تمتد لسنوات، فلا يأبه لهذا، فالهدف أمامه هو طلب العلم وأخذه عن شيوخه أينما كانوا، وقصص علمائنا في هذا المجال كثيرة لا تعد ولا تحصى، فكان سعيد بن المسيب يسافر الأيام في طلب الحديث الواحد، وكان الشعبي رَحِمَهُ اللهُ تعالى يقول: لو سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمن في كلمة تدل على هدى أو ترده عن ردى ما كان سفره ضائعاً^(١).

وعلماء الدولة السلجوقية كانوا كغيرهم من علماء الأمة الإسلامية يطلبون العلم من كل مكان، مهما كلفهم ذلك من جهد ومال، وترك لزوجات وعيال، وهم في هذا وسيلة متنقلة من وسائل الدعوة أينما حلوا، فهم دعاة إلى دين الله عز وجل يفيدون ويستفيدون، يعلمون ويتعلمون، ولا عجب في هذا فهم إنما استقوا ذلك من كتاب ربهم الذى بين مكانة العلماء وحث على طلب العلم.

وقد وردت آيات قرآنية كثيرة وأحاديث نبوية تدل على منزلة طلب العلم والارتحال من أجل تحصيله.

فمن الآيات التي حثت على طلب العلم :

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ

(١) انظر طه عبد الله عفيفي: من وصايا الرسول ﷺ ١٥/٢، ط دار الاعتصام.

لَيْتَفَّهُوْا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١﴾.

وقال تعالى: ﴿بِأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَأَتَسَّحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢﴾.

وقص الله تعالى علينا قصة سيدنا موسى عليه السلام ورحلته في طلب العلم، وكيف أنه قطع المسافات الطوال من أجل التعلم من عبد صالح هو الخضر عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ ... فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٣﴾.

ونفهم من سياق القصة فيما بعد أنه كان لموسى عليه السلام هدف من رحلته هذه التي اعتزمها، وأنه كان يقصد من ورائها أمراً، فهو يعلن تصميمه على بلوغ مجمع البحرين مهما تكن المشقة، ومهما يكن الزمن الذي ينفقه في الوصول، وهو يعبر عن هذا التصميم بما حكاه القرآن من قوله: {أو أمضي حقباً} والحقب قيل عام، وقيل ثمانون عاماً، على أية حال فهو تعبير عن التصميم، لا عن المدة على وجه التحديد^(٤).

وهذه القصة من قصص القرآن تدل على فضل طلب العلم، والارتحال في سبيل تحصيله، والصبر حتى يبلغ المتعلم مراده من تحصيل العلم.

ومن السنة النبوية المطهرة:

فعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ فَهُوَ فِي

(١) سورة التوبة آية ١٢٢.

(٢) سورة المجادلة آية ١١.

(٣) سورة الكهف الآيات ٦٠ - ٦٥.

(٤) انظر الأستاذ سيد قطب: في ظلال القرآن ٢٢٧٨/٤، ط دار الشروق، السادسة عشرة سنة

سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يَرْجِعَ»^(١)، وقوله ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»^(٢).
وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ ﷺ: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَوَضِعُ الْعِلْمِ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ كَمَقْلَدِ الْخَنَازِيرِ الْجَوْهَرَ وَاللُّؤْلُؤَ وَالذَّهَبَ»^(٣).

٢ - الرحلات العلمية في عهد الدولة السلجوقية :

ارتحل علماء الدولة السلجوقية في نواحي بلاد الإسلام، إما طلباً للعلم أو تعليمه، وذلك من أجل نشر الدعوة الإسلامية، وبقظة الحركة الفكرية.

ولعل خير مثال على ذلك:

- (١) أبو بكر الخطيب أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٠م^(٤): الذي رحل في طلب العلم إلى البصرة ونيسابور وأصبهان وهمدان والشام والحجاز^(٥).
- (٢) أبو المعالي الجويني عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الملقب بإمام الحرمين المتوفى سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م^(٦): والذي تفقه على والده وله دون العشرين سنة، فأقعدته مكانه للتدريس فقام به أحسن قيام، وسمع الحديث الكثير في البلاد، وفي

(١) أخرجه الإمام الترمذى في سننه ٢٩/٥، كتاب العلم عن رسول الله ﷺ، باب فضل طلب العلم، ح رقم ٢٦٤٧.

(٢) أخرجه الإمام البخارى في صحيحه ٣٩/١، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ح رقم ٧١.

(٣) أخرجه الإمام ابن ماجه في سننه ٨١/١، كتاب المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، ح رقم ٢٢٤، الإمام محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني: سنن ابن ماجه، ط دار الريان، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

(٤) سبقت ترجمته ص ١٦٣.

(٥) انظر البداية والنهاية ١٠١/١٢ - ١٠٣.

(٦) سبقت ترجمته ص ١٩٥.

- بغداد من أبي محمد الجوهري، وخرج إلى الحجاز فأقام بمكة أربع سنين^(١)، وعاد إلى نيسابور فجلس للتدريس ثلاثين سنة^(٢).
- (٣) محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله بن حميد أبو عبد الله الحميدي الأندلسي المتوفى سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م: سمع الحديث بالأندلس، ورحل في طلبه بمصر ومكة والشام وورد بغداد فسمع من أصحاب الدارقطني وابن شاهين^(٣).
- (٤) عبد الكريم بن محمد بن أبي المظفر المنصور عبد الجبار السمعاني المروزي المتوفى سنة ٥٠٦هـ/١١١٢م^(٤).
- (٥) أبو الفضل محمد بن طاهر بن علي بن أحمد الشيباني المقدسي الحافظ القيسراني المتوفى سنة ٥٠٧هـ/١١١٣م: والذي رحل في طلب الحديث إلى القدس، وبغداد ونيسابور وهراة وأصبهان وشيراز والرى ودمشق ومصر^(٥).
- وغير هؤلاء الكثير من العلماء الذين ارتحلوا خدمة لدين الله، بتعلم آياته وأحاديث نبيه ﷺ، وهم في هذا مركزاً متنقلاً من مراكز التعليم ووسيلة هامة من وسائل الدعوة الإسلامية.

وهكذا كانت الرحلات العلمية في عهد الدولة السلجوقية لا تتوقف، (لأن التعلم

-
- (١) ذكر ابن الأثير أن إمام الحرمين خرج إلى مكة هرباً وذلك عندما أمر الوزير عميد الملك الكندري بلعن الأشعرية على المنابر بجانب الرافضة. انظر الكامل في التاريخ ١٠/٢٠٩.
- (٢) انظر المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٦/٢٤٤ - ٢٤٧.
- (٣) انظر المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٧/٢٩، الكامل في التاريخ ١٠/٢٥٤.
- (٤) الفقيه الشافعي الحافظ المحدث، قوام الدين أحد الأئمة المصنفين رحل وسمع الكثير حتى كتب عن أربعة آلاف شيخ، وصنف التفسير والتاريخ والأنساب والذيل على تاريخ الخطيب البغدادي، وذكر له ابن خلكان مصنفات عديدة جداً، منها كتابه الذي جمع فيه ألف حديث عن مائة شيخ، وتكلم عليها إسناداً ومتناً، توفي سنة ٥٠٦هـ.
- انظر ترجمته في: البداية والنهاية ١٢/١٧٥.
- (٥) انظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٦/٣٠.

والتعليم روح الإسلام، لا بقاء لجوهرة، ولا كفالة لمستقبله إلا بهما، والناس في نظر الإسلام أحد رجلين: إما متعلم يطلب الرشد، وإما عالم يطلب المزيد، وليس بعد ذلك من يؤبه له^(١).

٣- أثر الرحلات العلمية في الدعوة في عهد الدولة السلجوقية:

كان لهذه الوسيلة أثر عظيم في الدعوة الإسلامية فهي:

- (١) إحياء لسنة النبي ﷺ في الهجرة والتنقل من بلد إلى بلد نشرًا لدين الله، فالنبي ﷺ هاجر من مكة إلى المدينة المنورة لنشر الإسلام والعلماء في ترحالهم من بلد إلى بلد لتلقى العلم إنما هو إحياء لهذه السنة التي غابت في عصرنا الحاضر.
- (٢) انتشار الإسلام في كل مكان حل فيه هؤلاء العلماء، فبجانب تلقيهم للعلم هم يعلمون ويدعون الناس إلى الإسلام الصحيح.
- (٣) ازدهار الحركة الفكرية في العصر السلجوقي في كل المجالات، وهذا أثر من آثار الرحلات العلمية، وذلك: (لأن العلماء وطلاب العلم كانوا ينتقلون بين المدن الإسلامية طلباً للعلم، حتى إذا استقر بهم المقام في بلد ما صنفوا المصنفات القيمة)^(٢)، مما كان له أكبر الأثر في إثراء الحركة الفكرية وكثرة الكتب المؤلفة في كل العلوم.
- (٤) وللرحلات العلمية أيضاً فضل كبير في إعداد العالم الذي يحمل عبء الدعوة إلى الله عز وجل، وفي تنمية ملكاته العلمية، (والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون من المذاهب والآراء والفضائل تارة علماء وتعليماً وإلقاءً، وتارة محاكاةً، وتلقيناً بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن

(١) انظر الشيخ محمد الغزالي: خلق المسلم ص ٢٠٤، ط نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الثانية عشر سنة ٢٠٠٧م.

(٢) انظر الدول الإسلامية المستقلة في المشرق الإسلامي ص ٢٩٦.

المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها^(١)، وهذا له أثر كبير على انتشار علوم الدعوة الإسلامية، لأن العلماء هم أداة وصول العلم إلى المجتمع.

(٥) وللرحلة في طلب العلم هدف أسمى وهو إحياء لمعنى التضحية في سبيل تحصيل العلم، فهؤلاء العلماء قطعوا الأميال تاركين الأهل والمال وهذا كله إرضاء لله، ونشراً لدينه، ورفعاً لرايته خفاقة، مما كان لذلك أكبر الأثر على الدعوة الإسلامية.

كيفية الاستفادة من وسيلة الرحلات العلمية في العصر الحاضر:

باستطاعة الأمة الإسلامية أن تستفيد من وسيلة الرحلة العلمية في إرسال بعثات مختلفة إلى بلاد الغرب للتعلم في مجالات العلم المختلفة، ليكون ذلك سبباً في تقدم أمتنا العلمية، فالعلم ليس مقصوراً على العلم الشرعي، ولكن كل العلوم التي تستفيد منها البشرية حث عليها الإسلام، والباحث الذي بدوره يتعلم يستطيع أن يكون داعياً إلى الله تعالى في بلاد تحتاج للإسلام بعدما غرقت في ظلمات المادة.

فبجانب التعلم نستطيع أن نستفيد من وسيلة الرحلة العلمية في نشر الإسلام بين الغرب، وأن نحقق بذلك نتائج طيبة تعود بالنفع على الإسلام والمسلمين.



(١) انظر الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ص ٢٤٨.

المبحث السابع

المكتبات وأثرها الدعوى وكيفية الاستفادة منها في العصر الحاضر

١ - الإسلام وأثره في ظهور المكتبات :

إن وجود المكتبات في المجتمع المسلم من أهم وسائل الدعوة، والتي يعول عليها في نشر الدعوة الإسلامية، وتكوين الشخصية الإسلامية الصحيحة التي تقوم على الفهم الدقيق والعميق لمفاهيم الدين الحنيف، ومن ثم تكوين المجتمع المسلم القائم على العلم والذي يهدف من ورائه إلى التقدم والرقى في كل مجالات الحياة، وليس هناك دين يحث على طلب العلم أكثر من الدين الإسلامى، فأول الآيات نزولاً على الرسول ﷺ كان فيها دعوة صريحة للقراءة، والعلم، والمعرفة، قال الله تعالى ﷻ

﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^(١)، وهذه أول وصية تسمو بقدر القلم وتتوه بقيمة العلم، وتعلن الحرب على الأمية الغافلة، وتجعل اللبنة الأولى في بناء كل رجل عظيم أن يقرأ وأن يتعلم، وسما الله عز وجل بدرجات العلماء حتى قرنهم بنفسه وملائكته في الشهادة بوحديته والإقرار بعدالته قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۗ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢)، ولا غرو، فأنى للعقول الكليلة والمعارف الضيقة أن تدرك جلال الكبير المتعال؟ وأنى لمن يعيش على هامش الحياة بجهله وظلمته أن يعرف الحق عن رب الحياة، أو يلمح طرفاً من صفاته العظمى وآياته الكبرى^(٣).

(١) سورة العلق الآيات ٥: ١.

(٢) سورة آل عمران آية ١٨.

(٣) انظر خلق المسلم ص ١٩٨، ١٩٩.

كما أن نشأة المكتبات الإسلامية تزامنت مع نشأة المساجد، ومن ثم دارت في فلكها وعملت على تحقيق أهدافها الدينية، المتمثلة في تكوين الشخصية الإسلامية، وتعليم الناس أمور دينهم وتثقيفهم ثقافة دينية، وبناء المجتمع الإسلامي الفاضل القائم على الأخلاق والتقوى والصلاح والعلم، وهذا أمر طبيعي طالما أن الإسلام يدعو إلى العلم ويقدر قيمة العلماء^(١).

وينعكس مدى اعتزاز الإسلام والمسلمين بالعلم والعلماء أيضاً فيما خلدهته المصادر من معلومات مفصلة عن خزانات الكتب التي أولاها المسئولون عن الإدارة الإسلامية وكذلك مختلف أبناء الأمة من اهتمام ورعاية في سبيل تيسير المعرفة، عن طريق إنشاء دور الكتب التي أصبحت شائعة حتى أنه ليندر أن تخلو مدرسة أو مسجد جامع أو مستشفى أو غير ذلك من معاهد العلم دون أن تجد بها مكتبة عامرة ملحقة بها، هذا بجانب الخزائن الخاصة التي يؤسسها الخلفاء والأمراء والوزراء وكبار المسئولون والعلماء، والتي يكون الإنفاق عليها على حسابهم الخاص، وكان يقوم على هذه المكتبات مشرفون وخزنة وخدمة للقيام بمختلف الأعمال اللازمة لإدارتها والإشراف عليها والإفادة من خدماتها المختلفة، وكان الكثير منها مزوداً بالورق والحبر في قاعات رتب لتصبح مواضع للمطالعة، وفي أحيان أخرى للنسخ والتعليم، ولم تخل مكتبة من هذه المكتبات من فهرس يرجع إليها لتسهيل طلب أو استخراج أو استعمال مجموعاتها من الكتب المخزونة فيها، وكانت الفهارس عادة غاية في التنظيم يشرف على إعدادها وتطويرها خزنة المكتبة ومديروها^(٢).

وهكذا كان لتعاليم الإسلام أثر في نشأة المكتبات بالدعوة الصريحة إلى تلقي العلم، واهتمام الدول الإسلامية على مر العصور بجعل هذا الأمر الإلهي واقعاً ملموساً وتمثل ذلك في اهتمامهم بإنشاء المكتبات وكذلك تزويدها بأنفس الكتب،

(١) انظر د/حامد الشافعي دياب: الكتب والمكتبات في الأندلس ص ١٢٧.

(٢) انظر الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ص ١٩٢، ١٩٣.

والاهتمام بكل ما يتعلق بها من أمور تساعد على البحث والدراسة فيها، والدولة السلجوقية إحدى هذه الدول التي اهتمت بإنشاء المكتبات حرصاً منها على نشر العلم، وجعل هذه المكتبات وسيلة من وسائل الدعوة الإسلامية.

٢ - المكتبات في عهد السلاجقة:

لقد أدرك السلاجقة أهمية المكتبات كوسيلة من وسائل الدعوة الإسلامية، وأيضاً كوسيلة من وسائل ازدهار الحركة الفكرية، سواء كانت مكتبات عامة أو خاصة.

أولاً: المكتبات العامة:

انتشر هذا النوع من المكتبات في العصر السلجوقي، سواء كانت مكتبات لها بناء مستقل أو مكتبات ملحقة بالمساجد والمدارس والأربطة، وتعتبر المكتبات الملحقة بالمساجد والمدارس من أشهر المكتبات العامة في هذا العصر.

فلقد شاهد ياقوت الحموي في رحلاته في خراسان مكتبات هائلة وخصوصاً في مرو، شجعتة على الاستقرار فيها للقراءة والاطلاع، منها مكتبة ملحقة بالمسجد تسمى العزيزية، نسبة إلى عزيز الدين أبو بكر الزنجاني قاضي السلطان سنجر، وتضم المكتبة اثني عشر ألف مجلد^(١).

أما بغداد فقد انتشرت فيها خزائن الكتب الملحقة بالمساجد، فمن ذلك خزنة كتب الوقف بمسجد الزيدي ببغداد، والتي وقفها الشريف أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الزيدي، ويذكر سبط بن الجوزي أنه اشترى داراً بدرج دينار الصغير ببغداد، وبنائها مسجداً واشترى كتباً ووقفها على المسجد لينتفع الناس بها^(٢).

أما خزائن الكتب الملحقة بالمدارس النظامية فهي كثيرة، فإن نظام الملك ألحق بكل واحدة منها مكتبة عامرة بنفائس المخطوطات ونوادير المؤلفات في العلم والأدب، وقد نمت هذه المكتبات وبخاصة المكتبة التابعة لنظامية بغداد حتى بلغت بعد قرن

(١) انظر الدول الإسلامية المستقلة في المشرق الإسلامي ص ٢٩٨.

(٢) انظر الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ص ١٩٩.

من وفاة نظام الملك ستة آلاف مجلد كما أخبرنا ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م عندما نظر في ثبت الكتب الموقوفة فقط، وكانت مثلها مكتبة النظامية بنيسابور وأصبهان ومرو^(١)، إلى غير ذلك من المكتبات العامة والتي كانت منتشرة بكثرة في العصر السلجوقي.

ثانياً: المكتبات الخاصة:

وهي تلك المكتبات التي كونها الخلفاء والوزراء والعلماء الذين لهم قدرة على شراء الكتب واقتنائها، وبالرغم من أنها كانت مكتبات خاصة إلا أن أصحابها حرصوا على أن يستفيد منها طلاب العلم، وكثيراً ما كانوا يوقفون كتبهم هذه على المساجد والمدارس والأربطة وغيرها من دور العلم والعبادة في هذا العصر، ومن أمثلة هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر.

الخليفة القائم بأمر الله العباسي كان له خزانة كتب اشتملت على كتب نفيسة، كما كان للخليفة العباسي المقتدى بأمر الله خزانة كتب نفيسة أيضاً^(٢)، والوزير عميد الملك الكندري كانت له مكتبة، اختار بعض كتبها من مكتبة أردشير الوزير لما وقع حريق بغداد سنة ٤٥١ هـ وكان بها عشرة آلاف مجلد وأربعمائة من أصناف العلوم^(٣). أما الوزير نظام الملك فقد كانت له مكتبة خاصة أشاد بها ياقوت الحموي وهو في أثناء رحلته في خراسان، وقال عنها: «وكننت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها، وأنساني حبها كل بلد، وألهاني عن الأهل والولد، وقد جمع مادته العلمية عن مؤلفاته من هذه المكتبة»^(٤).

ولم يكن العلماء أقل حالاً في اقتناء الكتب من الخلفاء والوزراء، فهذا هو عبد

(١) انظر نظام الملك ص ٣٩٣، ٣٩٤.

(٢) انظر تاريخ العراق والمشرق الإسلامي خلال العصر السلجوقي الأول ص ٢٦٢، ٢٦٣.

(٣) انظر الكامل في التاريخ ١٠/٧.

(٤) انظر الدول الإسلامية المستقلة في المشرق الإسلامي ص ٢٩٩.

السلام بن بNDAR القزوينى يقول: «ملكتم ستمين تقسيراً، منها تقسير ابن جرير الطبرى فى أربعين مجلداً، وتفسير أبى القاسم البلخى، وأبى على الجبائى، وابنه أبى هاشم، وأبى مسلم بن بحر وغيرهم»^(١).

والخطيب البغدادى كان يملك مكتبة ضخمة أوقفها على المسلمين^(٢)، ويقوت الحموى كان يملك مكتبة أوقفها على مسجد الزيدى بدر بن دينار ببغداد^(٣).

هكذا كانت المكتبات العامة والخاصة فى العصر السلجوقى، مصدر إشعاع ونور، ومقصداً لتلقى العلوم من أمهات الكتب الموجودة بهذه المكتبات، وخاصة المكتبات الملحقة بالمدارس النظامية، والتي أنشأها النظام على غرار إنشاءه للمدارس النظامية، فكانت هذه المكتبات قبة كل عالم فى جميع أرجاء العالم الإسلامى.

٣ - أثر المكتبات فى الدعوة فى الدولة السلجوقية:

لا شك أن للمكتبات دوراً بارزاً فى نشر الدعوة الإسلامىة فى عهد السلاجقة، ويظهر ذلك من خلال عدة أمور هى:

(١) أن وجود المكتبات فى العصر السلجوقى كان له أثر كبير فى نشر الوعى الثقافى بين المسلمين، مما ساعد فى بلورة الشخصية المسلمة دينياً وثقافياً ومعنوياً ودعوىاً.

(٢) ظهور شخصيات إسلامية عريقة، والتي ساهمت بدورها فى ازدهار ونشر الدعوة فى مختلف أرجاء العالم الإسلامى.

(٣) كان لوجود المكتبات دور كبير فى تواصل طبقات المجتمع السلجوقى مع بعضه البعض، فهو مكان التقاء الخلفاء مع العلماء، والعلماء مع بعضهم البعض، ومع رواد هذه المكتبات من عامة الشعب، وهذا التواصل بين طبقات

(١) انظر طبقات الشافعية ١٢١/٥.

(٢) انظر المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ١٣٤/١٦.

(٣) انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ١٣٩/٦.

المجتمع له أثر كبير في نشر الدعوة الإسلامية.

٤) ازدهار الحركة الفكرية من خلال ظهور مؤلفات كبار العلماء في العصر السلجوقي مما جعل العالم الإسلامي في ذلك الوقت قبلة العلماء في جميع أنحاء الدنيا للتزود بالمعرفة والثقافة الإسلامية.

وغير ذلك من آثار عظيمة عادت على الدعوة الإسلامية من خلال إنشاء المكتبات سواء كانت عامة أو خاصة وتزويدها بأنفس الكتب الدينية والدينية.

كيفية الاستفادة من وسيلة المكتبات في العصر الحاضر:

من المعلوم لدينا جميعاً أن الإسلام اهتم اهتماماً كبيراً بالعلم، وحث عليه ورفع درجة العلماء فرق غيرهم من البشر، ولقد أصابتنا في العصر الحاضر عدة مصائب في التعليم، من بينها عدم اهتمام في المؤسسة التعليمية بالحث على القراءة والاطلاع، فأصبح لا يهتم بالقراءة إلا المتخصصون فقط وهذه مصيبة، وأصبح المجتمع يتلقى ثقافته من خلال التلفزيون والراديو والكمبيوتر، وأنا لا أقلل من شأن هذه الوسائل الحديثة إذا كان ما يعرض فيها مفيداً، ولكن إذا كان هناك بعض القنوات الدينية تعرض تعاليم الإسلام فإن هناك كثيراً من القنوات التي تبث ما يخالف تعاليم ديننا الحنيف، والسؤال الذي يفرض نفسه: أين المكتبات العامة ودورها في تثقيف المجتمع؟ وأين المكتبات الخاصة في بيت كل مسلم؟ لا بد أن ترجع لهذه الوسيلة الدور الذي أنيط بها: ألا وهو بث المفاهيم الصحيحة للإسلام بين المسلمين من خلال الندوات والمحاضرات التي تدور داخل أروقة هذه المكتبات، وأن نحافظ على المكتبات كوسيلة هامة من وسائل الدعوة في العصر الحديث، لنستفيد منها في بلورة الشخصية الإسلامية بلورة صحيحة وسليمة من الناحية الدينية والثقافية والسياسية والاجتماعية.

٤ - أهم الكتب التي احتوت عليها المكتبات في العصر السلجوقي:

انتسح أفق التفكير الإسلامي في عهد السلاجقة اتساعاً كبيراً، فلقد كانت ملكات علماء المسلمين في البحث والتأليف على درجة عظيمة من النضج، كنتيجة طبيعية

للنشاط العلمي، وتطوره خلال القرون السابقة، ولا سيما إلى ما أحدثه التلاحق الفكري والاحتكاك بالثقافات الأخرى، ولا سيما بعد نشاط حركة الترجمة في العصر العباسي الأول^(١).

ولقد شملت الحركة العلمية والأدبية شتى العلوم النقلية والعقلية^(٢)، أما العلوم النقلية فهي العلوم المنقولة عن السلف وليس فيها مجال للابتكار أو الاختراع، وإنما مهمة الباحث شرحها وتفسيرها، وحسن عرضها، والكشف عن جوانب الغموض فيها كعلم التفسير والفقهاء والحديث والعلوم اللغوية كالنحو والصرف والشعر بالإضافة إلى علم الكلام، أما العلوم العقلية ففيها مجال للابتكار والاختراع والتجديد بالإضافة مثل علوم التاريخ والجغرافيا والطب والكيمياء والرياضيات والفيزياء وغيرها^(٣). وإليك ذكر أهم الكتب التي ألفت في العصر السلجوقي، والتي كان لها أثر كبير في رواج الدعوة الإسلامية، وتنشيط الحركة الفكرية.

أولاً - علم التفسير وعلوم القرآن:

(١) «البسيط»، «الوسيط»، «الوجيز» في تفسير القرآن الكريم، و«أسباب النزول»: أبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي بن متويه الواحدى المتوفى سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م^(٤).

(١) انظر الحركة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ص ٣٠٩.

(٢) انظر تاريخ العراق والمشرق الإسلامي في العصر السلجوقي الأول ص ٢٦٥.

(٣) انظر د/عصام الدين عبد الرؤوف الفقى: تاريخ الفكر الإسلامي ص ٢٠٠، ط دار الفكر العربى، القاهرة سنة ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م.

(٤) كان أستاذ عصره في النحو والتفسير، ورزق السعادة في تصانيفه، وأجمع الناس على حسنها وذكرها المدرسون في دروسهم، منها «البسيط» في تفسير القرآن الكريم، «الوسيط»، «الوجيز»، ومنه أخذ أبو حامد الغزالي أسماء كتبه الثلاثة، وله «أسباب النزول»، و«التحبير في شرح أسماء الله تعالى الحسنى»، وشرح ديوان أبي الطيب المتنبى شرحاً مستوفى، وليس في شروحه مع كثرتها مثله، وكان الواحدى تلميذ الثعلبي صاحب التفسير وعنه أخذ =

(٢) «الإكسير في التفسير»: على بن فضال بن علي بن غالب التميمي المجاشعي القيرواني المتوفى سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م^(١).

(٣) التفسير الكبير المعروف بالجامع والإيضاح في التفسير: إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي أبو القاسم التيمي الأصبهاني المتوفى سنة ٥٣٥هـ/١١٤٠م^(٢).

= علم التفسير وأربى عليه، وتوفي عن مرض طويل في جمادى الآخرة سنة ٤٦٨هـ بنيسابور. انظر ترجمته في:

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٣/٣٠٣، ٣٠٤، البداية والنهاية ١٢/١١٤، الكامل في التاريخ ١٠/١٠١.

(١) ولد في القيروان، ورحل إلى العراق وطوف كثيراً حتى وصل إلى غزنة، وأقام في نيسابور ولقى فيها إمام الحرمين الجويني (ت ٤٧٨هـ)، ثم عاد إلى العراق وسكن بغداد، ودرس النحو واللغة والتفسير والتاريخ، وبرع في هذه العلوم، وكان شاعراً محسناً، من شعره في فقدان الصداقة من الناس:

وإخوان حسبتهم دروعاً فكانوها ولكن للأعداء
وخلتهم سهاماً صائبات فكانوها ولكن في فؤادى
وقالوا قد صفت منا قلوب لقد صدقوا ولكن من ودادى

من تصانيفه: الفصول في معرفة الأصول، ومقدمة في النحو، وشرح معانى الحروف، ومعارف الأدب، وأكسير الذهب في معرفة أئمة الأدب، وكتاب في العروض، والدول في التاريخ، وغير ذلك، توفي سنة ٤٧٩هـ.

انظر ترجمته في:

البداية والنهاية ١٢/١٣٤، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٦/٢٦٣، عبد السلام الترماني: أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين ٢/١٤٤، ط الأولى ١٤١١هـ/١٩٩١م. الأعلام ٣١٩/٤.

(٢) كان إماماً في التفسير والحديث واللغة والأدب، صنف في التفسير «التفسير الكبير» في ثلاثين مجلداً أسماه الجامع، وله كتاب الإيضاح في التفسير عشر مجلدات، وكتاب التفسير باللسان الأصفهاني، وكان أهل بغداد يقولون: «ما دخل بغداد بعد أحمد بن حنبل أفضل ولا =

ثانياً: الحديث وعلومه:

- (١) السنن الكبرى، ونصوص الشافعي كل في عشر مجلدات، والسنن الصغرى، والآثار: أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله بن موسى أبو بكر البيهقي المتوفى عام ٤٥٨هـ/١٠٦٥م^(١).
- (٢) الأمالي، والكفاية في علم الرواية، وشرف أصحاب الحديث، والموضح لأوهام الجمع والتفريق، والرحلة في طلب الحديث، وتقييد العلم: أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي أبو بكر الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٠م^(٢).
- (٣) «الجمع بين الصحيحين»: محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله بن حميد أبو عبد الله الحميدي الأندلسي المتوفى عام ٤٨٨هـ/١٠٩٥م^(٣).

= أحفظ منه»، توفي سنة ٥٣٥هـ.

انظر في ترجمته في:

الحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداودي المتوفى سنة ٩٤٥هـ: طبقات المفسرين ص ٨١، ٨٢، تحقيق عبد السلام عبد المعين، ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان الأولى، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٠/١٨، البداية والنهاية ١٢/٢١٧، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٦/١٧٤.

(١) ولد سنة أربع وثمانين وثلثمائة، وكان أوجد أهل زمانه في الإتيان والحفظ والفقه والتصنيف، كان فقيهاً محدثاً أصولياً، أخذ العلم عن الحاكم أبي عبد الله النيسابوري، وسمع على غيره شيئاً كثيراً، وجمع أشياء كثيرة نافعة، لم يسبق إلى مثلها، ولا يدرك فيها، من مصنفاته: الآداب وشعب الإيمان، والخلافيات، ودلائل النبوة، والبعث والنشور، وغير ذلك من المصنفات الكبار والصغار المفيدة، التي لا تسامى ولا تدانى، وكان زاهداً متقللاً من الدنيا، كثير العبادة والورع، توفي بنيسابور سنة ٤٥٨هـ.

انظر ترجمته في: البداية والنهاية ١٢/٩٤.

(٢) انظر الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ص ٣٣٠، وسبقت ترجمته ص ١٦٣.

(٣) انظر المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٧/٢٩، الكامل في التاريخ ١٠/٢٥٤.

ثالثاً: علم الفقه وأصوله:

- (١) «الحاوي»، و«الإقناع في الفقه»: على بن محمد بن حبيب أبو الحسن الماوردي المتوفى سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م^(١).
- (٢) «الكفاية في أصول الفقه»، و«العدة في أصول الفقه»: محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن الفراء، أبو يعلى المتوفى عام ٤٥٨هـ/١٠٦٦م^(٢).
- (٣) «التنبيه»، و«المهذب في الفقه»، و«النكت في الخلاف»، و«اللمع»، وشرحه، و«التبصرة في أصول الفقه»، و«طبقات الفقهاء»: إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزآبادي: أبو إسحاق الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦هـ/١٠٨٣م^(٣).
- (٤) «نهاية المطلب في دراية المذهب»، و«مختصر النهاية»، و«البرهان في أصول الفقه»، و«الورقات»، و«التلخيص في أصول الفقه»: أبي المعالي الجويني الملقب بإمام الحرمين المتوفى سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م^(٤).
- (٥) «الوسيط»، و«البسيط»، و«الوجيز»، و«الخلاصة»، و«المستصفى في أصول الفقه»، و«المنخول في أصول الفقه»، و«الماخذ في الخلافات»: أبي حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ/١١١١م^(٥).

رابعاً: اللغة والنحو والأدب:

- (١) «القانون في اللغة»: سليمان بن عبد الله بن الفتى أبو عبد الله النهرواني النحوي اللغوي المتوفى سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩م^(٦).

(١) انظر طبقات الشافعية الكبرى ٢٦٨/٥. وسبقت ترجمته ص ٤٩.

(٢) انظر الأعلام ٩٩/٦، ١٠٠. وسبقت ترجمته ص ١٧٦.

(٣) انظر طبقات الشافعية الكبرى ٢١٥/٤. وسبقت ترجمته ص ١٩٥.

(٤) انظر الأعلام ١٦٠/٦. وسبقت ترجمته ص ١٩٥.

(٥) انظر طبقات الشافعية الكبرى ٢٢٤/٦، ٢٢٥. وسبقت ترجمته ص ١٩٧.

(٦) انظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٤٠٤/٥، ٤٠٥.

- (٢) «درة الغواص في أوهام الخواص»: أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصري المتوفى سنة ٥١٦هـ/١٢٢٢م^(١).
- (٣) «المحاجة بالمسائل النحوية»، و«المفرد والمركب» في العربية، و«المستقصى في أمثال العرب»، و«صميم العربية»، و«سوائر الأمثال»: أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ/١١٤٤م^(٢).
- (٤) «شرح أدب الكاتب»، و«المعرب»، وتتمه درة الغواص تأليف الحريري صاحب المقامات، سماه «التكملة فيما يلحن فيه العامة»: أبي منصور موهوب بن أبي طاهر أحمد بن محمد بن الخضر الجواليقي البغدادي المتوفى سنة

(١) ولد سنة ست وأربعين وأربعمائة، وسمع الحديث واشتغل باللغة والنحو، وصنف في ذلك كله، وفاق أهل زمانه، وبرز على أقرانه، وأقام ببغداد وعمل في صناعة الإنشاء مع الكتابة في باب الخليفة، ولم يكن ممن تنكر بديهته ولا تتعكر فكرته وقريحته، وقد اختلف المؤرخون في تاريخ وفاته فذكروا أنها في سنة ٥١٥هـ أو ٥١٦هـ، وكانت وفاته بالبصرة.

انظر ترجمته في:

المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٧/١٤، الكامل في التاريخ ١٠/٥٩٦، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٤/٦٣-٦٨، البداية والنهاية ١٢/١٩١-١٩٣، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٦/٨١-٨٦، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٥/٢١٩، ٢٢٠.

(٢) كان إمام عصره من غير ما دفع، تشد إليه الرحال في فنونه، أخذ النحو عن أبي مضر منصور، وصنف التصانيف البديعة: منها «الكشاف» في تفسير القرآن العزيز لم يصنف قبله مثله، وكان قد سافر إلى مكة، حرسها الله تعالى، وجاور بها زماناً، فصار يقال له «جار الله» لذلك، وكان هذا الاسم علماً عليه، وكان الزمخشري معتزلي الاعتقاد متظاهراً به، توفي ليلة عرفة سنة ٥٣٨هـ بجرجانية خوارزم، بعد رجوعه من مكة رَحْمَةً اللهُ تَعَالَى.

انظر ترجمته في:

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٥/١٦٨-١٧٤، البداية والنهاية ١٢/٢١٩، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٨/٣٧، ٣٨.

- (٥) «شرح الحماسة»، و«شرح ديوان المتنبى»، و«شرح سقط الزند» وهو ديوان أبي العلاء المعري، و«شرح المعلقات السبع»، و«شرح المفضليات»، و«الكافي في علم العروض والقوافي»: أبى زكريا يحيى بن على بن محمد بن الحسن بن بسطام الشيباني التبريزي المعروف بالخطيب المتوفى عام ٥٠٢هـ^(٢).
- (٦) «ما اتفق لفظه واختلف معناه»، و«شرح اللمع» لابن جنى، و«شرح التصريف الملوكي»: أبى السعادات هبة الله بن على بن محمد بن حمزة الحسنى، المعروف بابن الشجرى البغدادي المتوفى عام ٥٤٢هـ/١١٤٨م^(٣).
- (٧) جهاز مقاله: أبى الحسن نظام الدين أحمد بن عمر السمرقندى المتوفى سنة ٥٥٢هـ/١١٥٦م^(٤).
- (٨) «مقامات حميدى»: القاضي حميد الدين أبو بكر البلخى المتوفى سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م^(٥).

(١) انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٥/٣٤٢، ٣٤٤، البداية والنهاية ١٢/٢٢٠، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٨/٤٧. أيأب وسبقت ترجمته ص ١٦٤.

(٢) أحد أئمة اللغة، كانت له معرفة تامة بالأدب من النحو واللغة وغيرهما، قرأ على الشيخ أبى العلاء المعري، وأبى القاسم عبيد الله بن على الرقي وأبى محمد الدهان اللغوي، وغيرهم من أهل الأدب، توفى في جمادى الآخرة سنة ٥٠٢هـ، ودفن في مقبرة باب أبرز. انظر ترجمته فى: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٦/١٩١-١٩٦، البداية والنهاية ١٢/١٧١، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ٦/٩، ١٠، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ١٧/١١٤-١١٦.

(٣) انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٦/٤٥. وسبقت ترجمته ص ١٦٤.

(٤) انظر نظامى عروضى سمرقندى: جهاز مقاله ص ١، ٢، السلطان سنجر السلجوقى ص ١٢٥، ١٢٦.

(٥) المرجع السابق ص ١٢٧.

(٩) «خريدة القصر وجريدة العصر»، و«الفتح القدسي»: أبي عبد الله محمد بن صفى الدين أبى الفرج محمد بن نفيس المتوفى سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م^(١).

خامساً: الشعر:

(١) الرباعيات: أبى الفتح عمر بن إبراهيم الخيامي النيسابوري المتوفى سنة ٥١٥هـ/١١٢١م^(٢).

(٢) لامية العجم: أبى إسماعيل الحسين بن على بن محمد بن عبد الصمد الملقب مؤيد الدين الأصبهاني المنشأ المعروف بالطغرائي المتوفى سنة ٥١٥هـ/١١٢١م^(٣).

(١) ولد سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م بأصبهان، وتفقّه ببغداد على ابن الرزاز، وأتقن الفقه والخلاف والعربية، وسمع من على بن الصباع وطبقته، وأجاز له ابن الحصين والفراوى، ثم تعانى الكتابة والترسل والنظم، وفاق الأقران، وحاز قصب السبق، وولاه ابن هبيرة نظر واسط وغيرها، ثم قدم دمشق بعد الستين وخمسائه، وخدم في ديوان الإنشاء فبهر الدولة ببديع نثره ونظمه، وترقى إلى أعلى المراتب، ثم عظمت رتبته في الدولات الصلاحية وما بعدها، وصنف التصانيف الأدبية، توفى في أول رمضان سنة ٥٩٧هـ، ودفن بمقابر الصوفية رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى. انظر ترجمته فى:

العبر فى خير من غبر ٣/١٢٠، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٥/١٤٧-١٥٣.

(٢) شاعر فيلسوف فارسى، من أهل نيسابور مولداً ووفاء، كان عالماً بالرياضيات والفلك واللغة والفقه والتاريخ، له شعر عربى، وتصانيف عربية، بقيت من كتبه رسائل منها: «شرح ما يشكل من مصادرات إقليدس»، و«مقالة فى الجبر والمقابلة»، و«الاحتيال لمعرفة مقدارى الذهب والفضة فى جسم مركب منهما»، وغيرها، وبلغت شهرة الخيام ذروتها بمقطعاته الشعرية «الرباعيات» نظمها شعراً بالفارسية، وترجمت إلى جميع اللغات تقريباً، وعرف قدره فى أيامه، فقربه الملوك والرؤساء، وكان السلطان ملكشاه السلجوقى ينزله منزلة الندماء، والخاقان شمس الملوك ببخارى يعظمه ويجلسه معه على سريره، توفى سنة ٥١٥هـ. انظر الأعلام ٥/٣٨.

(٣) كان غزير الفضل لطيف الطبع، فاق أهل عصره بصنعة النظم والنثر، وقد وصفه =

(٣) قصيدة شعر: أبو النجيب شهاب الدين عمق النجاري المتوفى سنة ٥٤٣هـ/١٤٨م، رثى فيها «ماه ملك خاتون» ابنة السلطان سنجر^(١).

سادساً: التاريخ:

- (١) تاريخ بغداد: للخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٠م^(٢).
- (٢) تاريخ دولة آل سلجوق: أبي نصر أنوشروان خالد بن محمد القاشاني القيني المتوفى سنة ٥٣٢هـ/١٣٧م^(٣).
- (٣) البرق الشامى، ونصرة الفترة وعصرة القطرة في أخبار الدولة السلجوقية: أبا عبد الله محمد بن صفى الدين أبا الفرج الملقب عماد الدين الكاتب الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م^(٤).
- (٤) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، والذهب المسبوك في سير الملوك: أبا الفرج بن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م^(٥).
- (٥) راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية: أبا بكر نجم الدين

= ياقوت بقوله: «أنه كان آية في الكتابة والشعر»، له ديوان شعر جيد، ومن محاسن شعره قصيدته المعروفة بلامية العجم، وكان نظمها ببغداد في سنة ٥٠٥هـ/١١١٠م، يصف فيها حاله يشكو زمانه، وهى التي أولها:

أصالة الرأى صاننتى عن الخطل وحلية الفضل زاننتى لدى العطل.

انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ١٨٥/٢-١٩٠، ياقوت الحموى: معجم الأديباء ٥٧/١٠، راجعته وزارة المعارف العمومية الطبعة الأخيرة، ط دار المأمون.

(١) انظر محمد محمود إدريس: سلطان السلاجقة الأعظم السلطان سنجر السلجوقى سياسته الداخلية وأهم مظاهر الحضارة في عهده ص ١٣٤، ١٣٥.

(٢) انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٩٢/١. وسبقت ترجمته ص ١٦٢.

(٣) انظر النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٢٥٤/٥، ٢٥٥.

(٤) انظر العبر في خير من غير ١٢٠/٣، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ١٤٧/٥-١٥٣.

(٥) انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٣١٦/٣، ٣١٧. سبقت ترجمته ص ١٨٥.

محمد بن علي بن سليمان بن محمد بن أحمد بن الحسين بن همة الراوندى المتوفى سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م^(١).

(٦) الكامل في التاريخ، معرفة الصحابة: ابن الأثير عز الدين أبو الحسين علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الجزرى الشيبانى المتوفى سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م^(٢).

سابعاً: علم الكلام والفلسفة والمنطق:

(١) مقاصد الفلاسفة، وتهافت الفلاسفة: أبى حامد الغزالى المتوفى سنة

(١) ينتسب الراوندى إلى أسرة من أهل العلم في بلدة راوند، من أعمال مدينة كاشان «قاشان» كان جميع أفرادها من العلماء والأساتذة، وقد توفى أبوه وهو غلام لم يكمل تعليمه، وكان شغوفاً بإكماله ولكنه لم يملك الوسيلة إلى ذلك، بسبب مجاعة شديدة اجتاحت أصفهان وما جاورها سنة ٥٧٠هـ (١١٧٤-١١٧٥م)، فكفله خاله تاج الدين أحمد بن محمد بن علي الراوندى، وتولى أمر تعليمه، وكان تاج الدين رجلاً عالماً وأستاذاً في كلية بهمدان، بقى الراوندى تحت رعاية خاله عشر سنين (فيما يبدو من سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م حتى ٥٨٠هـ/١١٨٤م)، وقد استطاع في هذه الفترة أن يزور مع خاله جميع مدن العراق الكبرى وأن يتقن الخط، هذا إلى جانب دراسته علم الشريعة والفقه على بعض فقهاء عصره، كفخر الدين البلخى، وبهاء الدين اليزدى، وصفى الدين الأصفهانى، ونال من هؤلاء إجازة التدريس. انظر ترجمته فى: راحة الصدور وآية السرور ص ١٣-٢٠، ٢١.

(٢) ولد بجزيرة ابن عمر في سنة ٥٥٥هـ، كان إماماً في حفظ الحديث وما يتعلق به، وحافظاً للتواريخ المتقدمة، وخبيراً بأنساب العرب وأخبارهم وأيامهم ووقائعهم، صنف في التاريخ كتاباً سماه الكامل ابتداءً فيه من أول الزمان إلى آخر سنة ٦٢٨هـ، توفى في الخامس والعشرين من شهر شعبان سنة ٦٣٠هـ.

انظر ترجمته فى:

سير أعلام النبلاء ٢٢/٣٥٣-٣٥٦، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ٧/٢٤١-٢٤٣، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٣/٣٤٨-٣٥٠، الأعلام ٤/٣٣١.

- (١) ٥٠٥/١١١١م^(١).
- (٢) رسالة في الوجود، ورسالة في الكون والتكليف: عمر بن إبراهيم الخيام المتوفى سنة ٥١٥/١١٢١م^(٢).
- (٣) الملل والنحل: محمد بن عبد الكريم بن أحمد، أبو الفتح الشهرستاني المتوفى سنة ٥٤٨/١١٥٣م^(٣).
- (٤) المعتبر في الحكمة: هبة الله بن علي بن ملكا البلدي أبو البركات المعروف بأبوحذو الزمان المتوفى سنة ٥٦٠/١١٦٥م^(٤).

(١) انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٤/٢١٦-٢١٩. سبقت ترجمته ص ١٩٧.

(٢) انظر ظهير الدين البيهقي: تاريخ حكماء الإسلام ص ١١٩-١٢٣، ط المجمع العلمي العربي، تحقيق محمد كرد علي، مطبعة الترقى بدمشق سنة ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م. وسبقت ترجمته ص ٢١٨.

(٣) من فلاسفة الإسلام، كان إماماً في علم الكلام وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة، يلقب بالأفضل، ولد في شهرستان (بين نيسابور وخوارزم) وانتقل إلى بغداد سنة ٥١٠ هـ، فأقام ثلاث سنين، وعاد إلى بلده، وتوفي بها، قال ياقوت في وصفه: الفيلسوف المتكلم، صاحب التصانيف، كان وافر الفضل، كامل العقل، ولولا تخبطه في الاعتقاد ومبالغته في نصره مذاهب الفلاسفة والذب عنهم لكان هو الإمام، توفي سنة ٥٤٨ هـ.

انظر ترجمته في:

سير أعلام النبلاء ٢٠/٢٨٦-٢٨٨، العبر في خبر من غير ٣/٧، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٥/٢٩٣، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٤/٢٧٣-٢٧٥، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٦/٢٤٦، ٢٤٧، الأعلام ٦/٢١٥.

(٤) طبيب، من سكان بغداد، عرفه الظهير البيهقي بفيلسوف العراقيين، وقال: ادعى أنه نال رتبة أرسطو، كان يهودياً وأسلم في آخر عمره، وكان في خدمة المستجد بالله العباسي، وحظي عنده، واتهمه السلطان محمد بن ملكشاه بأنه أساء علاجه فحبسه مدة، توفي بهمدان عن نحو ثمانين سنة، وحمل تابوته إلى بغداد.

انظر ترجمته في:

الأعلام ٨/٧٤، الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ص ٤٨٢.

(٥) حكمة الإشراف وهو في شرح المسائل الفلسفية: شهاب الدين يحيى بن محمد بن حبش بن أميرك السهروردي المتوفى سنة ٥٨٩هـ/١١٩١م^(١).

ثامناً: الطب:

- (١) تقويم الأبدان، ومنهاج البيان فيما يستعمله الإنسان، والإشارة في تلخيص العبارة، ورسالة في مدح الطب وموافقته للشرع والرد على من طعن فيه: يحيى ابن عيسى بن جزلة الطبيب البغدادي المتوفى سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩م^(٢).
- (٢) المغنى في تدبير الأمراض، والأسباب والعلاقات، والإقناع في الطب، خلق الإنسان، ومقالة في صفات تركيب الأدوية: أبو الحسن سعيد بن هبة الله بن الحسن المتوفى سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م^(٣).

(١) أحد أنبياء بنى آدم، وكان رأساً في معرفة علوم الأوائل، بارعاً في علم الكلام، فصيحاً مناظراً محجاجاً، قدم حلب واشتهر اسمه، فعقد له الملك الظاهر غازي ولد السلطان صلاح الدين مجلساً فبان فضله وبهر علمه، فارتبط عليه الظاهر واختص به، وظهر للعلماء منه زندقة وانحلال، فعملوا محضراً بكفره وسيرهو إلى صلاح الدين وخوفوه من أن يفسد عقيدة ولده فبعث إلى ولده أن يقتله بلا مراجعة، فخيره الظاهر فاختر أن يموت جوعاً، لأنه كان له عادة بالرياضيات فمنع من الطعام حتى تلف وعاش ستاً وثلاثين سنة.

انظر ترجمته في: العبر في خبر من خبر من غير ٣/٩٥، ٩٦، وفيات الأعيان وأنبياء أبناء الزمان ص ٢٦٨-٢٧٤، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٦/١٠٤، ١٠٥.

(٢) انظر وفيات الأعيان وأنبياء أبناء الزمان ٦/٢٦٧، ٢٦٨.

(٣) من الأطباء المتميزين في صناعة الطب، وكان معاصراً لابن جزلة، واحداً من أساتذته عاش في خلافة أمير المؤمنين المقتدى بالله، وخدمه بصناعة الطب كما خدم ولده الخليفة المستظهر بالله، وكان قد تولى كذلك مداواة المرضى في البيمارستان العضدي، وله مصنغات فلسفية ومنطقية، توفي سنة ٤٩٥هـ.

انظر ترجمته في:

شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٥/٤١٠، العبر في خبر من غير ٢/٣٧١، الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ص ٤٩٥، ٤٩٦.

- (٣) الطب المملوكي، التذكرة الأشرفية في الصناعة الطبية، وزبدة الطب: زين الدين إسماعيل بن حسن الجرجاني المتوفى سنة ٥٣١هـ/١١٣٦م^(١).
- (٤) الفصول الإيلامية: شرف الدين محمد الأيلاقي المتوفى سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م^(٢).
- (٥) اختصار التشريح من كلام جالينوس، والأقرباذين ويشتمل على ثلاث مقالات، ورسالة في العقل وماهيته، ورسالة في صفة برشعنا، وهو دواء هندي وأخرى في صفة دواء ترياقى يقال أمين الأرواح: هبة الله بن علي بن ملكا البلدي أبو البركات المعروف بأوحد الزمان المتوفى نحو سنة ٥٦٠هـ/١١٦٥م^(٣).

تاسعاً: الرياضيات والفلك:

- (١) «رسالة في البراهين على مسائل الجبر والمقابلة»، و«رسالة في شرح ما أشكل من كتاب إقليدس»، و«رسالة الميزان الجبرى»، و«رسالة في المعادلات ذات الدرجة الثالثة والرابعة»، «زيج^(٤) ملكشاهي»: أبي الفتح غياث الدين عمر بن إبراهيم الخيام النيسابوري المتوفى سنة ٥١٥هـ/١١٢١م^(٥).

- (١) انظر جهار مقاله ص ٨٧، سلطان السلاجقة الأعظم السلطان سنجر السلجوقي ص ١٣٨، د/أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ص ٢٨٧، ٣٩٨، ٣٩٩، ط دار البحوث العلمية، الكويت، الأولى سنة ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.
- (٢) المرجع السابق ص ٣٩٧، سلطان السلاجقة الأعظم السلطان سنجر السلجوقي ص ١٣٨.
- (٣) انظر الأعلام ٧٤/٨. وسبقت ترجمته ص ٢١٨.
- (٤) الزيج: جداول فلكية يستدل بها على حركة الكواكب السيارة، واتخذت أرصاده أساساً لتحديد جاذبية الأرض والظواهر الفلكية كالحسوف والكسوف. انظر الدولة المستقلة في المشرق الإسلامي ص ٣٩٣، ٣٩٤.
- (٥) انظر الأعلام ٣٨/٥، جهار مقاله ص ١٥٤-١٦٠، محمد غريب جودة: عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية في العلوم الطبيعية والطب ص ١٨٢-١٨٥، ط مكتبة القرآن للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، بدون تاريخ، وسبقت ترجمته ص ٢١٨.

- (٢) «أصول إقليدس»، و«رسالة آثار علوى» أو «كائنات جو» باللغة الفارسية، و«رسالة الشبكة» باللغة العربية: أبى الحاتم المظفر بن إسماعيل الإسفزارى المتوفى قبل سنة ٥١٥هـ/١١٢١م^(١).
- (٣) «منتهى الإدراك في تقسيم الأفلاك»، و«التبصرة في علم الهيئة»: بهاء الدين أبو بكر بن محمد بن أحمد بن أبى بشر الخرقى المتوفى سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م^(٢).
- (٤) «شرح المقالة العاشرة من كتاب أصول إقليدس»، و«رسالة في الجبر والمقابلة»: أبو بكر محمد بن عبد الباقي بن محمد الأنصارى البغدادي الحنبلى المتوفى سنة ٥٣٥هـ/١١٤١م^(٣).
- (٥) «كيهان شناخت» وهو في علم الهيئة (الفلك): أبى على حسن بن على قطان المروزي المتوفى سنة ٥٨٨هـ/١١٥٣م^(٤).

أثر المؤلفات العلمية في الدولة السلجوقية في الدعوة إلى الله تعالى

إن اهتمام الدولة السلجوقية بالعلم والعلماء جاء من منطلق: (أن الإسلام دين حضارة لا يعرف التخلف ولا الجمود، وإذا كانت الحضارة تبدأ بالمعرفة والعلم، فقد علم الإسلام أبنائه أن يركضوا إلى العلم ركضاً، ويتزاحموا حوله بالمناكب، ويقبلوا عليه إقبال العاشق المشغوف)^(٥)، والسؤال الذى يطرح نفسه: ما مدى تأثير هذا التقدم العلمى في الدولة السلجوقية على الدعوة إلى الله تعالى؟

- (١) انظر جهار مقاله ص ١٦٠، تاريخ حكماء الإسلام ص ١٢٥، ١٢٦.
- (٢) انظر السلطان سنجر السلجوقى ص ١٣٨، السلاجقة في التاريخ والحضارة ص ٣٩٥.
- (٣) انظر سير أعلام النبلاء ٢٠/٢٣-٢٨، البداية والنهاية ١٢/٢١٧، ٢١٨، الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقى ص ٥٠٧.
- (٤) انظر السلاجقة في التاريخ والحضارة ص ٢٨٩، ٣٩٦، السلطان سنجر السلجوقى ص ١٣٨.
- (٥) انظر خالد محمد خالد: الدولة في الإسلام ص ٩١، ط دار ثابت للنشر والتوزيع، الأولى.

أقول: إن التقدم العلمي في أي دولة يقوم على أسس منها العلماء، وما ينتجه هؤلاء العلماء من أبحاث سواء كانت أبحاثاً نظرية، أو أبحاثاً عملية قابلة للتطبيق.

وإذا أردنا أن نتكلم عن الشق الأول وهو العلماء، أقول إن ارتباط العلماء بالدعوة كارتباط الزرع بالماء، فكما أن الزرع بغير ماء يذبل ويموت، فإن الدعوة بغير علماء يحملون عبء المناداة بها تذبل وتموت، ولذلك أخبرنا النبي ﷺ: أن العلماء ورثة الأنبياء، وذلك لأنهم يكملون مسيرة الأنبياء في تبليغ ما أمر الله تعالى على لسان أنبيائه ورسوله. وفترة تولى السلاجقة لمقاليده الحكم في الدولة الإسلامية حوت في داخلها كثير من العلماء الربانيين الذين كان لهم تأثير كبير في الدعوة الإسلامية، وذلك من خلال السيرة الذاتية لهؤلاء العلماء والتي أوردتها في الترجمة لهؤلاء العلماء فقد أعطوا القدوة لغيرهم في زمانهم وفي الأزمنة التي تلتها إلى يومنا هذا، وهذا كان له أعظم الأثر في الدعوة الإسلامية.

ولنأخذ مثلاً من العلماء الذين عاشوا في ظل الدولة السلجوقية وكان له تأثير دعوى كبير في العصر السلجوقي، وفي العصور التي تلت ذلك ألا وهو حجة الإسلام الغزالي، فيمكن القول دون تردد بأن أثره كان كبيراً فهو بجانب دعوته إلى العودة بالإسلام إلى أصوله الأولى، ومنابعه الصافية، قد رفع مكانة الدين إلى مستوى شامخ لا عهد للفقهاء والمتكلمين والفلاسفة به، إضافة إلى إحيائه للعلوم الشرعية وبحوثه الجادة في إطار الدراسات النفسية والتربوية، ونظريته في التعليم وأساليبه في نقد المتكلمين والفلاسفة، والرد على الرافضة والدهريين، ومواقفه الصلبة في وجه أعداء الإسلام^(١).

أما الشق الثاني ألا وهو الكتب التي ألفها هؤلاء العلماء، ولا شك أن الكتاب هو وسيلة هامة من وسائل الدعوة، وذلك لأنه يحتوي على فكر معين، بأسلوب معين، الغرض منه توصيل هذا الفكر إلى القارئ، وعلماء العصر السلجوقي كان نتاجهم

(١) انظر الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ص ٣٤٦.

الفكرى كبير وعظيم وهائل من ناحية الكم والكيف، وهذا بلا شك كان له تأثير كبير في الدعوة الإسلامية في العصر السلجوقي.

وخلاصة القول أن تقدم الدولة الإسلامية من الناحية العلمية كان له تأثير عظيم في الدعوة، وذلك لأنه يعطى صورة حية للإسلام المستتير الذى يأخذ بأسباب الحياة المادية والمعنوية، ويبين مدى ما دعا إليه ديننا من التمسك بأسباب هذا التقدم من تلقى للعلم واهتمام بالعلماء.



الفصل الرابع

أساليب الدعوة الإسلامية
في الدولة السلجوقية وأثارها الدعوية

الفصل الرابع

أساليب الدعوة الإسلامية في الدولة السلجوقية وآثارها الدعوية

تمهيد:

تعريف الأساليب لغة واصطلاحاً:

الأسلوب: الطريق^(١)، وكل طريق ممتد فهو أسلوب، وهو على أسلوب من أساليب القوم أي على طريق من طرقهم، والجمع أساليب^(٢)، والأسلوب: الفن^(٣).

التعريف الإصطلاحي:

عرفت أساليب الدعوة بعدة تعاريف منها:

(١) الطريق الذي يلجأ إليه الداعي إلى الله تعالى بغرض التأثير في الناس قولاً وعملاً لتحقيق أهداف الدعوة^(٤).

(٢) الكيفية أو الطريقة التي تؤدي بها الدعوة سواء كانت عاطفية تبنى على الترغيب والترهيب أو عقلية تبتنى على الأدلة والحجج المنطقية^(٥).

وهذان التعريفان متقاربان في معنهما ومن خلالهما يتبين لنا الترابط بين المناهج

(١) انظر القاموس المحيط ص ١٢٥.

(٢) انظر لسان العرب ٦/٣١٩.

(٣) انظر مختار الصحاح ص ١٧٦.

(٤) انظر أ.د/فرج محمد إبراهيم الوصيف: الجزيرة العربية ودعوة الشيخ محمد عبد الوهاب ص ١٦٨.

(٥) انظر أ.د/ محمد عبد العاطي إبراهيم: التبصرة فيما بين الدعوة إلى الله والنفس الإنسانية من آصرة ص ٧٧.

والوسائل والأساليب، حيث أن المناهج الدعوية هي النظم والخطط الدعوية^(١)، بينما الأسلوب هو الطريقة أو الكيفية التي يتوصل بها إلى تحقيق الهدف، أما الوسيلة فهي العمل نفسه.

وإذا كانت الوسائل قابلة للتغيير حسب الظروف والأحوال، فإن الأساليب ثابتة في جوهرها لا تتغير، والذي يتغير فقط هو صورها، وهذا واضح من خلال دعوات الأنبياء عليهم السلام، على مدى تاريخهم وفي مقدمتهم الرسول ﷺ، وواضح أيضاً من دعوات الدعاة الذين تأسوا بهم وساروا على نهجهم^(٢).

أساليب الدعوة في القرآن الكريم:

حدد القرآن الكريم أساليب الدعوة الإسلامية في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُم بِالنِّسْبَةِ الْحَسَنَةَ وَجَدِّ لَهُم بِالنِّسْبَةِ الْحَسَنَةَ وَجَدِّ لَهُم بِالنِّسْبَةِ الْحَسَنَةَ﴾^(٣)، لقد خاطب الله جل وعلا نبيه ﷺ بأن يدعو الناس إلى طريق ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة وأن يجادلهم بالتي هي أحسن، لأنه سبحانه أعلم بمن ضل عن طريقه وهو أعلم بالمهتدين، فجعل ربنا لكل فئة من الناس أسلوباً خاصاً بهم، فمخاطبة أصحاب الأفهام والعقول المستتيرة يكون بالحكمة القائمة على الكتاب والسنة والمنبثقة منهما، أما العوام فيجدي معهم أسلوب الموعظة الحسنة، لأن الدعوة أخذ الناس من حال يكونون فيها بعيدين عن الله عز وجل إلى حال يكونون فيها قريبين من الله عز وجل، فاقضى الحال أن تكون الموعظة حسنة، فالمدعو كالمجروح إن لم يداوى برفق فإنه لن يقبل الدواء، أما الأسلوب الأخير فهو لأهل الجدل والمناقشة وأصحاب الدليل، فلهم دليلهم ولنا دليلنا بالحسنى حتى نصل بهم إلى طريق الحق الذي هدانا الله إليه.

(١) انظر المدخل إلى علم الدعوة ص ٤٧.

(٢) انظر الجزيرة العربية ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ١٦٨، ١٦٩.

(٣) سورة النحل آية ١٢٥.

ومن خلال ما سبق يتبين لنا أن لكل صنف من الناس أسلوبه الذي يخاطب به، والذي إن خوطب بغيره أضر به ولم يصلح.

وفى حديثى عن أساليب الدعوة في الدولة السلجوقية سألتزم بالأساليب العامة للدعوة الإسلامية التي حددها القرآن الكريم للدعاة في شخص النبي ﷺ والتي تتمثل فى:

- (١) الحكمة.
- (٢) الموعظة الحسنة.
- (٣) المجادلة بالتي هي أحسن.

أساليب الدعوة في عهد الدولة السلجوقية:

لقد سلك السلاجقة الأساليب التي حددها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(١)، فجاءت هذه الأساليب واضحة تماماً في أقوالهم وأفعالهم وذلك على النحو الذى سأبينه فيما يلى.



(١) سورة النحل آية ١٢٥.

المبحث الأول

أسلوب الحكمة وأثرها الدعوى

الحكمة في اللغة:

والْحِكْمَةُ بالكسر: العَدْلُ، ورجل حكيم: عدل حكيم، وأحكم الأمر: أتقنه^(١)، والحكمة: من العلم، والحكيم العالم، وصاحب الحكمة والحكيم المتقن للأمور^(٢).

وجاء في أساس البلاغة: (في الحديث «إن الجنة للمحكمين»، وهم الذين حكموا في القتل والإسلام فاختروا الثبات على الإسلام، ورجل محكم مجرب منسوب إلى الحكمة.... والصمت حكم أي حكمة، وحكم الرجل مثل حلم الرجل صار حكيماً)^(٣).

وعلى ذلك فالحكمة بالمعنى اللغوي تعنى العلم والحلم والعدل والإتقان وما يمنع من السفه والجهل.

أما معنى الحكمة في الإصطلاح: فهي عبارة عن: (اسم جامع لكل كلام أو علم يراعى فيه إصلاح حال الناس واعتقادهم إصلاحاً مستمراً لا يتغير)^(٤).

أو هي عبارة عن: (القول السديد، والخلق الرشيد، والحكم العادل)^(٥).

وهذان التعريفان معناهما متقارب؛ لأن الحكمة هي وضع كل شئ في موضعه،

(١) انظر لسان العرب ٢٧١/٣.

(٢) انظر مختار الصحاح مادة (حكم) ص ٩١.

(٣) انظر الإمام أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ): أساس البلاغة ص ٣٠٦، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الأولى سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

(٤) انظر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير ٣٢٧/١٣، ط دار سحنون للنشر والتوزيع تونس.

(٥) انظر التبصرة فيما بين الدعوة إلى الله تعالى والنفس الإنسانية من أصرة ص ٨٣.

فالقول السديد حكمة، والعمل الرشيد حكمة، وكذلك العدل في الحكم حكمة لأن به ينصلح حال الناس في دينهم ودنياهم.

أهمية الحكمة:

نظراً لأهمية الحكمة فقد جاءت في القرآن الكريم بمعان متعددة منها:

(١) أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَهَا مَنحَةً مِنْهُ، يَمُنْ بِهَا عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ: قَالَ تَعَالَى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (١).

(٢) جعلها الله تعالى من النعم التي امتن بها على كثير من أنبيائه ورسله: قَالَ تَعَالَى عَنْ نَبِيِّهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَاهُ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ (٢).

وقال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَآتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣).

وقال تعالى عن يحيى عليه السلام: ﴿يَتَّبِعُنِي فَخُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا﴾ (٤).

وقال تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخَلَّقْنَا مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ

(١) سورة البقرة آية ٢٦٩.

(٢) سورة النساء آية ٥٤.

(٣) سورة يوسف آية ٢٢.

(٤) سورة مريم آية ١٢.

فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِيءُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرَجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١﴾ .

وقال تعالى عن خاتم رسله ﷺ: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿٢﴾ .

(٣) عبر الله سبحانه وتعالى عن السنة بالحكمة: فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأذْكَرْتَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣﴾ .

(٤) عبر الله عز وجل بها عن السلوك الحميد: فبعد أن ذكر الله تعالى في سورة الإسراء أنماطاً من السلوك الأخلاقي الحميد، وعبر عنه بأنه من الحكمة، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُنْفِقَ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴿٤﴾ ، مع أنها أمور سلوكية أمر الله بها وحث عليها.

(٥) عبر الله عز وجل بها عن الإصابة في القضاء: ففي قضية الغنم التي نفشت في الحرث ، وأصاب فيها سليمان عليه السلام الحق بعد أبيه عبر الله عز وجل عن ذلك بقوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَاهُمْ حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٥﴾ .

وعلى هذا فلقد وردت الحكمة في القرآن الكريم وأريد بها: «العلوم الحقة والمعارف

(١) سورة المائدة آية ١١٠ .

(٢) سورة النساء آية ١١٣ .

(٣) سورة الأحزاب آية ٣٤ .

(٤) سورة الإسراء آية ٣٩ .

(٥) سورة الأنبياء آية ٧٩ .

السديدة»، ومرة ثانية أريد بها: «السلوك الرشيد والأخلاق الحميدة»، ومرة ثالثة أريد بها: «الإصابة في القضاء».

ويكون المعنى الذى ذكر في التعريف يتفق مع ما جاء في القرآن الكريم.

أنواع الحكمة:

قال «ابن قيم الجوزية»: «الحكمة حكمتان علمية وعملية، فالعلمية: الإطلاع على بواطن الأشياء، ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها خلقاً وأمراً وقدرًا وشرعاً، والعملية: هي وضع الشئ في موضعه»^(١).

ومن خلال كلام ابن القيم يتضح لنا أن الحكمة ليست مقتصرة على قول وضع في محله فجاء موافقاً للواقع، فصار هذا الكلام حكمة وصار من صدر عنه الكلام حكيمًا، ولكن الحكمة أيضاً تشمل حكمة في السلوك والعمل كما شملت الحكمة في القول، ولقد ظهرت الحكمة جلية واضحة بشقيها في دعوة السلاجقة وإليك بيان ذلك.

أولاً: الحكمة في القول والرأى:

سبق أن ذكرت أن الحكمة هي: القول السديد، والفعل الرشيد، والحكم العادل، والداعى إلى الله تعالى هو أولى الناس بهذا، فيجب عليه أن يتحرى الحكمة في قوله فيكون في موضعه، ويتحرى الحكمة في رأيه فلا يشير به إلا إذا كان رأياً سديداً معالجاً وموافقاً للموقف الذى صدر فيه.

وعلى هذا يجب أن تسير الدول التي أخذت على عاتقها مهمة الدعوة إلى الدعوة إلى الله عز وجل، ولقد سارت الدولة السلجوقية على هذا المنوال فكان سلاطينها لا يصدر عنهم إلا كل قول سديد، ولا يشيرون برأى إلا إذا كان في موضعه.

فها هو السلطان ملكشاه يلقي خطاب تولية العرش عندما تولى السلطنة سنة

(١) انظر الإمام العلامة أبى عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب بن قيم الجوزية: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١٨٧/٢، ط المكتب الثقافى القاهرة، تحقيق: رضوان جامع رضوان.

٤٦٥ هـ فقال: «الأكبر منكم أباي، والأوسط أخي، والأصغر ابني، وسأفعل معكم ما لم أسبق إليه، فأمسكوا فأعاد القول فأجابوه بالسمع والطاعة» (١)، (٢).

وهي كلمة تدل على نزعته العادلة وامتثاله الآداب الإسلامية (٣)، وسداس في القول، وحكمة في التعامل مع الموقف فكان من نتائجه أن أجابه الأمراء جميعاً بالسمع والطاعة.

وتبدو حكمته كذلك في تعامله مع الحسن بن الصباح حيث رأى السلطان ملكشاه أن يبعث إليه برسالة حدد فيها الداء، وهو أن ابن الصباح بقتله الناس وخروجه على الخلفاء العباسيين قد خرج عن الإسلام، وحدد الدواء وهو الرجوع عن هذه الضلالة والتمسك بحظيرة الإسلام، وإلا أرسل إليه جيوشاً تقتلع قلعته، وتجعلها يباساً (٤)، وهذا نص رسالة ملكشاه إلى الحسن بن الصباح: (أنت حسن الصباح قد أظهرت ديناً وملة جديدة، فأغريت الناس وخرجت على ولي عصرك، فجمعت حولك بعض سكان الجبال ثم أغويتهم بكلامك حتى حملتهم على قتل الناس، وطعننت في الخلفاء العباسيين الذين هم خلفاء الإسلام وبهم استحکم قوام الملك والملة ونظام الدين والدولة، فعليك أن ترجع عن هذه الضلالة وتكون مسلماً وإلا عينت لك جيوشاً وأرجأت توجيهها حتى تجئ إلينا أنت وجوابك، وحذار حذار على نفسك ونفوس تابعيك فارحمها ولا تفتيها في ورطة الهلاك، ولا تغتر باستحكام قلاعك ولتعتقد حقيقة أن قلعة

(١) انظر البداية والنهاية ١٢/١٠٦.

(٢) هذا الفتى الذي صدرت منه هذه الكلمات كان في سن الثمانية عشر عاماً، وهو يذكرنا بالقائد أسامة بن زيد الذي قاد جيش المسلمين الذي جهزه النبي ﷺ للتوجه إلى الروم هو في مثل هذا السن تقريباً.

(٣) انظر نظام الملك ص ٣٤٥.

(٤) يَبَسٌ: بالكسر، وَيَبَسٌ، وَيَبَسٌ فهو يابس، أي كان رطباً فَجَفَّ، ويقال: أبيضت الأرض: إذا يَبَسَ بقلها.

انظر القاموس المحيط مادة (يبس) ص ٦٠٦.

الموت المستحكمة لو كانت برجاً من بروج السماء لجعلتها أرضاً يباساً ولساويتها مع التراب بعناية الله تعالى^(١).

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على حكمته في تدرجه في دعوته لابن الصباح، فلم يلجأ إلى استخدام القوة إلا بعد إرسال هذه الرسالة، والتي دعا فيها ابن الصباح إلى الإسلام الصحيح بأسلوب الحكمة.

ولم يكن السلطان ملكشاه هو الوحيد الذي تمثلت الحكمة في قوله، وإنما غيره كثيرون، أذكر منهم الوزير نظام الملك الطوسي، هذا الرجل الذي قامت هذه الدولة على أكتافه، فلقد بدت الحكمة جلية برأيه الذي أشار به على السلطان بتعيين القواد والأمراء الذين فيهم خلق ودين وشجاعة وظهرت آثار تلك السياسة فيما بعد، ومن هؤلاء القواد الذين وقع عليهم الاختيار آق سنقر جد نور الدين محمود، الذي ولي على حلب وديار بكر والجزيرة، وقام ولده عماد الدين زنكي ببداية الجهاد ضد الصليبيين، ثم قام من بعده نور الدين محمود، هذه الأسرة هي التي وضعت الأساس لانتصارات صلاح الدين والظاهر بيبرس وقلاوون ضد الصليبيين، وافتتحت عهد التوحيد والوحدة في العالم الإسلامي^(٢).

ولا ننسى رأيه أيضاً الذي أشار به على السلطان ملكشاه بإعادة العمل بنظام البريد من أجل أن تصل أخبار طائفة الإسماعيلية^(٣)، هذا الرأي الذي أفاد السلاجقة في تتبع أخبار الإسماعيلية، والحد من نفوذهم، ومحاولة القضاء عليهم.

وتتجلى حكمة الوزير نظام الملك في تعامله مع الفتن التي كانت تحدث دائماً بين الشافعية والحنابلة، فعند توليه الوزارة أمر بوقف لعن الأشعرية، وكان الوزير عميد الملك الكندري قد أمر بلعنهم على المنابر بجانب الرافضة، مما كان له أثر كبير على

(١) انظر نظام الملك ص ٦٠٥.

(٢) انظر الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ص ٣٥.

(٣) انظر السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري ص ١٠٥.

العلماء في ذلك الوقت، فلقد فارق كثير من الأئمة بلادهم مثل إمام الحرمين وأبي القاسم القشيري، فما أن تولى السلطان ألب أرسلان السلطنة حتى أسقط نظام الملك ذلك كله، وأعاد العلماء إلى أوطانهم^(١).

وكانت هذه الفتن تتجدد بين الحين والآخر فكان الوزير يعالجها بحكمة وفكر ثاقب، يدل على وعيه وإدراكه بخطورة مثل هذه الفتن على الأمة الإسلامية.

ولم تقف مثل هذه المواقف عند السلاطين والوزراء، وإنما امتدت إلى العلماء والذين كانوا يشيرون بأرائهم السديدة والحكيمة في المواقف المختلفة، ولن ينسى التاريخ موقف الإمام أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي ورأيه الذي أشار به على السلطان ألب أرسلان في معركة ملاذكرد سنة ٤٦٣ هـ، وقال له: إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله قد كتب باسمك هذا الفتح، فالقهم يوم الجمعة في الساعة التي يكون الخطباء على المنابر، فإنهم يدعون للمجاهدين^(٢)، فلقد شذذ الهمم، وحدد الهدف واليوم والساعة، وربط القلوب بخالقها، وجمع الأمة كلها على قلب واحد، وهدف واحد ثابت ألا وهو النصر، فالجنود في المعركة، والخطباء على المنابر، فأما الجنود فسهامهم تتجه إلى صدور الأعداء، وأما الخطباء فأيديهم تتجه إلى السماء بالدعاء، فكان من نتيجة ذلك النصر بإذن الله تعالى.

وغير ذلك الكثير من النماذج التي يبدو فيها بوضوح حكمة السلاجقة القولية.

الحكمة في السلوك والعمل:

إن الدعوة إلى الله تعالى ليست مقتصرة على الأقوال فقط، وإنما هي أقوال وأفعال، فكما أن الداعية مطلوب منه أن يكون قوله حسناً، فمن باب أولى فإن الفعل الذي يصدر عنه لا بد وأن يكون موافقاً لقوله، لأن الإيمان عبارة عن: «قول باللسان،

(١) انظر الكامل في التاريخ ١٠/٢٠٩.

(٢) انظر دولة السلاجقة ص ٨٢، ٨٣.

وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان»^(١)، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَبُّهُ دَائِماً بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ فَمَا مِنْ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ذَكَرَتْ الْإِيمَانَ مُجَرِّداً، بَلْ عَطَفَتْ عَلَيْهِ عَمَلِ الصَّالِحَاتِ، أَوْ تَقْوَى اللَّهِ، أَوْ الْإِسْلَامَ لَهُ، بِحَيْثُ أَصْبَحَتْ صَلَاةُ الْعَمَلِ بِالْإِيمَانِ آصِرَةً لَا يَعْرِوْهَا وَهْنٌ^(٢).

فمن الآيات التي تدل على ذلك في كتاب الله تعالى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مِمَّا تَدَّكَّرُونَ﴾^(٤).

وإذا كان الإيمان والعمل مقترنين متلازمين فإن العمل والسلوك الحميد لا يقل أهمية بالنسبة للداعية عن العمل بالنسبة للإيمان، فقول بلا عمل كشجر بلا ثمر. ولقد كان السلاجقة على جملتهم ممن يقولون فيعملون ويدل على ذلك.

١ - موافقة القول للعمل :

عندما يكون الداعية إلى الله تعالى ملتزماً في ذاته، ينعكس ذلك على دعوته، فعندما يقول يُسمع له، وعندما يفعل يُقتدى به، وهذا من الحكمة في الدعوة حتى لا يفقد الداعية صلاحية الدعوة إلى الله تعالى، ولقد ذم الله تعالى في كتابه الكريم الذين يقولون ولا يعملون قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۗ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(٥).

ولقد كان السلاجقة ممن يطابق قولهم عملهم، وسير سلاطينهم تدل على ذلك،

(١) انظر أبي حامد الغزالي: رسائل الإيمان ص ١٠، ط مكتبة الإعتصام.

(٢) انظر الشيخ محمد الغزالي: عقيدة المسلم ص ١٣٧، ط نهضة مصر، القاهرة، السابعة ٢٠٠٧م.

(٣) سورة الكهف آية ١٠٧.

(٤) سورة غافر آية ٥٨.

(٥) سورة الصف آية ٢، ٣.

فها هو السلطان طغرلبيك يصفه ابن الأثير بقوله: «وكان رَحْمَةً اللَّهِ يُحَافِظُ عَلَى الصَّلَوَاتِ، وَيَصُومُ الْإِثْنَيْنِ وَالْخَمِيسَ، وَكَانَ لِبَسَةِ الثِّيَابِ الْبِياضِ»^(١).

وكان السلطان ألب أرسلان: «رحيم القلب، رقيقاً بالفقراء، كثير الدعاء بدوام ما أنعم الله به عليه، اجتاز يوماً بمرور على فقراء الخرائين، فبكى، وسأل الله تعالى أن يغنيه من فضله، وكان يكثر الصدقة، فيتصدق في رمضان بخمسة عشر ألف دينار، وكان في ديوانه أسماء خلق كثير من الفقراء في جميع ممالكه، عليهم الإدارات والصلوات، ولم يكن في جميع بلاده جناية ولا مصادرة، قد قنع من الرعايا بالخراج الأصلي يؤخذ منهم كل سنة دفتين رفقاً بهم..... وهذه حالة لا يذكر عن أحد من الملوك أحسن منها»^(٢)، هذه السيرة الحسنة إن دلت على شيء فإنما تدل على صلاح الراعي، وإعطاء القدوة لغيره، وموافقة قوله لعمله، ولذلك أذعن له الجميع بالطاعة.

وكان ألب أرسلان إذا رأى منكراً أو سمع به دعا إلى تغييره وكان من أول من يبادر بالتغيير: «فلما بلغه أن غلاماً من غلمانه أخذ إزاراً لبعض أصحابه صلبه فارتدع سائر الممالك به خوفاً من سطوته»^(٣).

كما يبدو جلياً حكمة السلطان ألب أرسلان في مطابقة قوله فعله في أمر الجهاد، فلم يكتف بحث أعوانه على الجهاد، وكونه مرشداً وموجهاً لهم فحسب، وإنما كان يدخل مثلهم في المعركة ويقاوم معهم، تجلى ذلك في موقعة ملاذكرد سنة ٤٦٣ هـ، فلما كان يوم المعركة صلى بالجنود وبكى ودعا فأمنوا، وسجد وعفر وجهه، وقال: «يا أمراء من شاء فليصرف، فما هاهنا سلطان، وعقد ذنب حصانه بيده، ولبس البياض وتحنط، وحمل بجيشه حملة صادقة، فوقعوا في وسط العدو يقتلون كيف شاؤوا، وثبت

(١) انظر الكامل في التاريخ ٢٨/١٠.

(٢) المرجع السابق ٧٤/١٠، ٧٥.

(٣) انظر البداية والنهاية ١٠٧/١٢.

العسكر، ونزل النصر»^(١).

وهذا وإن دل على شئ فإنما يدل على مشاركة ألب أرسلان جنوده في المعركة، واستعداده للشهادة في سبيل الله، ويذكرنا بالمعارك الأولى أيام الرسول ﷺ وصحابته الكرم.

وإذا انتقلنا إلى الوزير نظام الملك فنجد أن حاله وافق مقاله، وقوله وافق فعله، فكان إذا سمع المؤذن أمسك عن كل ما هو فيه وتجنبه، فإذا فرغ لا يبدأ بشئ قبل الصلاة، وكان إذا غفل المؤذن ودخل الوقت يأمره بالأذان، وهذا غاية حال المنقطعين إلى العبادة في حفظ الأوقات ولزوم الصلوات^(٢).

وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على حكمة سلاطين ووزراء السلاجقة في موافقة أقوالهم لأفعالهم مما كان سبباً قوياً في رواج الدعوة الإسلامية على أيديهم وانتشارها في الأفاق.

٢ - الاهتمام بالعدل وقمع الظلم:

لقد اهتم السلاجقة أيما اهتمام برفع راية العدل خفاقة في أنحاء أراضيهم وقمع الظلم ومحاربهه أيما كان، وذلك لأن العدل في الإسلام مقصد أسمى قد أمر الله تعالى بإقامته في الجماعة الإسلامية، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(٣).

وكما سبق في تعريف الحكمة أن من معانيها «الحكم العادل»، فقد اهتم السلاجقة اهتماماً كبيراً بإقامة العدل في بلادهم، فكان سلاطين السلاجقة العظام يحرصون على إقامة الحدود، وتنفيذ أحكام الدين، واتصفوا بالعدل والمسامحة، فكان السلطان طغرلبيك كريماً حليماً محافظاً على إقامة الشرع والحد، وكان السلطان ألب أرسلان رجلاً

(١) انظر سير أعلام النبلاء ٤١٥/١٨، ٤١٦.

(٢) انظر الكامل في التاريخ ٢٠٨/١٠، ٢٠٩.

(٣) سورة النساء آية ٥٨.

شجاعاً يخشاه الناس، أما السلطان ملكشاه فكان عادلاً لدرجة أنه كان لا يقبل شفاعته في إطلاق ظالم حتى ولو كان الشافع هو الخليفة نفسه، وغلب عليه لقب العادل حتى قيل إنه لم توجد في عهده مظلمة ودخلت الطمأنينة قلوب الناس، فكان الباعة يطوفون بالتبن والدجاج وسط العسكر لا يخافون بطشهم، ولا يبيعون إلا بما يريدون^(١).

ومن المواقف التي تظهر حرص سلاطين السلاجقة على تحقيق العدل في المجتمع المسلم، ما حدث من السلطان ألب أرسلان عندما بلغه أن غلاماً من غلمانه أخذ إزاراً لبعض أصحابه صلبه فارتدع سائر المماليك به خوفاً من سطوته^(٢).

ومن المواقف التي تدل أيضاً على انتشار العدل في المجتمع السلجوقي ما حدث أن السلطان ملكشاه لقيه سوادياً، وهو يبكي، فاستغاث به، وقال: كنت ابتعت بطيخاً بدريهمات لا أملك سواها، فغلبني عليه ثلاثة نفر من الأتراك، فأخذه مني، فقال السلطان له: اقعد ثم أحضر فراشاً، وقال: قد اشتريت بطيخاً، وكان ذلك عند أول استوائه، وأمره بطلبه من العسكر، فغاب ثم عاد ومعه البطيخ، فأمره بإحضار من وجده عنده، فأحضره، فسأله السلطان من أين له ذلك البطيخ؟ فقال غلماني جاؤوني به، فأمر أن يجيء بهم إليه، فمضى، وأمرهم بالهرب، وعاد فقال: لم أجدهم، فقال للسوادى: خذ مملوكي هذا فقد وهبته لك عوضاً عن بطيخك، أو يحضر الذين أخذوه، والله لئن أطلقته لأضربن عنقك، فأخذه السوادى، فاشتري الغلام نفسه منه بثلاثمائة دينار، فعاد السوادى إلى السلطان، وقال: قد بعته نفسه بثلاثمائة دينار، فقال: أرضيت بذلك؟ قال: نعم، قال: امض مصاحباً^(٣).

فانظر إلى موقف السلطان ملكشاه كيف رفع الظلم عن أحد رعاياه، وأخذ له

(١) انظر السلاجقة تاريخهم السياسى والعسكرى ص ٣٥٠، ٣٥١.

(٢) انظر البداية والنهاية ١٢/١٠٧.

(٣) انظر الكامل في التاريخ ١٠/٢١١، ٢١٢.

حقه، ومثل هذه المواقف من الحكام إن سادت في المجتمع عم العدل أرجاء الدولة، ومن ثم أحب الخلق كلهم الدين الذي يدعو إلى العدل، ويرفع الظلم حتى عن بائع البطيخ.

وانظر إلى موقف آخر يتجلى فيه عدل السلطان ملكشاه على أمرائه: فقد استعداه رجلان من الفلاحين على الأمير خمارتكين أنه أخذ منهما ما لا جزيلا وكسر ثنيتيهما، وقالوا: سمعنا بعدلك في العالم، فإن أقدتنا منه كما أمرك الله وإلا استعدينا عليك الله يوم القيامة، وأخذوا بركابه، فنزل عن فرسه، وقال لهما: خذا بكمي واسحباني إلى دار نظام الملك، فهابا ذلك، فعزم عليهما أن يفعلا، ما أمرهما به، فلما بلغ النظام مجئ السلطان إليه خرج مسرعاً فقال له السلطان: إني إنما قلدتك الأمر لتتصف المظلوم ممن ظلمه، فكتب من فوره بعزل خمارتكين وحل أقطاعه، وأن يرد إليهما أموالهما، وأن يقلعا ثنيتيه إن قامت عليه البينة وأمر لهما السلطان من عنده بمائة دينار^(١).

وكان سلاطين السلاجقة العظام يجلسون لقضاء المظالم تأسيساً بخلفاء بنى العباس مثلما فعل السلطان ألب أرسلان وملكشاه، كما أنابوا أيضاً عنهم من يقوم بهذه المهمة مثل الوزير نظام الملك الطوسي الذي كان يعقد يوماً للمظالم^(٢)، وغير ذلك من أمور تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن السلاجقة اهتموا اهتماماً كبيراً بالعدل، وهذا من الحكمة في السلوك والعمل.

٣ - الاهتمام بقضاء حوائج المسلمين وإنفاق الأموال عليهم:

من السلوك الحميد الذي تقتضيه الحكمة في الدعوة قضاء حوائج المسلمين، والقيام على مصالحهم ورعايتها، فعندما يتحقق للفرد والمجتمع ما يسعى إليه من مأكل ومشرب ومسكن وغير ذلك من أمور الحياة يبذل ما في استطاعته، خدمة لدين الله عز وجل من استجابة لداعي الجهاد في أي وقت، وتنفيذ شرع الله في بيته ومن حوله

(١) انظر البداية والنهاية ١٢/١٤٣.

(٢) انظر السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري ص ٣٥٠.

لأن المجتمع والدولة من حوله يساعده على تحقيق ذلك.

ولقد رغبت الشريعة الإسلامية في هذا، وبينت ما فيه من الخير العميم، والثمار النافعة التي تعود على كل من يهتم بهذا الأمر.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»^(١).

ولقد اهتم السلاجقة -سلاطين ووزراء- بقضاء حوائج المسلمين والقيام على رعايتهم وإنفاق الأموال عليهم، فعلى سبيل المثال كان السلطان ألب أرسلان: «يكثر الصدقة، فيتصدق في رمضان بخمسة عشر ألف دينار، وكان في ديوانه أسماء خلق كثير من الفقراء في جميع ممالكه، عليهم الإدارات والصلوات، ولم يكن في جميع بلاده جناية ولا مصادرة، قد قنع من الرعايا بالخراج الأصلي يؤخذ منهم كل سنة دفعتين رفقاً بهم»^(٢).

وهذا من أجل قضاء حوائج المسلمين، فإنفاق الأموال على الرعية، والرحمة بهم في أخذ الخراج منهم من الحكمة السلوكية بمكان، وكان السلطان ملكشاه: «عمرت في عهده العمارات الهائلة، وبنى القناطر، وأسقط المكوس والضرائب، وحفر الأنهار الكبار، وبنى مدرسة أبي حنيفة والسوق، وبنى الجامع الذي يقال له جامع السلطان

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل

الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، ح رقم ٣٨، ٤/٤٠٧٤.

(٢) انظر الكامل في التاريخ ٧٥/١٠.

ببغداد، وبنى منارة القرون من صيوذه بالكوفة، ومثلها فيما وراء النهر»^(١).
 وأسقط مرة بعض المكوس، فقال له رجل من المستوفين: يا سلطان العالم، إن هذا الذي أسقطته يعدل ستمائة ألف دينار وأكثر، فقال: ويحك إن المال مال الله، والعباد عباد الله، والبلاد بلاده، وإنما أردت أن يبقى هذا لي عند الله، ومن نازعني في هذا ضربت عنقه^(٢).

ولم يقف الأمر عند حد السلاطين فكان وزراء الدولة السلجوقية يهتمون اهتماماً كبيراً برعاية حوائج المسلمين فما هو الوزير نظام الملك كان له: «اهتمام كبير بالمنشآت المدنية وخاصة دور العبادة، فبنى كثير من المساجد في مختلف البلاد الخاضعة للسلاجقة، كما اهتم بعمارة الحرمين الشريفين بمكة والمدينة المنورة، وأقام العديد من الرباطات بالعراق وفارس للعباد والزهاد وأهل الصلاح والفقراء، ورتب لهم ما يحتاجون إليه من غذاء وكساء، كذلك بنى الوزير نظام الملك مارستان «مستشفى» بمدينة نيسابور»^(٣).

فهذا كله إن دل على شئ فإنما يدل على مدى اهتمام السلاطين والوزراء السلاجقة بحاجات المسلمين وما تستلزمه معاشهم، وهذا يعد من السلوك الحميد الذي تقتضيه الحكمة في الدعوة الإسلامية، وما أشد حاجة الأمة إلى مثل هؤلاء بهم تنتشر الدعوة، ويعم الرخاء في المجتمع، وتتنزل البركات من السماء والأرض.

٤ - مساهمة الدعوة لاستجدات الحياة:

من معالم الحكمة في الدعوة هو مساهمة الدولة الإسلامية لركب الحضارة والتقدم، وبالنظر إلى الدولة السلجوقية نجد أن سلاطين ووزراء وعلماء هذه الدولة مزجوا بين الدين والدنيا، فسايروا ركب الحضارة في تقدمها المادي بل وطوروا فيه، وهدفوا من

(١) انظر البداية والنهاية ١٢/١٤٢.

(٢) المرجع السابق ١٢/١٤٣.

(٣) انظر نظام الوزارة في الدولة العباسية ص ١٩٧.

وراء ذلك إنشاء دولة قوية مرهوبة الجانب، خدمة لدين الله وإرهاباً لعدو الله، والمتربصين بالإسلام من الداخل والخارج، وسأتناول مثالين على مدى تقدم هذه الدولة واهتمامها ببواعت النهضة والحضارة، ألا وهما النظام التعليمي والحربي.

أ - النظام التعليمي :

لم يجد العلم والعلماء الاهتمام الكبير من حكام السلاجقة الأوائل بحكم طبيعتهم البدوية، فقد ركزوا على رعاية القوة العسكرية والاهتمام بها بجانب اهتمامات خاصة أخرى، على أن النظام التعليمي أخذ وضعاً آخر منذ عهد السلطان ملكشاه، حيث بدأ الاهتمام بالعلم والتعليم والعلماء، وقد قوى هذا الخط، وتعمق في عصور من جاء بعده من السلاطين^(١).

ولقد مثل إنشاء المدارس النظامية والتي أنشأها الوزير نظام الملك الطوسي في عهد السلطان ألب أرسلان^(٢)، تقدماً كبيراً في النظام التعليمي في ذلك الوقت، لما تحمله هذه المدارس وتتميز به من اتباع الأسلوب التعليمي العلمي في البناء، والمناهج، والإدارة، والسكن، وتقدير المعاليم «المرتبات» للأساتذة والطلاب والعاملين^(٣)، هذا النظام الذي اتبعه الوزير نظام الملك في المدارس النظامية من ناحية بنائها، وفي اختياره للأساتذة والعلماء، وفي مناهج الدراسة وفي توفير الإمكانيات المادية الخاصة بها، هو بحق يوازي النظام الذي تتبعه أرقى الجامعات في العصر الحديث، وقد مهدت المدارس النظامية بتراتها ورجالها وعلمائها السبيل ويسرته أمام نور الدين زنكي والأيوبيين كي يكملوا المسيرة التي من أجلها أنشئت النظاميات، وتتمثل في سيادة الإسلام الصحيح وخاصة في المناطق التي كانت موطناً للنفوذ

(١) انظر الحياة العلمية في العراق ص ٥٢٤، ٥٢٥.

(٢) انظر نظام الوزارة في الدولة العباسية ص ١٩٠.

(٣) انظر الحياة العلمية في العراق ص ٥٢٥.

الباطني في تلك المرحلة، كالشام ومصر وغيرها^(١).

وأنتقل إلى نظام آخر تفوق فيه السلاجقة تفوقاً كبيراً وواكبوا فيه التقدم الموجود في ذلك العصر ألا وهو النظام الحربي.

ب - النظام الحربي:

اهتم سلاطين وأمراء السلاجقة اهتماماً بالغاً بالجيش، لأنه عماد دولتهم، فهم أنفسهم رجال حرب وقاتل وفرسان، عملوا في جيوش السامانيين، والخانيين والغزنويين كجنود وقادة وفرسان.

إلى جانب أن الروح القتالية قد تأصلت فيهم لطول ممارستهم لحياة البداوة القبلية، فأصبح لكل سلطان من سلاطينهم العظام، وكل أمير من حكام الأقاليم التابعين له جيش كبير مدرب، يقوم بتسليحه والإنفاق عليه، والاهتمام به، وأقطعوا جنودهم الإقطاعات بدلاً من الرواتب، ومنذ عهد السلطان طغرلبيك زاد الإهتمام بالجيش، ليزود به عن البلاد التي فتحها، ويحقق سياسته التوسعية في تكوين دولة عظمى^(٢).

ويعتبر الوزير السلجوقي نظام الملك الرأس المدير لتطوير وتدعيم البنية الإدارية في مختلف المجالات، فقد ضمّن كتابه سياست نامه الكثير من هذه النظم التي قامت عليها بناء الإدارة العسكرية عند السلاجقة، وقد أثر فكره الإداري على قادة عصره ومن جاء بعده حتى نهاية القرن الخامس الهجري، حتى عدّه ريجاردكوك أعظم إداري أنجبته آسيا كلها، وقد تأثرت الدولة الزنكية والأيوبية ودولة المماليك فيما بعد بالنظم الحربية عند السلاجقة^(٣).

والحق أن الدولة السلجوقية اتبعت أحدث النظم الحربية الموجودة في ذلك الوقت، وكان هدفها دائماً من إعداد الجيش وتسليحه هو الذود عن هذا الدين وإعلان الجهاد

(١) انظر دولة السلاجقة ص ٣١٥.

(٢) انظر السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري ص ٣٥٣، ٣٥٤.

(٣) انظر دولة السلاجقة ص ٢٢٩.

في سبيل الله، وهذا يعد من معالم الحكمة، فتفوق الأمة الإسلامية دعوة سلوكية للإسلام، ولا يخفى علينا أن العصر الحديث الذي نعيش فيه لا يحترم إلا القوى في جميع المجالات، سواء كانت حربية، أو صناعية، أو زراعية، أو تعليمية، وإذا كنا نريد للإسلام الصحيح أن ينتشر ويسود العالم، فلا بد لأتباع هذا الدين أن يطبقوه، وأن يكون التمسك بهذا الدين روحاً تدفعهم إلى التقدم في جميع المجالات، فالتمثيل الصحيح للإسلام أمام الآخر غالباً ما يكون هو سر احترام الآخر لهذا الدين، فغير المسلم في هذا العصر الحديث أراد له قاداته أن يرى الإسلام من واقع المسلمين المتخلف، لكي يحكم على الدين من خلال أتباعه، ولكننا نعرف جميعاً أن الإسلام حجة على أصحابه، وليس أصحابه حجة عليه.

أثر الحكمة في الدعوة في عهد السلاجقة:

كان للحكمة أثر عظيم في الدعوة في عهد الدولة السلجوقية، وذلك لما قاموا به من حكمة قولية وسلوكية، فأزالوا المنكر، وعم المعروف، وساد بينهم، وظهرت العدالة في أنحاء الدولة، وعم الرخاء، وكثرت الأموال لاسيما في زمن السلاطين العظام قبل أن يقع السلاجقة تحت وطأة الخلاف فيما بينهم، هذا إلى جانب انتشار العلم، وكثرة العلماء الذين حفظوا لهذه الأمة دينها.



المبحث الثاني أسلوب الموعظة الحسنة وأثرها الدعوى

تعريفها في اللغة :

جاء في لسان العرب: «الوعظ، والعِظَة، والعِظَة، والموعظة: النصح والتذكير بالعواقب، قال ابن سيده: هو تذكيرك الإنسان بما يلين قلبه من ثواب وعقاب»^(١).
وفي مختار الصحاح: «الوعظ: النصح والتذكير بالعواقب، وعظه عظة فاتعظ أي قبل الموعظة»^(٢).

وقال صاحب القاموس المحيط: «يعظه وعظاً وعظة وموعظة ذكره بما يلين قلبه من الثواب والعقاب فاتعظ»^(٣).

وفى الاصطلاح: هي القول الذى يلين نفس المقول له لعمل الخير^(٤)، وهى تطلق على القول الحق الذى يلين القلوب ويؤثر في النفوس ويكبح جماح النفوس المتمردة ويزيد النفوس المهذبة إيماناً وهداية^(٥).

إذاً فالموعظة عبارة عن ترغيب: ويقصد به كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه، وترهيب: ويقصد به كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله^(٦).

(١) انظر لسان العرب ٣٤٥/١٥.

(٢) انظر مختار الصحاح مادة (وعظ) ص ٣٨٩.

(٣) انظر القاموس المحيط ٤١٥/٢.

(٤) انظر التحرير والتنوير ٣٢٧/١٣.

(٥) انظر هداية المرشدين ص ٧١.

(٦) انظر أصول الدعوة ص ٤٣٧.

ووصفها بالحسن: يعنى مراعاة الأسلوب المناسب والوقت المناسب والأداة المناسبة أو الوسيلة المناسبة لحال المخاطب^(١).

فاختيار الأسلوب المناسب يعنى مراعاة حال الموعوظ من حيث حاجته إلى الترغيب أو الترهيب، فقد ينذر الواعظ من يحتاج إلى التبشير، وقد يرغب من يحتاج إلى الترهيب، فتقع الموعظة في غير موضعها ولا تتصف بالحسن ولا تحقق المرجو من ورائها.

أما اختيار الوقت المناسب فلأن حال الموعوظ في إقباله وإدباره على الموعظة يتوقف بشكل كبير على فراغه أو شغله في ذلك الوقت، وعلى جوعه أو عطشه وعلى وقت نومه أو استيقاظه، والواعظ الموفق هو الذى يختار أوقات النشاط عند الموعوظين.

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن للقلوب شهوة وإقبالاً وفترة وإدباراً، فخذوها عند شهوتها، وإقبالها، وذروها عند فترتها وإدبارها^(٢).

وأما اختيار الوسيلة المناسبة فقد يكون الدرس أنفع للموعوظ من الخطبة على المنبر، وقد يكون أشد تأثيراً من القول، وقد يكون إعطاء القدوة في موقف معين أبلغ من القول، فعلى الواعظ أن يراعى حال الموعوظ من حيث تأثير القول أو الفعل أو القدوة فيه.

أهمية الموعظة الحسنة:

وأسلوب الموعظة الحسنة له أهمية عظمى في الدعوة إلى الله عز وجل ونستنبط هذه الأهمية من القرآن الكريم، حيث نجد أن كلمة الوعظ قد وردت في كثير من آياته فمن ذلك:

(١) انظر د/عمارة نجيب: فقه الدعوة والإعلام ص ٤٦.

(٢) انظر أبى الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى الماوردي الشافعى المتوفى سنة ٤٥٠هـ: أدب الدنيا والدين ص ٧٤، ط مصطفى البابى الحلبي القاهرة.

قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمُ مَا تَهْتَدَى بِهِ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقْرَءُونَ إِلَّا كَمَا يَقْرَأُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَيْسِ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ فَاذْنَبُوا وَإِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٤).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(٥).

وقوله تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٦).

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾^(٧).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ

(١) سورة النحل آية ١٢٥.

(٢) سورة يونس آية ٥٧.

(٣) سورة البقرة آية ٢٧٥.

(٤) سورة المائدة آية ٤٦.

(٥) سورة النساء آية ٥٨.

(٦) سورة آل عمران آية ١٣٨.

(٧) سورة النساء آية ٦٣.

وَالْمُنْكَرِ وَالْبُغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾.

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة والتي تدل دلالة واضحة على أهمية أسلوب الموعدة الحسنة في الدعوة إلى الله عز وجل، ولأهمية الموعدة الحسنة فقد تناولتها السنة النبوية المطهرة حيث جعلها الرسول ﷺ أساس الدين.

قال رسول الله ﷺ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ، فُلْنَا لِمَنْ؟ قَالَ: لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلَأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»^(٢)، والنصيحة من معاني الموعدة.

وكذلك فقد بايع الصحابة الرسول ﷺ عليها، فعن جرير قال: «بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ»^(٣).

وهكذا تظهر أهمية الموعدة الحسنة في السنة النبوية المطهرة، وكثيراً ما كان النبي ﷺ يعظ أصحابه مواعظ بليغة قد زرفت منها العيون.

طرق الموعدة:

الموعدة الحسنة ذات شقين: موعدة بالقول والرأى، وموعدة بالسلوك والعمل، وقد سلك السلاجقة هذا الأسلوب بشقيه وإليك توضيح ذلك.

الموعدة بالقول والرأى:

الموعدة بالقول هي الأصل، فالقرآن الكريم - وهو موعدة ورحمة -، قول رب العالمين، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَشَاءٌ لِمَنْ فِي الصُّدُورِ

(١) سورة النحل آية ٩٠.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ٧٤/١، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، ح رقم ٥٥.

(٣) أخرجه الإمام البخارى في صحيحه ٣١/١، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، ح رقم ٥٧، ومسلم في صحيحه ٧٥/١، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة ح رقم ٥٦.

وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ^(١)، والأنبياء والرسل وعظوا بالقول، وأفضل الرسل محمد ﷺ وعظ أمته بالقول فهو سيد البلغاء وأمير الفصحاء، وقد تحققت الموعدة بالقول عند السلاجقة فيما يأتي:

١ - في وعظ الأمراء والعوام:

أمر الإسلام الدعاة بموعظة أئمة المسلمين، فعن تميم الدارى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: الدين النصيحة، قلنا لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم^(٢).

قال الإمام النووي: «معاونتهم على الحق، وطاعتهم فيه، وأمرهم به وتنبههم وتذكيرهم برفق ولطف، وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين، وترك الخروج عليهم وتألف قلوب الناس لطاعتهم»^(٣).

ولقد قام علماء الدولة السلجوقية بالنصح والإرشاد لسلاطين السلاجقة، فعندما جلس السلطان طغرلبيك على عرش السلطان مسعود الغزنوي في نيسابور سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٧م، جاء القاضي صاعد^(٤) قاضي نيسابور، فأخذ السلطان بيده، وأجلسه إلى جواره على وسادة، واستمع إلى نصائحه التي جاء فيها: اخش الله عز وجل ذكره، واعدل بين الناس، واستمع للمظلومين، والمساكين، ولا تترك هذا الجيش يظلم الناس فإن الظلم شؤم^(٥).

(١) سورة يونس آية ٥٧.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ٣٨/٢.

(٤) أبو العلاء الإستوائى: صاعد بن محمد بن النيسابورى الحنفى، قاضى نيسابور، ورئيس الحنفية وعالمهم، روى عن إسماعيل بن نجيد وجماعة، وعاش سبعاً وثمانين سنة.

انظر ترجمته فى: شذرات الذهب فى أخبار الذهب ١٥٤/٥، العبر فى خبر من غير ٢٦٤/٢.

(٥) انظر السلاجقة تاريخهم السياسى والعسكرى ص ٣٤٧.

فانظر إلى احترام السلطان طغرلبيك للقاضي الذي أبدى له النصيح، وكذلك بلاغة الموعدة فلقد نصحه نصيحة تقوم عليها الدول، ألا وهي خشية الله، والعدل بين الناس، وحذره من الظلم الذي يهدم الأمم.

وعندما عبر السلطان ألب أرسلان نهر الفرات وهو في فتوحاته ببلاد الشام سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٠م قال له أبو جعفر قاضي حلب: يا مولانا احمد الله تعالى على هذه النعمة، وهي أن هذا النهر لم يقطعه تركي إلا مملوك وأنت قطعته ملكاً، فأحضر الأمراء والأتراك، وأمره بإعادة القول، فأعاده، فحمد الله حمداً كثيراً، وبجل القاضي، وزاد في أعطياته^(١).

فانظر كيف ذكر القاضي السلطان ألب أرسلان بنعمة الله عليه، وأن هذه النعمة تستوجب الشكر، وانظر إلى احترام السلطان للقاضي وتقبله النصيحة منه.

ولم تقف مواضع العلماء للأمراء فقط، بل كانت للوزراء وعامة الناس أيضاً، فعندما دخل نظام الملك وزير السلطان ملكشاه إلى بغداد سنة ٤٨٠هـ ذهب يوم الجمعة إلى جامع المهدي لأداء صلاة الجمعة، فقام أبو سعد بن أبي عمارة فخطب خطبة بليغة^(٢)، وجه فيها الكلام إلى الوزير ووعظه موعظة شديدة بكى من شدتها نظام الملك، بدأها بالحمد لله والصلاة على نبيه، ثم خاطبه بصدر الإسلام، وشرح له بصراحة منزلته من الرعية، وأنها ليست سوى منزلة الأجير الذي باع نفسه، وأخذ ثمنها فهو أجير الأمة، وإن كان وزير الدولة، وقد استأجره السلطان وبسط له في السوط والسيف والقلم، ومكنه في الدينار والدرهم لينوب عنه في الدنيا والآخرة، فليس له من نهاره ما يتصرف فيه حسب اختياره، ولا له أن يصلى نفلًا أو يدخل معتكفاً، وإنما ليمضي الوقت كله في مصالح الناس، لإقامة البذل وإفاضة العدل، لأن هذا فرض لازم، وذلك فضل مستحب، فإذا سئلت يوم القيامة ماذا صنعت في البلاد

(١) المرجع السابق ص ٣٤٧.

(٢) وقد أوردت نص هذه الخطبة في الكلام عن الخطابة في عهد الدولة السلجوقية.

والعباد أفتحسن الجواب؟ وقد اتخذت الأبواب والنواب والحجاب فصدوا القاصد وردوا الوافد، فاعمر قلبك كما عمرت قصرك، ثم يختم خطبته بأى الحشر، وما ينتهى منها حتى يجهز النظام في البكاء، ويبكى بكاء طويلاً، ثم يأمر للخطيب بمائة دينار جزاء صراحته وجراته، فيردها على الوزير قائلاً: إن الفقراء على بابك أكثر منهم على بابي^(١).

ولم يكن الوزير نظام الملك يسمع الموعدة فقط، بل كان يطلبها، ويجل من يذكر له عيوبه ويرفعه فوق غيره من العلماء، وأمثلة ذلك كثيرة فقد ذهب إلى زيارة أبى الحسن الداودى المحدث المتصوف وتواضع معه وقال له: عظنى، فما زاد على قوله: أيها الرجل إن الله سلطك على عبيده، فانظر كيف تجيبه إذا سألك عنهم؟ فبكى بكاءً شديداً^(٢)، وهذا إن دل فإنما يدل على حب الوزير لمثل هذه المواعظ وقبوله لها وإقباله عليها، فهو على استعداد دائم لتقبل المواعظ من العلماء.

ومثال آخر على حب من يذكر له عيوبه ويذكره بالله، فكان الوزير إذا دخل عليه أبو القاسم القشيري وأبو المعالى الجويني قام لهما، وأجلسهما معه في المقعد، فإذا دخل عليه أبو على الفارندى قام وأجلسه مكانه، وجلس بين يديه، فعوتب في ذلك فقال: إنهما إذا دخلا على قالوا: أنت وأنت يطرونى ويعظمونى، ويقولون في ما ليس فى، فأزداد بهما ما هو مركزوز في نفس البشر، وإذا دخل على أبو على الفارندى ذكرنى بعيوبى وظلمى، فأنكسر فأرجع عن كثير من الذى أنا فيه^(٣).

وغير ذلك من المواعظ التي وجهت للسلطين والوزراء السلاجقة من قبل العلماء في ذلك الوقت، ولا شك أنها كانت مواعظ أحييت القلوب، وأيقظت الضمائر، وأنارت الطريق أمام السلطين، فقد حددت الداء، ووصفت الدواء، وهذه هي مهمة العلماء

(١) انظر نظام الملك ص ٢٦٧، ٢٦٨.

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٧.

(٣) انظر البداية والنهاية ١٤٠/١٤.

في كل زمان ومكان.

٢ - الموعظة بالكتابة:

الكتابة نوع من أنواع القول، والكتابة إما أن تكون كتابة رسائل إلى من يريد الداعي دعوتهم إلى الإسلام ونبذ ما يخالفه، وإما أن تكون بتأليف الكتب والأبحاث والمقالات في المجالات وغيرها^(١)، ولا شك أن الكلمة المكتوبة لها تأثيرها الفعال، والعرب تقول: الخط أحد اللسانين، وحسنه إحدى الفصاحتين^(٢).

وقال ابن المقفع: اللسان مقصور على القريب الحاضر، والقلم على الشاهد والغائب^(٣).

فمن الدعاة من له حرفة توصيل الموعظة عن طريق كلمة مكتوبة، فهؤلاء عليهم أن يكتبوا بأسلوب بسيط مفهوم لتصل موعظتهم إلى الناس جميعاً، ولقد كثر التأليف في العصر السلجوقي، وانتشرت الكتب، وصار للكتاب وزنه، واشتملت هذه الكتب على كثير من المواعظ.

ومن العلماء الذين استخدموا الكتابة في الموعظة الإمام أبو حامد الغزالي، فعندما علم بتولى السلطان محمد بن ملكشاه الحكم أرسل له كتاباً يخاطبه فيه قائلاً: اعلم يا سلطان العالم أن بني آدم طائفتين: طائفة غفلاء نظروا إلى مشاهد حال الدنيا، وتمسكوا بتأميل العمر الطويل، ولم يتفكروا في النفس الأخير، وطائفة عقلاء جعلوا النفس الأخير نصب أعينهم، لينظروا إلى ماذا يكون مصيرهم، وكيف يخرجون من الدنيا ويفارقونها وإيمانهم سالم، وما الذي ينزل من الدنيا في قبورهم، وما الذي يتركون لأعاديهم من بعدهم ويبقى عليهم وباله ونكاله^(٤).

(١) انظر أصول الدعوة ص ٤٨٣.

(٢) انظر أدب الدنيا والدين ص ٦٧.

(٣) المرجع السابق ص ٦٧.

(٤) انظر وفيات الأعيان وأنبياء أبناء الزمان ٧٢/٥، ٧٣.

ولا شك أنها موعظة غالية، ودرس يحتذى به في كل زمان ومكان إلى أن تحين الساعة، فقد تجرأ الإمام الغزالي بدعوة السلطان محمد بن ملكشاه ونصحه بعدم الغفلة والاعتزاز بمباهج الدنيا ونسيان الآخرة والأعمال الصالحة التي تنفع صاحبها في آخرته ظناً منه بامتداد العمر، موضحاً له أنه من العقل ألا يتجاهل الإنسان أن الأجل قريب، وأنه لا بد أن يسرع بعمل الأعمال الصالحة ويؤدي ما عليه الله تعالى حتى يخرج من الدنيا كامل الإيمان، فالإنسان لن يأخذ معه إلى قبره إلا العمل الصالح، ثم ينصحه الإمام الغزالي نصيحة غير مباشرة يتفجر من كل حرف منها الحث على جهاد الأعداء، فيخبره أن العقلاء يخططون ويدرسون ما الذي يتركون لأعدائهم من بعدهم ويبقى عليهم وباله ونكاله، أي يجب أن يتخذوا حيل أعدائهم أعمالاً من شأنها أن تظل مؤثرة فيهم حتى بعد أن يموت هؤلاء العقلاء، وتظل آثار أعمالهم في ذاكرة أعدائهم، فكان لهذه النصيحة العظيمة رد فعل كبير عند السلطان محمد بن ملكشاه، فبمجرد أن انفرد بالسلطنة بدأ في بعث حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين^(١).

وقد ذكر بعض المؤرخين أن كتاب الغزالي «التبر المسبوك في نصيحة الملوك» هو عبارة عن توجيهات للسلطان محمد بن ملكشاه الذي كان مستولياً في عهد المستظهر بالله العباسي، خاطب فيه الغزالي السلطان محمد وذكّره بنعم الله عليه، وأهم تلك النعم نعمة الإيمان، وبين له أن للإيمان عشرة أصول، وعشرة فروع: أما أصول الإيمان فهي: اعلم أيها السلطان أنك مخلوق ولك خالق وهو خالق العالم وجميع الكون: اعلم أن الباري تعالى ليس له صورة ولا مثل، إنه على كل شيء قدير، وأن علمه محيط بكل شيء، وأنه سميع بصير، ويقول للشيء كن فيكون، وأمره تعالى على جميع الخلق نافذ، وأن جميع ما في العالم مخلوق له تعالى وليس معه شريك، وبعد الموت حساب وسؤال وصراط وجنة ونار، وجعل الله رسوله ﷺ آخر الأنبياء،

(١) انظر دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى في الجهاد ضد الصليبيين خلال الحركة

وأوصل نبوته إلى درجة الكمال وأمر الخلائق من الإنس والجن بطاعته، وأما فروع شجرة الإيمان فهي: العدل والإنصاف، استماع نصيحة العلماء المخلصين، أن يحارب الظلم من أي جهة صدر، يبتعد عن الغضب، ويميل إلى العفو والكرم والتجاوز، يرضى لنفسه ما يرضاه للمسلمين، قضاء حوائج المسلمين أفضل من نوافل العبادات، أن يبتعد عن الشهوات، الرفق واللطف خير من الشدة والعنف، كسب رضا الرعية ضمن موافقة الشرع، أن لا يطلب رضا أحد بمخالفة الشرع، ومن نصائحه أن يعرف لماذا وجد الإنسان في الدنيا، وأن يعرف مصيره، ثم يحذره من الجور والفساد، وأن يبتعد عن أعمال اللهو كلعب الشطرنج والنرد وشرب الخمر وضرب الكرة والصولجان والصيد؛ لأن ذلك يمنعه من أمور الرعية وعلى السلطان أن يعين رعيته في أوقات الأزمات الاقتصادية، وأن يكون عالي الهمة، وأن يتحلى بالحكمة، وأن يستعمل عقله، ثم ذكر شروط الوزير: أن يكون كاتباً، صالحاً عادلاً، وهو حاجة ملحة، كما يذكر شروط الكاتب ومنها: خفة الروح، عالماً ببراية القلم، وأن يعطى كل حرف حقه، كما يتعرض لخير النساء وهي الولود الخفيفة المهر، صاحبة الديانة والعفاف والستر^(١).

ولم تقف مواظب العلماء عند السلاطين، بل امتدت إلى الوزراء، فما هو الوزير نظام الملك الطوسي يتلقى موعظة مكتوبة من حنبلى بل هو من أشد الحنابلة تعصباً لمذهبه، ذلك هو أبو إسماعيل الهروي الأنصارى^(٢)، فقد بعث برسالة مختصرة يعظ فيها النظام وعظ المريدين، ويرشده إرشاد السالكين، يوصيه فيها بالسعى لرعاية القلوب، وألا يبيع دنياه بأخرته، إذ ليس في الأولى سوى المتاعب والحسرات، وخلص النفس بالعبادة، وتذكر ساعة الموت، وعدم إطالة هوى النفس، واعتبار سلاح العلم سلاحاً وطلبه عزة، لأن المعرفة هي الحصن الحصين في طلب الفضل والحذر من

(١) انظر دولة السلاجقة ص ١٤٥، ١٤٦.

(٢) هو عبد الله بن محمد بن علي بن محمد، أبو إسماعيل الأنصارى الهروي، روى الحديث وصنف، وكان كثير السهر بالليل، وكانت وفاته بهرة في ذي الحجة عن ست وثمانين سنة.

انظر ترجمته في: البداية والنهاية ١٢/١٣٥.

مكايد الأعداء، ثم يطلب منه تجنب الجاهل المغرور، وعدم التحدث بما لم يرو ولا يسمع، وعدم النظر إلى عيوب الناس، لأن محاسبة النفس قبل محاسبة الآخرين، وألا يجعل قلبه مسرحاً للأوهام، وألا يخف من الدراويش، لأن مصاحبة العلماء سعادة في الدنيا والآخرة^(١).

كل هذه الرسائل المكتوبة التي استخدمها العلماء في إيصال ما يريدون إلى من يريدون كان لها أثرها البالغ على الموعوظ سواء كان سلطاناً أو وزيراً أو من عامة الناس، فالكلمة المكتوبة تصل إلى الملايين لاسيما في العصر الحديث، فالكاتب المؤلفة في جميع المجالات تصل إلى كل بيت، وكل حي وكل مدينة، فعلى الداعية أن يستفيد من تأليف الكتب في إيصال الدعوة إلى الآخرين في أسلوب شيق يؤثر في العالم والمتعلم، في الغنى والفقير، في الوزير والغير.

الموعظة الحسنة بالسلوك والعمل:

إن الموعظة بالسلوك والعمل لازمة من لوازم الداعية الذي يريد لدعوته النجاح، وكما يقال: عمل رجل في ألف رجل خير من مقال ألف رجل في رجل، وجاء في مختار الصحاح: السعيد من وعظ بغيره، والشقي من اتعظ به غيره^(٢).

فالموعظة بالسلوك تكون أشد تأثيراً في نفس الموعوظ من الموعظة بالقول، لأن الداعية حول القول إلى فعل يُقتدى به في أصل فعله، وفي كيفية فعله، والناس لا يتأثرون بلسان المقال بقدر ما يتأثرون بلسان الحال، وللدعاة جميعاً الأسوة والقُدوة بسيد الدعاة جميعاً محمد ﷺ فما أمر أصحابه بشيء إلا كان أول القائميين به، ولذلك قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾^(٣)، والموعظة بالعمل تتحقق بإزالة منكر أو فعل معروف مثل بناء مسجد

(١) انظر نظام الملك ص ٢٦٨.

(٢) انظر مختار الصحاح ص ٣٨٩.

(٣) سورة الأحزاب آية ٢١.

أو مدرسة أو نحو ذلك مما يسهل أو يحقق إقامة شرع الله عز وجل^(١)، ولما للوعظ العملى من أهمية بالغة في الدعوة الإسلامية، اهتم السلاجقة في وعظهم بالسلوك والعمل، ولقد تحقق منهم ذلك فيما يلى:

١- الرغبة في الآخرة، والزهد في الدنيا وعدم التعلق بها:

ولقد بدا ذلك جلياً عند سلاطين الدولة السلجوقية ووزرائها وخاصة في زمن تولى السلاطين العظام أمر هذه الدولة، فكانت رغبتهم إعلاء شأن الدين ورفع رايته عالية خفاقة، وكان حالهم دائماً ينبئ عن زهد في الدنيا ورغبة في الآخرة، فهذا هو السلطان طغرلبيك يصفه ابن الأثير بقوله: «وكان رَجْمَهُ اللهُ، يحافظ على الصلوات، ويصوم الإثنين والخميس، وكان لبسه الثياب البياض»^(٢)، وهذا وإن دل فإنما يدل على التزامه بالشرع وإعطائه القدوة لغيره.

وها هو السلطان ألب أرسلان عندما وقع في غرور الدنيا وتعلق بها خانته، فعندما جرحه يوسف الخوارزمي سنة ٤٦٥هـ، قال: ما من وجه قصدته، وعدو أردته، إلا استعنت بالله عليه، ولما كان أمس صعدت على تل، فارتجت الأرض تحتي من عظم الجيش وكثرة العسكر، فقلت في نفسي: أنا ملك الدنيا، وما يقدر أحد علي، فعجزني الله تعالى بأضعف خلقه، وأنا أستغفر الله تعالى، وأستقيله من ذلك الخاطر^(٣)، هذا هو السلطان الذى دعا الله تعالى في معركة ملاذكرد سنة ٤٦٣هـ وكان في خمسة عشر ألف جندى، وعدوه يزيد على مائتى ألف جندى، فنصره الله تعالى، والآن هو في مائتى ألف جندى فما أغنوا عنه من الله شيئاً وقتل على يد عدوه الضعيف بسبب كبر وغرور دخلا على قلبه، الذل لله تعالى يصنع النصر، والغرور يصنع الهزيمة، وهذا يعطينا عظة وعبرة أن كل من استقوى بغير الله عز وجل وغرته الدنيا،

(١) انظر أصول الدعوة ص ٤٨٢.

(٢) انظر الكامل في التاريخ ٢٨/١٠.

(٣) المرجع السابق ٧٣/١٠، ٧٤.

لا ينفعه من ذلك شئ وإن ملك الدنيا.

وإذا انتقلنا إلى الوزراء فنجد أن الوزير نظام الملك كان واعظاً بسلوكه وعمله، وبدا ذلك في قيامه بالأعمال التي تبدي رغبته في الآخرة، وعدم الإقبال على الدنيا.

فكان يقول: «كنت أتمنى أن يكون لي قرية خالصة، ومسجد أتفرد فيه لعبادة ربي، ثم بعد ذلك تمنيت أن يكون لي قطعة أرض أتقوت بريعتها، ومسجد أعبد الله فيه، وأما الآن فأنا أتمنى أن يكون لي رغيف كل يوم، ومسجد أعبد الله فيه.

ومن تواضعه وإعطاء القدوة لغيره: كان ليلة يأكل الطعام، وبجانبه أخوه أبو القاسم، وبالجانب الآخر عميد خراسان، وإلى جانب العميد إنسان فقير، مقطوع اليد، فنظر نظام الملك، فرأى العميد يتجنب الأكل مع المقطوع، فأمره بالانتقال إلى الجانب الآخر، وقرب المقطوع إليه فأكل معه، وكانت عادته أن يحضر الفقراء طعامه، ويقربهم إليه، ويدنيهم»^(١).

وكان دائم الخشية من عقاب الآخرة حتى خطر له يوماً أن يدون خلاصة سيرته في رقعة، يشهد فيها علماء عصره ثم يضعها معه، فلما وصلت إلى أبي إسحاق الشيرازي كتب فيها «حسن خير الظلمة» فلم يشهد هذا التوقيع حتى بكى، وقال: «ما كتب أحد من هؤلاء العظماء أصدق مما كتبه أبو إسحاق»^(٢).

هكذا كان سلاطين ووزراء الدولة السلجوقية كانوا يعظون الناس بسلوكهم وأعمالهم التي تتنافى مع الطمع الدنيوي وتتفق مع البقاء الأخرى.

ومما يدل أيضاً على السلوك والعمل الوعظي للسلاجقة.

٢ - بناء المساجد والمدارس والوعظ فيها :

اهتم السلاجقة اهتماماً كبيراً ببناء المساجد وخاصة الوزير نظام الملك الطوسي، حيث بنى كثيراً من المساجد في مختلف البلاد الخاضعة للسلاجقة، كما اهتم بعمارة

(١) المرجع السابق ٢٠٩/١٠، ٢١٠.

(٢) انظر نظام الملك ص ٢٦٦.

الحرمين الشريفين بمكة والمدينة المنورة^(١)، واستخدمت هذه المساجد للوعظ والتدريس حيث درسوا فيها جميع العلوم وشتى المعارف الدينية والدنيوية، كما اهتم السلاجقة ببناء المدارس والتي عرفت باسم النظامية نسبة إلى مؤسسها نظام الملك، وكانت هذه المدارس تستخدم أيضاً للخطابة والوعظ والمناظرة، فقد ذكر ابن خلكان: أن الوزير نظام الملك عهد بنظامية نيسابور للإمام الجويني ليجلس للخطابة والوعظ والمناظرة^(٢).

وهكذا كانت مهمة المساجد والمدارس في العصر السلجوقي، فقد تولى العلماء دروس الوعظ بها، ولقد كان لهذه الدروس أكبر الأثر في تثقيف وتوعية المسلمين في العصر السلجوقي، والأخذ بأيديهم إلى طريق الله عز وجل وهذا يدل على السلوك والعمل الوعظي للسلاجقة.

أثر الموعظة الحسنة في الدعوة في عهد السلاجقة :

لقد كان لأسلوب الموعظة الحسنة أثر بالغ في الدعوة في عهد السلاجقة؛ لأن العلماء في ذلك العصر استطاعوا أن يرغبوا الناس وخاصة السلاطين في طاعة الله ورسوله، وأن يرهبهم من آثار المعصية، مذكرين إياهم بالحساب يوم القيامة، وأن العبد إنما يحاسب وحده سواء كان سلطاناً أو وزيراً، فلا يغنى هذا عن ذلك، ولا ذلك عن هذا، وذلك من خلال مواظب كانت تذرف منها العيون وتتشعر منها الأبدان، حتى نجد أن الإمام الغزالي عندما علم بتولى السلطان محمد بن ملكشاه السلطنة، بعث إليه كتاباً يذكره فيه بالله، ويحثه على عمل شئ يكون له به ذكر عند الله وعند الناس، ونجد دائماً أن العلماء كانوا يتخيرون الأوقات المناسبة لموعظتهم حتى يقع تأثيرها بقوة على القلوب، فها هو العالم أبو سعد بن أبي عمارة ما إن علم أن الوزير نظام الملك دخل بغداد سنة ٤٨٠ هـ وجاء إلى المسجد ليحضر الجمعة، حتى وجه إليه

(١) انظر نظام الوزارة في الدولة العباسية ص ١٩٧.

(٢) انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ١٦٨/٣.

كلمات ذرفت منها عيون نظام الملك، وهذا كله كان له أثره على الدعوة، فصلاح الحكام فيه صلاح للرعية، وله أثر كبير على مسيرة الدعوة. وخلاصة القول: أن أسلوب الموعدة الحسنة كان له أثر بالغ في نشر الدعوة في عهد الدولة السلجوقية، وكان سبباً في رواجها وازدهارها.



المبحث الثالث

أسلوب المجادلة بالتي هي أحسن وأثرها الدعوى

ثالث أساليب الدعوة إلى الله عز وجل والتي حددها الله تعالى: «المجادلة بالتي هي أحسن».

تعريف المجادلة:

الجدل في اللغة: اللدد في الخصومة والقدرة عليها.....، وجادله: أي خاصمه، مجادلة، وجدالاً، والاسم الجدل: وهو شدة الخصومة^(١).

وفى جمهرة اللغة: الجدل: مصدر جدلت الحبل أجذله، وأجذله إذا فتلته.....
وجادلت الرجل مجادلة وجدالاً إذا خصمته، والاسم الجدل، ورجل جدل: شديد الجدل^(٢).

تعريف المجادلة في الإصطلاح:

هي أدلة كافية يوردها الداعي ليلزم الخصم ويقحمه ويجعله يؤمن بالمدعى^(٣).
والمجادلة عبارة عن: «قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدرح في كلامه ونسبته إلى القصور والجهل فيه وآية ذلك أن يكون تنبيهه للحق من جهة أخرى مكروها عند المجادل يحب أن يكون هو المظهر له خطأ ليبين به فضل نفسه ونقص صاحبه ولا نجاة من هذا إلا بالسكوت عن كل ما لا يأتهم به لو سكت عنه»^(٤).

(١) انظر لسان العرب ٢/٢١٢.

(٢) انظر ابن دريد: جمهرة اللغة ١/٤٤٨، ط دار العلم للملايين، تحقيق د/منير رمزي بعلبك.

(٣) انظر التبصرة فيما بين الدعوة إلى الله والنفس الإنسانية من أصره ص ١٢٢.

(٤) انظر أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين ٣/١٤٧، ط المكتب الثقافى.

أهمية الجدل بالتي هي أحسن:

أسلوب الجدل بالحسنى له أهمية عظيمة في الدعوة إلى الله تعالى، ونستنبط هذه الأهمية من القرآن الكريم، حيث ذكرت كلمة «جدل» بين كثير من آياته، كما ضرب لنا ربنا عز وجل نماذج من مجادلة الكفار لأنبيائه ورسله.

فمن الآيات التي ذكرت فيها كلمة جدل:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَرُهًا مِمَّا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُوكَ تَقَالِبُهُمْ فِي الْبَلَدِ﴾^(٤).

وجدل نوح عليه السلام مع قومه قال تعالى: ﴿قَالُوا يَنْبُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَا كَثُرَتْ حِدَلْنَا فَأَتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٥).

وذكر لنا جدل النمرود مع الخليل إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿الْمُرْتَلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ

(١) سورة العنكبوت آية ٤٦.

(٢) سورة النحل آية ١٢٥.

(٣) سورة غافر آية ٣٥.

(٤) سورة غافر آية ٤.

(٥) سورة هود آية ٣٢.

وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾.

المجادلة بالحسنى عند السلاجقة:

المجادلة والمناقشة يكونان بين شخصين أو أكثر يعرض كل جانب وجهة نظره فيما يراه ويعتقده من أمور^(٢)، وقد تجلى أسلوب المناظرة والمجادلة عند السلاجقة في مجادلة علماء الأمة في ذلك الوقت مع بعضهم البعض، هذا من جانب، ومن جانب آخر المجادلات بينهم وبين دعاة الإسماعيلية، وقد انتشرت المجادلات والمناظرات في عصر السلاجقة وذلك لعدة أسباب منها:

(١) كثرة المدارس التي شيدت للمذاهب الأربعة: وكان علماء المذاهب يدخلون بين بعضهم البعض في مناظرات شديدة إلى حد حدوث الفتن والاضطرابات، فعلى الرغم من أن هذه المناظرات كانت تتناول موضوعات متعددة من النحو والصرف واللغة، لكن أكثر ما يؤدي منها إلى التخريب والفتن هي المناظرات التي تدور حول الفقه والمسائل الدينية، ومثال ذلك الفتنة التي حدثت سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٥م عندما اتفق الشافعية والحنابلة على الكرامية من علماء الكلام - بخصوص مسألة صفات الله - وفيها خربت كثير من المدارس، وقتل كثير من الطرفين.

(٢) أن السلاجقة كانوا يختارون بعض المدرسين للتدريس في تلك المدارس ممن ذاع صيتهم وتفوقهم في المناظرات العلمية، فعندما أعجب نظام الملك بتفوق الغزالي على مناظريه عهد إليه بالتدريس في النظامية^(٣)، وقد بلغت مجالس المناظرة في عصر السلاجقة من البراعة في المناقشة والحرية في إبداء الرأي

(١) سورة البقرة آية ٢٥٨.

(٢) انظر أصول الدعوة ص ٤٧٨.

(٣) انظر أثر الحضارة السلجوقية في دول شرق العالم الإسلامي على الحضارتين الأيوبية والمملوكية بمصر ١/١٣٥، ١٣٦.

والإصغاء لسماع الدليل، ما تسير عليه المجامع العلمية في عواصم العالم المتحضر اليوم من جدل وحجاج وفق المنهج العلمي، حتى صارت المناظرة علماً له قواعده وآدابه ومؤلفاته^(١).

(٣) وكان من أهم أسباب تشجيع السلاجقة على انتشار المناظرات العلمية هو اتخاذها وسيلة هامة من الوسائل العقلية المنظمة والفعالة في نفس الوقت للرد على معتنقى المذهب الشيعي، ومن أمثلة ذلك أن السلطان ملكشاه قد استدعى الإمام الغزالي ليناظر رئيس الشيعة الإسماعيلية «الحسن بن الصباح» فناظرهم وأجاب على مسألتهم وألف في ذلك كتاباً للرد عليهم بعنوان «المستظهرى في الرد على الباطنية»^(٢).

هذه هي بعض الأسباب التي أدت إلى انتشار المناظرات في العصر السلجوقي، وقد تجلى أسلوب المجادلة عند السلاجقة في مجادلتهم لطائفة الإسماعيلية في عهد السلطان ملكشاه، فكانت سياسته تجاه حركة الحسن بن الصباح تتراوح بين المهادنة لهم حيناً ومقاومتهم حيناً آخر، فعندما استولى الحسن بن الصباح على قلعة ألموت في عام ٤٨٣هـ، أرسل له ملكشاه الإمام أبو يوسف يعقوب بن سليمان وكان فقيهاً عالمياً بالأصول على مذهب أهل السنة لمناظرتهم، ولكن يبدو أن هذه المناظرة لم تحقق الهدف الذى تطلع إليه ملكشاه من محاولة إقناعهم بالحكمة والموعظة الحسنة^(٣)، فلجأ السلطان ملكشاه إلى أسلوب التهديد باستخدام القوة في رسالة^(٤) بعث بها إلى الحسن بن الصباح اتهمه فيها بإغواء الناس وخروجه على ولى عصره، وطعنه بخلفاء بنى العباس الذين هم قوام الدين والدولة التي ستحيل قلعه أرضاً يباساً

(١) انظر نظام الملك ص ٢٦٢.

(٢) انظر أثر الحضارة السلجوقية في دول شرق العالم الإسلامي على الحضارتين الأيوبية والمملوكية بمصر ١/١٣٥، ١٣٦.

(٣) انظر د/الصلابي: دولة السلاجقة ص ١١٣.

(٤) وقد أوردت نص هذه الرسالة في كلامي عن الحكمة وأثرها في الدعوة.

وقاعاً خراباً^(١)، فلما قرأ الكتاب بحضرة الرسول قال لمن حوله من الشباب: إني أريد أن أرسل منكم رسولاً إلى مولاة، فاشرأبت وجوه الحاضرين، ثم قال لشاب منهم: اقتل نفسك، فأخرج سكيناً فضرب بها غلصمته فسقط ميتاً، وقال لآخر منهم: الق نفسك من هذا الموضع، فرمى نفسه من رأس القلعة إلى أسفل خندقها فتقطع^(٢)، ثم التفت إلى رسول السلطان فقال: أخبره أن عندي من هؤلاء عشرين ألفاً هذا حد طاعتهم لي، وهذا هو الجواب، فعاد الرسول إلى السلطان ملكشاه، فأخبره بما رأى، فعجب من ذلك وترك كلامهم^(٣)، ولم يكتف الحسن بن الصباح بذلك بل بعث برسالة إلى السلطان ملكشاه شرح له فيها أحواله وشيئاً عن دينه....، ويثبت له أنه على دين الإسلام ثم يدلى بالشهادتين، وأنه يعتقد بأن: (أولاد النبي أحق بخلافة أبيهم من أولاد العباس وأليق بها من غيرهم)، ثم يتهم النظام بأنه خصم قوى يجعل الباطل حقاً والحق باطلاً وأنه هو الذى أوقع بينهما فاضطر للسفر إلى بغداد ومنها إلى مصر حيث التقى بالإمام المستنصر بالله، وسلمه منشور (مرسوم) الدعوة ورجع ليدعو إلى المذهب الذى كان لدى الصحابة في زمن الرسول، ويدفع شر بنى العباس، ثم يعلن عصيانه لهم، وخروجه على دولتهم لأنها قامت على التزوير والتدليس، والفسق والتلبيس، ويورد له دليلاً على عدم وفائهم بمقتل أبى مسلم الخراسانى وكيف غدروا به وشردوا الألوفاً من أبناء الرسول، وفتكهم بآل برمك ودليلاً آخر على فسادهم بإشاعة الخمر والزنا واللواط عندهم، ودليلاً ثالثاً هو حجرهم على العقول بضرب أبى حنيفة مائة جلده وصلب الحلاج، ثم يعود للحديث عن النظام بعد كلام طويل فيتهمه بقتل الكندرى الذى يطرى على خلقه وعلمه وإخلاصه، كما يتهم النظام بالإسراف على شراء الطين والأجر قاصداً بناء المدارس والعمائر في أطراف المملكة، بينما كان الكندرى يوصل الأموال إلى خزينة السلطان ولا يصرف منها شيئاً على الخشب والطين، ثم يختم

(١) انظر نظام الملك ص ٣١٦.

(٢) انظر البداية والنهاية ١٥٩/١٢، ١٦٠.

(٣) انظر المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٦٤/١٧.

رسالته بالتسليم للسلطان ولكن بعد الخلاص من خصومه، إذ لا يمكن الحضور للخدمة بوجودهم واستماعه لأوامر بنى العباس الذين يريدون القضاء عليه، ولئن اضطر لإرسال جيش إليه تنفيذاً لإرادتهم وتقديراً لتقولات المغرضين فإنه لا يعذر في شرع المرءة، ثم يجيب على هذا التهديد بما يساويه إن لم يكن أقوى منه حجة وبأسلوب متين فيقول: بأن لديه من الأحاب والمؤانسين والشيعية والعلويين في طبرستان وقهستان والجمال عدد كبير سيقف في وجه جيوشه وحينئذ لا يعلم كيف تنتهى الحرب لأن مريديه في سرستك - يقصد - الموت - يعتقدون بأن هذا البرج لا يخرج من أيديهم إلى زمن بعيد متعلق بعناية الله^(١).

وقد كان من نتائج هذه الرسالة - كما نعتقد - أن السلطان ملكشاه قد تأثر بها فزلزلت عقيدته وغيّرت من وجهة نظره نحو الخلافة والخلفاء من بنى العباس، وبالتالي نحو ابن الصباح نفسه، فشهدناه يؤجل إرسال الجيش لحصاره إلى سنة أخرى وقيل سنتين، وتشيع حول ميوله الباطنية الشبهات، وتشير إليه النصوص المتناثرة هنا وهناك^(٢)، ويذهب إلى بغداد ينذر الخليفة بتركه العاصمة إلى حيث يشاء^(٣)(٤).

وفى محاولة للباطنية هدم شرعية قتالهم عندما شدد السلطان محمد بن ملكشاه عليهم في الحصار سنة ٥٠٠هـ، فكتبوا فتوى يقولون فيها: (ما يقول السادة الفقهاء أئمة الدين في قوم يؤمنون بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن ما جاء به محمد ﷺ، حق وصدق، وإنما يخالفون في الإمام: هل يجوز للسلطان مهاندتهم وموادعتهم، وأن يقبل طاعتهم، ويحرسهم من كل أذى؟ فأجاب أكثر الفقهاء بجواز ذلك، وتوقف بعضهم، فجمعوا للمناظرة، ومعهم أبو الحسن علي بن عبد الرحمن

(١) انظر نظام الملك ص ٣١٦، ٣١٧.

(٢) فقد ذكر ابن الجوزي عن ابن عقيل أن السلطان ملكشاه كان قد فسدت عقيدته بسبب معاشرته لبعض الباطنية ثم اتصل ملكشاه من ذلك ورجع إلى الحق. انظر البداية والنهاية ١٢/١٤٣.

(٣) انظر نظام الملك ص ٣١٩.

(٤) انظر د/الصلابي: دولة السلاجقة ص ١١٩.

السمنجاني، وهو من شيوخ الشافعية، فقال: بمحضر من الناس، يجب قتالهم، ولا يجوز إقرارهم بمكانهم، ولا ينفعهم التلطف بالشهادتين، فإنهم يقال لهم: أخبرونا عن إمامكم، إذا أباح لكم ما حظره الشرع، أو حظر عليكم ما أباحه الشرع أتقبلون أمره؟ فإنهم يقولون نعم، وحينئذ تباح دماؤهم بالإجماع، وطالت المناظرة في ذلك، وفي محاولة أخرى كان الهدف منها التعلل والمطالبة سأل الباطنية السلطان محمد بن ملكشاه أن يرسل إليهم من يناظرهم، وعينوا على أشخاص من العلماء منهم القاضي أبو العلاء صاعد بن يحيى، شيخ الحنفية بأصبهان، وقاضيتها، وغيره، فصعدوا إليهم وناظروهم، وعادوا كما صعدوا^(١).

وهكذا نرى أن الباطنية حاولوا بكل الطرق هدم شرعية قتالهم، وإنما كان الغرض من ذلك كسب الوقت كي يستعيدوا قواهم، بعدما أنهكهم الحصار المفروض عليهم من قبل السلطان محمد بن ملكشاه، ولم يتوقف علماء هذه الأمة عن مجادلتهم لطائفة الإسماعيلية، ففندوا أفكار وأراء هذه الطائفة، فظهر خلال هذا القرن من كتب الفرق باللغتين الفارسية والعربية مثل:

(١) الفرق بين الفرق: للبغدادى ٤٢٩هـ/١٠٢٧م^(٢).

(١) انظر الكامل في التاريخ ٤٣٢/١٠، ٤٣٣.

(٢) هو عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الأسفراييني، أبو منصور، ولد في مدينة بغداد بالعراق وكانت نشأته بها، وعندما أصبح فتى سافر مع أبيه إلى خراسان، واستقر معه في نيسابور، وبها صحب العلامة أبا إسحاق بن محمد الإسفراييني، وتلقى عنه العلم، ولا سيما علم أصول الدين الذي كان مناط اهتمامه منذ البداية ثم أصبح فيما بعد عالماً كبيراً يحتل مكان الصدارة بين كبار المصنفين في هذا العلم، خلف شيخه أبا إسحاق وحصل على كرسى الأستاذية من بعده في مسجد عقيل، وقد التقت حوله عدد من الطلبة النابهين مثل ناصر المروزي وأبي القاسم القشيري اللذين أصبحا من كبار العلماء في الأصول، وقد ساعد عبد القاهر على التفرغ للعلم ما تركه له أبوه من ثروة ومال، مما أراح عنه كثيراً من هموم المعيشة وشواغلها ومكنه من عدم الاكتساب بعلمه، توفي سنة ٤٢٩هـ بإسفرايين، وقد خلف له مصنفات عديدة في فنون شتى، ولكن الكثير منها يدور في نطاق علم أصول الدين =

- (٢) الفصل في الملل والنحل: لابن حزم ت ٤٥٦هـ/١٠٦٣م^(١).
- (٣) بيان الأديان بالفارسية: لأبي المعالي ت ٤٨٥هـ/١٠٩٢م.
- (٤) الملل والنحل: للشهرستاني ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م^(٢).
- (٥) ثم يجيء الخليفة المقتدى فيكلف الإمام الغزالي بوضع كتاب في الرد عليهم، فيرسل إليه كتاب (فضائح الباطنية)، و(فضائل المستظهيرية)^(٣)، كما أرسل

= محور اهتمامه الأساسي، نذكر منها: أصول الدين، وفضائح القدرية، والإيمان وأصوله، والملل والنحل، والصفات، ونفى خلق القرآن، وفضائح الكرامية، وإبطال القول بالتولد، وتفسير أسماء الله الحسنی.

انظر ترجمته في: الإمام أبي منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي: الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم عقائد الفرق الإسلامية وآراء كبار أعلامها ص ٧، ٨، دراسة وتحقيق محمد عثمان الخشت، طبعة مكتبة ابن سينا القاهرة ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

(١) ابن حزم الظاهري: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن معدان بن سفيان بن يزيد، مولى يزيد بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس الأموي، وجده يزيد أول من أسلم من أجداده، وأصله من فارس، وجدته خلف أول من دخل الأندلس من آباءه، ومولده بقرطبة من بلاد الأندلس سنة ٣٨٤هـ، وكان حافظاً عالماً بعلوم الحديث وفقهه، مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة بعد أن كان شافعي المذهب، فانتقل إلى مذهب أهل الظاهر، وكان متقناً في علوم جمة، عاملاً بعلمه، زاهداً في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له ولأبيه من قبله في الوزارة وتدبير الممالك، متواضعاً ذا فضائل جمة وتوالت كثيرة، وجمع من الكتب في علوم الحديث والمصنفات والمسندات شيئاً كثيراً، فمن كتبه: الإحكام لأصول الأحكام، الفصل في الملل والأهواء والنحل، وكتاب في الإجماع ومسائله على أبواب الفقه، وكتاب في مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض، توفي ببادية ليلة من بلاد الأندلس سنة ٤٥٦هـ.

انظر ترجمته في: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٣/٣٢٥-٣٣٠.

(٢) انظر نظام الملك ص ١٠٧، ١٠٨.

(٣) ومما قاله الإمام الغزالي في كتابه فضائح الباطنية: إن مذهب الباطنية مذهب ظاهرة الرفض وباطنه الكفر المحض. انظر الإمام أبي حامد الغزالي: فضائح الباطنية ص ٣٧، قدم له عبد الرحمن بدوي، ط الدار القومية للنشر سنة ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م.

السلطان ملكشاه يمثل هذا التكليف فصنف له كتاباً بالعجمية سماه (حجة الحق)، ثم ألف (القسطاس المستقيم)، و(المنقذ من الضلال) لنفس الغرض^(١). ولقد ساهم نظام الملك وهو المسئول الأول عن توجيه سياسة دولة السلاجقة، والمؤثر الفعال في سياسة الدولة العباسية، في مواجهة مثل هذه الحركات، ذلك أنه لم يكن من السهل إيقاف الدعوة الباطنية من الانتشار؛ لأن جذورها قد تغلغلت في المجتمع الإسلامي، وخاصة بين العامة وأصحاب الحرف، فحارب هذه الحركة بنفس سلاحها، ذلك أنه استهدف من وراء التوسع في بناء المدارس النظامية في العالم الإسلامي نشر علوم الشريعة وتصحيح العقيدة ومناقشة مسائل الخلاف بأساليب المنطق التي اقتصر استعمالها قبل ذلك على الشيعة^(٢)، ولم يكتف نظام الملك بذلك بل أراد أن يغمس قلمه في مداد المؤلفين، وأن يسايرهم في حركة الكتاب والناشرين، فما أن طلب إليه السلطان ملكشاه أن يضع دستوراً في إدارة المملكة حتى يستغل هذه المناسبة فيلفت نظره إلى خطر الباطنية في أكثر من موضع في كتابه - السياسة - ثم يفرد لبيان مخاطرتهم وضرورة القضاء عليهم تسعة فصول أرجعهم فيها إلى المزدكية وربط بينهم وبين القرامطة والفاطميين ودعاهم فيها بذوى المبادئ الخبيثة تارة والمخرية تارة أخرى^(٣).

وهكذا اضطر أتباع الباطنية للهروب إلى الجبال البعيدة في أقصى شمال شرق الدولة الإسلامية، ولم يتم القضاء عليهم بشكل نهائي إلا في سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م على يد المغول.

(١) انظر نظام الملك ص ١٠٧، ١٠٨.

(٢) انظر الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ص ٢٥٧، ٢٥٨.

(٣) انظر نظام الملك ص ١٠٩.

أثر أسلوب المجادلة بالتي أحسن في الدعوة في عهد السلاجقة :

لا شك أنه كان لهذا الأسلوب أثر بالغ في الدعوة في عهد الدولة السلجوقية، وذلك من عدة وجوه:

- (١) كان لهذا الأسلوب أثر عظيم في تطوير فكر المناظرات بين العلماء في دولة السلاجقة، حتى لدرجة أن هذه المجالس كانت تعقد أحياناً لسماع فكرة جديدة، فيحضرها لفيف من مشاهير علماء الطوائف الأخرى، فيستمعون لصاحب النظرية الجديدة ويناقشونها^(١)، وهذا بلا شك له أثر في رواج الدعوة الإسلامية من إظهار للحقائق، وانتشار للفكر الصحيح بين العلماء، وتوصيل هذا الفكر الجديد إلى الناس عن طريق ما يكتبه هؤلاء العلماء من كتب وما يلقونه من محاضرات وندوات.
- (٢) وقد ظهر أثر هذا الأسلوب جلياً في مجادلة العلماء في الدولة السلجوقية لطائفة الإسماعيلية سواء كانت هذه المجادلات علنية، أو من خلال الكتب التي ظهرت، وفندت فكر هذه الطائفة.
- (٣) ساهم أسلوب المجادلة بالحسنى - أيضاً - في محو آثار الباطنية فهو حلقة من حلقات الكفاح ضدهم هذه الطائفة، واستراح المسلمون من شرهم بل استراح العالم كله، لأن بقاءهم يعتبر شوكة في حلق المسلمين، فهم أبدأً مع كل عدو خارجي، وأما في الداخل فهم يزعزعون الأمن والطمأنينة فيعيش الناس في خوف ورعب، فهم أشد خطراً من المنافقين على وحدة الصف الإسلامي^(٢).

(١) انظر نظام الملك ص ٢٦٣.

(٢) انظر أيعيد التاريخ نفسه ص ٩٩.

فهرس المصادر والمراجع

- (١) القرآن الكريم.
- (٢) آثار البلاد وأخبار العباد: زكريا بن محمد بن محمود القزويني، ط دار صادر بيروت، بدون تاريخ.
- (٣) أثر الحضارة السلجوقية في دول شرق العالم الإسلامي على الحضارتين الأيوبية والمملوكية بمصر: د/منى محمد بدر محمد بهجت، ط مكتبة زهراء الشرق القاهرة الأولى سنة ٢٠٠٢م.
- (٤) أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين: عبد السلام الترماني، الأولى ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- (٥) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: شمس الدين أبي عبد الله محمد المقدسي المعروف بالبشاري، ط ليدن الطبعة الثانية سنة ١٩٠٩م، نشرها دار صادر بيروت.
- (٦) الأحكام السلطانية والولايات الدينية: أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصرى البغدادي الماوردي، ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان الأولى سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- (٧) أحكام القضاء والجهاد في الفقه الإسلامي (دراسة مقارنة): د/علي عبده محمد علي، د/محمد شكرى الجميل العدوى.
- (٨) إحياء علوم الدين: أبو حامد الغزالي، ط المكتب الثقافى.
- (٩) أخبار الدولة السلجوقية: لصدر الدين أبي الحسن علي بن أبي الفوارس ناصر الدين بن علي الحسيني، ت/محمد إقبال، دار: الآفاق الجديدة بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.

- (١٠) أدب الدنيا والدين: أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصرى الماوردي الشافعى المتوفى سنة ٤٥٠هـ، ط مصطفى البابى الحلبي القاهرة.
- (١١) أساس البلاغة: الإمام أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الأولى سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- (١٢) الإسلام عقيدة وشريعة: الإمام الأكبر محمود شلتوت، ط دار الشروق.
- (١٣) الإسلام في ققص الاتهام د/شوقى أبو خليل، دار الفكر، دمشق، ط رابعة ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.
- (١٤) أصول الدعوة: د/عبد الكريم زيدان، ط مؤسسة الرسالة، بيروت، بدون تاريخ.
- (١٥) أصول الفقه: الإمام محمد أبو زهرة، ط دار الفكر العربى القاهرة سنة ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
- (١٦) أطلس تاريخ الإسلام: د/حسين مؤنس، ط دار الزهراء للإعلام العربى، القاهرة، الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- (١٧) الأعلام: خير الدين الزركلى، ط دار العلم للملايين سنة ١٩٨٠م.
- (١٨) أهل الذمة في العراق في العصر العباسي (الفترة السلجوقية نموذجاً): د/يحيى أحمد عبد الهادى حسين، ط عالم الكتب الحديث أربد - الأردن، الأولى سنة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
- (١٩) إيران والعراق في العصر السلجوقي د/عبد النعيم محمد حسنين، طبعة دار الكتاب المصري القاهرة، الطبعة: الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢ م.
- (٢٠) أيعيد التاريخ نفسه: دراسة لأحوال العالم الإسلامى قبل صلاح الدين مقارنة مع تاريخنا المعاصر: محمد العبدية، سلسلة تصدر عن مجلة البيان، الثالثة ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

- (٢١) البداية والنهاية: الإمام الحافظ ابن كثير، ط المعارف بيروت سنة ١٩٧٢م.
- (٢٢) تاريخ ابن خلدون: العلامة ابن خلدون، سلسلة الذخائر، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة سنة ١٢٨٤هـ.
- (٢٣) تاريخ أبى الفداء المسمى المختصر في أخبار البشر: لعقاد الدين إسماعيل بن على بن محمود بن عمر شاهنشاه، المعروف بأبى الفداء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، بدون..
- (٢٤) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي: د/حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية.
- (٢٥) تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية: عباس إقبال أشنتياتى، نقله عن الفارسية د/محمد علاء الدين منصور، مراجعة د/السباعى محمد السباعى، طبعة دار الثقافة القاهرة سنة ١٩٨٩م.
- (٢٦) تاريخ بخارى: لأبى بكر محمد بن جعفر النرشخى، ترجمة د/ أمين عبد المجيد بدوى، نصر الله مبشر الطرازى، طبعة دار المعارف، ذخائر العرب رقم ٤٠، الطبعة الثالثة بدون تاريخ.
- (٢٧) تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر: أرمنيوس فامبرى، ترجمه وتعليق د/أحمد محمود الساداتى، مراجعة د/يحيى الخشاب، طبعة دار لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة بدون تاريخ.
- (٢٨) تاريخ البيهقى: أبو الفضل البيهقى، ترجمه إلى العربية د/ يحيى الخشاب، د/ صادق نشأت، طبعة مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٥٦م.
- (٢٩) تاريخ الترك في أسيا الوسطى: بارتولد، ترجمة أحمد السعيد سليمان، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة سنة ١٩٩٦م.
- (٣٠) تاريخ حكماء الإسلام: ظهير الدين البيهقى، ط المجمع العلمى العربى، تحقيق محمد كرد على، مطبعة الترقى بدمشق سنة ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م.

- (٣١) تاريخ الدعوة: د/جمعة على الخولي، ط دار الطباعة المحمدية بالقاهرة الأولى سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- (٣٢) تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة: ستانلي لين بول، ترجمة د/أحمد السعيد سليمان، طبعة دار المعارف القاهرة بدون تاريخ.
- (٣٣) تاريخ دولة آل سلجوق: عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني، اختصره الشيخ الفتح بن علي بن محمد البنداري الأصفهاني، طبعة دار الأفاق الجديدة بيروت، الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
- (٣٤) تاريخ سلاجقة الروم في أسيا الصغرى: د/محمد سهيل طقوش، ط دار النفائس، الأولى سنة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- (٣٥) تاريخ السلاجقة في بلاد الشام: د/محمد سهيل طقوش،، طبعة دار النفائس بيروت، الأولى سنة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- (٣٦) تاريخ العراق والمشرق الإسلامي خلال العصر السلجوقي: د/محمد محمود إدريس، ط مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة سنة ١٩٨٥م.
- (٣٧) تاريخ الفكر الإسلامي: د/عصام الدين عبد الرؤوف الفقى، ط دار الفكر العربي القاهرة سنة ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- (٣٨) تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية: للإمام محمد أبى زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٦ م.
- (٣٩) تاريخ اليميني على هامش شرح اليميني المسمى بالفتح الوهبي على تاريخ أبى نصر العتبي: أبى نصر العتبي، طبعة المكتبة الوهبية القاهرة سنة ١٣٨٦هـ.
- (٤٠) التبصرة فيما بين الدعوة إلى الله والنفس الإنسانية من آصرة: أ.د/محمد عبد العاطى إبراهيم، ط الكليات الأزهرية، بدون تاريخ.
- (٤١) التحرير والتتوير: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ط دار سحنون للنشر والتوزيع تونس.

- (٤٢) تذكرة الدعاة: الشيخ البهى الخولى، ط دار التراث، الطبعة الثامنة القاهرة سنة ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.
- (٤٣) تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى: بارتولد، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، الطبعة الأولى، الكويت، أشرف على طبعه قسم التراث العربى بالمجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب سنة ١٤٠١هـ/١٩٨٠م.
- (٤٤) الترك في أسيا الوسطى: د/زبيدة عطا، ط دار الفكر العربى، القاهرة، بدون تاريخ.
- (٤٥) الجزيرة العربية ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب: د/فرج محمد إبراهيم الوصيف، ط إياك كوى سنتر.
- (٤٦) جمهرة اللغة: ابن دريد، ط دار العلم للملايين، تحقيق د/منير رمزى بعلبك.
- (٤٧) الجهاد في الإسلام: الشيخ محمد متولى الشعراوى، ط مكتبة التراث الإسلامى.
- (٤٨) جهار مقاله: نظامى عروضى سمرقندى.
- (٤٩) الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقى: د/مريزن سعيد مريزن، ط الأولى سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- (٥٠) خراسان في العصر الغزنوى: د/محمد حسن عبد الكريم العمادى، تقديم د/نعمان جبران، جامعة اليرموك الأردن.
- (٥١) الخطابة أصولها تاريخها في أزهى عصورها عند العرب: الإمام محمد أبو زهرة، ط دار الفكر العربى القاهرة، بدون.
- (٥٢) خطب القرضاوى: د/يوسف القرضاوى، ط مكتبة وهبة القاهرة الثالثة.
- (٥٣) خلق المسلم: الشيخ محمد الغزالى، ط نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الثانية عشر سنة ٢٠٠٧م.
- (٥٤) دائرة المعارف الإسلامية: ت. هوتسما، ت. و. أرنولد / ر. باسيت، ر.

- هارتمان، طبعة مركز الشارقة للإبداع الفكري، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م
- (٥٥) دراسات في وسائل تبليغ الدعوة الإسلامية: قسم الدعوة والثقافة الإسلامية بكلية أصول الدين والدعوة جامعة الأزهر بالمنصورة.
- (٥٦) الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة: أ.د/إبراهيم عبد المنعم، ط إياك كوي سنتر، القاهرة سنة ١٩٩٢ م.
- (٥٧) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ضد الصليبيين خلال الحركة الصليبية: د/أسيا سليمان نقلى، ط مكتبة العبيكان الرياض الأولى سنة ١٤٢٣ هـ/٢٠٠٢ م.
- (٥٨) الدول الإسلامية المستقلة في المشرق الإسلامي منذ مستهل العصر العباسي حتى الغزو المغولي (دراسة لدول أسيا الوسطى الكومنولث): د/عصام الدين عبد الرؤوف الفقى، ط دار الفكر العربى القاهرة سنة ١٤٢٠ هـ/١٩٩٩ م.
- (٥٩) الدولة الإسلامية والدولة المعاصرة: د/عبد الغنى عبود، ط دار الفكر العربى.
- (٦٠) دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامى لمقاومة التغلغل الباطنى والغزو الصليبي: د/محمد على الصلابى، ط المكتبة العصرية صيدا بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٨ هـ/٢٠٠٧ م.
- (٦١) الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط: د/ على محمد الصلابى، ط دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة الأولى ١٤٢١ هـ/٢٠٠١ م.
- (٦٢) الدولة في الإسلام: خالد محمد خالد، ط دار ثابت للنشر والتوزيع، الأولى.
- (٦٣) الدولة والسيادة في الفقه الإسلامى: د/فتحى عبد الكريم، ط مكتبة وهبه.
- (٦٤) راحة الصدور وآية السرور: أبو بكر محمد بن على بن سليمان بن محمد بن أحمد بن الحسين بن همة الراوندى، ترجمة د/ إبراهيم أمين الشواربى، د/عبد النعيم محمد حسنين، د/فؤاد عبد المعطى الصياد، طبعة المجلس الأعلى

- للتقافة القاهرة، سلسلة ميراث الترجمة العدد ٩٩٦ سنة ٢٠٠٥م.
- (٦٥) الرحيق المختوم: الشيخ صفى الرحمن المباركفوري، ط دار الوفاء للنشر والتوزيع القاهرة، السابعة عشر عام ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- (٦٦) رسائل الإيمان: أبى حامد الغزالي، ط مكتبة الإعتصام.
- (٦٧) رسالة المسجد: عبد المعطي بهجت، ط دار الأنصار بالقاهرة، وبدون تاريخ.
- (٦٨) روضة الخطباء وكيف تكون خطيباً ناجحاً: د/مصطفى مراد، ط دار الفجر للتراث الأولى.
- (٦٩) زين الأخبار: أبى سعيد عبد الحى بن الضحاك بن محمود، ترجمة د/عفاف السيد زيدان، طبعة المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٦م.
- (٧٠) سلاجقة إيران والعراق: د/عبد النعيم حسانين، ط مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية القاهرة.
- (٧١) السلاجقة تاريخهم السياسى والعسكرى: د/محمد عبد العظيم أبو النصر، ط عين للدارسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية سنة ٢٠٠٣م.
- (٧٢) السلاجقة في التاريخ والحضارة: د/أحمد كمال الدين حلمى، ط دار البحوث العلمية الكويت الأولى سنة ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.
- (٧٣) سلطان السلاجقة الأعظم السلطان سنجر السلجوقى سياسته الداخلية وأهم مظاهر الحضارة في عهده: محمد محمود إدريس.
- (٧٤) سفر نامة: ناصر خسرو علوى، ترجمة د/يحيى الخشاب، طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الألف كتاب الثانى، القاهرة سنة ١٩٩٣م.
- (٧٥) سنن ابن ماجه: الإمام محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني، ط دار الريان، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.
- (٧٦) سياسة الفاطميين الخارجية: د/محمد جمال الدين سرور، ط دار الفكر

- العربي، القاهرة، الرابعة سنة ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.
- (٧٧) سياسة نامة أو سير الملوك: الخواجة نظام الملك الطوسي، ترجمة د/يوسف حسين بكار، ط دار القدس بيروت لبنان بدون تاريخ.
- (٧٨) سير أعلام النبلاء: الحافظ الذهبي، حققه الشيخ شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرقوسي، ط مؤسسة الرسالة بيروت. لبنان، الثانية سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- (٧٩) شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد الإمام شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحى بن أحمد بن محمد العكبرى الحنبلى دمشقى، حققه محمود الأرنؤوط، عبد القادر الأرنؤوط، ط دار ابن كثير دمشق، الأولى سنة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- (٨٠) شعب الإيمان: الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق/محمد السعيد بسيوني زغلول ط دار الكتب العلمية بيروت، الأولى ١٤١٠هـ.
- (٨١) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، مؤسسة الرسالة بيروت الثانية ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، تحقيق /شعيب الأرنؤوط.
- (٨٢) طبقات الشافعية الكبرى: الإمام تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافي السبكي، ط دار إحياء الكتب العربية، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، محمود محمد الطناحى.
- (٨٣) طبقات المفسرين: الحافظ شمس الدين محمد بن على بن أحمد الداوددى المتوفى سنة ٩٤٥هـ، تحقيق عبد السلام عبد المعين، ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان الأولى.
- (٨٤) العبر في خبر من غير: الذهبي، حققه أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، ط دار الكتب العلمية بيروت. لبنان، الأولى سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- (٨٥) عباقره علماء الحضارة العربية والإسلامية في العلوم الطبيعية والطب: محمد

- غريب جودة، ط مكتبة القرآن للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، بدون تاريخ.
- (٨٦) عقيدة المسلم: الشيخ/محمد الغزالي، ط نهضة مصر، القاهرة، السابعة ٢٠٠٧م.
- (٨٧) عوامل نجاح الخطيب: ا.د/بدير محمد بدير، ط دار نور الإسلام بالمنصورة الثانية سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- (٨٨) الفخرى في الآداب السلطانية والدول: ابن الطقطقى محمد بن على بن طباطبا، ط المعارف، مصر، الثانية.
- (٨٩) الفرق بين الفرق: عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي الإسفرائيني التميمي، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، ط المكتبة العصرية بيروت سنة ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- (٩٠) الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم عقائد الفرق الإسلامية وآراء كبار أعلامها: الإمام أبى منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادى، دراسة وتحقيق محمد عثمان الخشت، طبعة مكتبة ابن سينا القاهرة ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.
- (٩١) فضائح الباطنية: الإمام أبى حامد الغزالي، قدم له عبد الرحمن بدوى، ط الدار القومية للنشر سنة ١٣٨٣هـ/١٩٧٤م.
- (٩٢) فقه الدعوة والإعلام: د/عمارة نجيب، ط الكليات الأزهرية بدون تاريخ.
- (٩٣) فقه السنة: للشيخ/السيد سابق، مكتبة التراث بالقاهرة، بدون.
- (٩٤) فقه السيرة: د/محمد سعيد رمضان البويطى، ط مكتبة الدعوة الإسلامية، بدون.
- (٩٥) فقه السيرة: الشيخ محمد الغزالي، ط دار البيان للتراث، الأولى القاهرة سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- (٩٦) فن الخطابة: أحمد الحوفى، ط مكتبة نهضة مصر الطبعة الثانية.

- (٩٧) فى التاريخ العباسي والفاطمي: د/أحمد مختار العبادى، ط مؤسسة شباب الجامعة.
- (٩٨) فى ظلال القرآن: الأستاذ سيد قطب، ط دار الشروق، السادسة عشرة سنة ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- (٩٩) القاموس المحيط: الفيروز آبادى، طبعة دار الحديث القاهرة.
- (١٠٠) القضاء فى الإسلام بوجه عام وفى العهد الإسلامى فى مصر بوجه خاص إلى سنة ٣٥٨هـ: عطية مصطفى مشرفة، مطبعة الاعتماد، الأولى.
- (١٠١) القضاء فى الإسلام: محمود بن محمد بن عرنوس، ط المطبعة المصرية الأهلية الحديثة بالقاهرة.
- (١٠٢) الكامل فى التاريخ: عز الدين أبى الحسن على بن أبى الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى.
- (١٠٣) الكتب والمكتبات فى الأندلس: د/حامد الشافعى دياب.
- (١٠٤) لسان الدعوة بين الإعداد والإنطلاق: د/عبد الناصر أحمد حسيب، ط الثانية.
- (١٠٥) لسان العرب: الإمام العلامة ابن منظور، ط دار إحياء التراث العربى ومؤسسة التاريخ العربى، بيروت سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
- (١٠٦) مجموع الفتاوى: شيخ الإسلام ابن تيمية، ط دار الرحمة بيروت.
- (١٠٧) مجموعة الرسائل: للإمام الشهيد/حسن البناء، در الشهاب ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.
- (١٠٨) المحكم والمحيط الأعظم: أبى الحسن على بن إسماعيل بن سيده المعروف بابن سيده، ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان بدون تاريخ.
- (١٠٩) مختار الصحاح: الشيخ الإمام محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى، ط مصطفى البابى الحلبي وأولاده مصر سنة ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م.

- (١١٠) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: الإمام العلامة أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية، ط المكتب الثقافى القاهرة، تحقيق: رضوان جامع رضوان.
- (١١١) المدخل إلى علم الدعوة - دراسة منهجية شاملة لتاريخ الدعوة وأصولها ومناهجها وأساليبها ووسائلها ومشكلاتها في ضوء النقل والعقل -: لمحمد أبى الفتح البيانونى، مؤسسة الرسالة، بيروت، بدون.
- (١١٢) المسالك والممالك: أبو اسحق إبراهيم بن محمد الفارسى الإصطخرى، تحقيق د/محمد جابر عبد العال الحينى، محمد شفيق غربال، طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة سنة ٢٠٠٤م.
- (١١٣) المسجد إنشاء ورسالة وتاريخاً: الإمام الأكبر الشيخ /جاد الحق على جاد الحق، هدية مجلة الأزهر سنة ١٤١٦هـ.
- (١١٤) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعى: أحمد بن محمد بن على المغربى الفيومى، ط دار الحديث، القاهرة سنة ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- (١١٥) معجم الأدباء: ياقوت الحموى، راجعته وزارة المعارف العمومية الطبعة الأخيرة، ط دار المأمون.
- (١١٦) معجم البلدان: ياقوت الحموى، ط دار صادر بيروت سنة ١٤١٤هـ.
- (١١٧) المعجم الكبير: سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبرانى، تحقيق /حمدي بن عبدالمجيد السلفي، ط مكتبة العلوم والحكم الموصل، الثانية سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.
- (١١٨) معجم المصطلحات والألقاب التاريخية: مصطفى عبد الكريم الخطيب، طبعة مؤسسة الرسالة بيروت سنة ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، الأولى.
- (١١٩) المعجم الوجيز: مجمع اللغة العربية، ط خاصة بالتربية والتعليم.
- (١٢٠) المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد

- النجار، ط. دار الدعوة، تحقيق: مجمع اللغة العربية مصر.
- (١٢١) الملل والنحل: أبو الفتح محمد عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، تحقيق أمير على مهنا، على حسن فاعور، ط دار المعرفة، بيروت لبنان الخامسة سنة ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- (١٢٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، ط دار الكتب العلمية بيروت. لبنان، الأولى سنة ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- (١٢٣) منهج التربية عند الإخوان المسلمين: د/علي عبد الحليم محمود، ط مكتبة الوفاء، المنصورة، بدون تاريخ.
- (١٢٤) منهج الدعوة د/عبد المنعم صبحي أبو شعيشع، مكتبة الكليات الأزهرية، ط الاولى ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.
- (١٢٥) من وصايا الرسول ﷺ: طه عبد الله عفيفي، ط دار الإعتصام القاهرة.
- (١٢٦) موسوعة ١٠٠٠ مدينة إسلامية: عبد الحكيم العفيفي، طبعة دار أوراق شرقية بيروت. لبنان، الطبعة الأولى سنة ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- (١٢٧) موسوعة التاريخ الإسلامي د/أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، ط الأولى ١٩٨٣ م.
- (١٢٨) موقف الإسلام العقدي من كفر اليهود والنصارى: د/يوسف القرضاوي، ط مكتبة وهبة القاهرة، الأولى سنة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- (١٢٩) النجوم الزاهرة في ملوك مصر و«القاهرة»: جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكي، ط وزارة الثقافة والإرشاد القومي مصر.
- (١٣٠) نظام الملك: الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، د/عبد الهادي محمد رضا محبوبه، ط الدار المصرية اللبنانية ص ٣٤٥، الأولى سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

- (١٣١) نظام الوزارة في الدولة العباسية ٣٣٤هـ - ٥٩٠هـ: د/محمد مسفر الزهراني، ط مؤسسة الرسالة، الثالثة سنة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- (١٣٢) النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق: جمال الدين سرور، ط دار الفكر العربي، القاهرة سنة ١٩٦٦م.
- (١٣٣) هداية المرشدين: الشيخ على محفوظ، ط دار الاعتصام، القاهرة سنة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- (١٣٤) الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق أحمد الأرنؤوط، تركي مصطفى، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت . لبنان، الأولى سنة ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- (١٣٥) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابن أبي بكر بن خلكان، حققه د/إحسان عباس، ط دار صادر بيروت سنة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.



فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة
٧	تمهيد
الفصل الأول	
الدول الإسلامية المستقلة في آسيا الوسطى	
٢١	قبيل ظهور السلاجقة وقيام الدولة السلجوقية
	المبحث الأول: الدول الإسلامية المستقلة في آسيا الوسطى قبيل
٢٣	ظهور السلاجقة
	المبحث الثاني: ظهور الدولة السلجوقية على مسرح الأحداث العصر
٥٤	السلجوقي الأول (٤٢٩-٤٨٥هـ)
٦٠	المبحث الثالث: التعريف بسلاطين الدولة السلجوقية
	المبحث الرابع: سلاطين السلاجقة بعد السلطان ملكشاه العصر
٨٧	السلجوقي الثاني (٤٨٥-٥٥٢هـ)
الفصل الثاني	
١٠٥	منهج الدولة السلجوقية في حماية الدعوة الإسلامية والحفاظ عليها
	المبحث الأول: منهج الدولة السلجوقية فيما يتعلق بالخلافة العباسية
١٠٩	وأثره في الدعوة

الصفحة

الموضوع

١١٧	المبحث الثاني: منهج الدولة السلجوقية فيما يتعلق بالخلافة الفاطمية وأثره في الدعوة
١٢٣	المبحث الثالث: منهج الدولة السلجوقية فيما يتعلق بالفرق الدينية وأثره في الدعوة
١٣٣	المبحث الرابع: منهج الدولة السلجوقية فيما يتعلق بالمذاهب الفقهية وأثره في الدعوة
١٣٩	المبحث الخامس: منهج الدولة السلجوقية فيما يتعلق بأهل الذمة وأثره في الدعوة

الفصل الثالث

١٤٩		وسائل الدعوة الإسلامية في عهد الدولة السلجوقية
١٥٣	المبحث الأول: الجهاد وأثره في الدعوة وكيفية الاستفادة منه في العصر الحاضر
١٧٦	المبحث الثاني: المساجد وأثرها في الدعوة إلى الله وكيفية الاستفادة منها في العصر الحاضر
١٨٦	المبحث الثالث: القضاء وأثره الدعوى في الدولة السلجوقية وكيفية الاستفادة منه في العصر الحاضر
١٩٩	المبحث الرابع: الخطابة وأثرها الدعوى وكيفية الاستفادة منها في العصر الحاضر
٢٠٨	المبحث الخامس: المدارس النظامية وأثرها في الدعوة إلى الله وكيفية الاستفادة منها في العصر الحاضر

الصفحة

الموضوع

٢٢٢	المبحث السادس: الرحلات العلمية وأثرها الدعوى وكيفية الاستفادة منها في العصر الحاضر
٢٢٨	المبحث السابع: المكتبات وأثرها الدعوى وكيفية الاستفادة منها في العصر الحاضر
الفصل الرابع		
٢٤٩	أساليب الدعوة الإسلامية في الدولة السلجوقية وأثارها الدعوية
٢٥٤	المبحث الأول: أسلوب الحكمة وأثرها الدعوى
٢٧١	المبحث الثاني: أسلوب الموعدة الحسنة وأثرها الدعوى
٢٨٦	المبحث الثالث: أسلوب المجادلة بالتى هي أحسن وأثرها الدعوى
٢٩٧	فهرس المصادر المراجع
٣١١	فهرس المحتويات

